الأخلاق

السيد عبد الله شبر

الأخلاق

دققه
جواد شبر

منشورات ذوي القربیٰ

اسم الكتاب :	الاخلاق
المؤلف :	السيد عبدالله الشبر
الناشر :	ذوي القربى
الطبعة :	الأولىٰ
تاريخ الطبع :	١٤٢٧
الكمية :	١٥٠٠
المطبعة :	صدر
شماره مجوز كتاب :	ف / ٢٦ / ٢٤٨٣٠ ـ ٤ / ٣ / ٨٤
شابك :	٤ ـ ٠٠٧ ـ ٥١٨ ـ ٩٦٤

مركز پخش : قم ـ پاساژ قدس ـ طبقه اول ـ پ ٥٩ ـ تلفن: ٧٧٤٤٦٦٣ ـ ٢٥١ ـ ٩٨+

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة في حياة المؤلف[1]

الحمد لله رب العالمين، الذي رفع قدر العلماء إلى أعلى عليين، وفضل مدادهم على دم المستشهدين، وجعلهم نواب الأئمة الطاهرين، وخفض من شك في فضلهم إلى تحت الثرى وجعل من عظم قدرهم معهم في الرفيق الأعلى والصلاة والسلام على رسوله ونبيه وحبيبه وصفيه وخليله محمد خاتم النبيين، وسيد الأولين والآخرين، وعلى ابن عمه ووصيه ووارث علمه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وسيد الوصيين، وعلى قرة عيني الرسول فاطمة الزهراء البتول وعلى سبطيهما الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة من الخلق أجمعين، وعلى الأئمة الطاهرين والحجج الميامين إلى يوم الدين.

وبعد فإن أحق ما أودع في الطرس وتوجهت إليه النفوس من فن

---

(١) هذه رسالة ألَّفها السيد محمد بن مال الله بن معصوم القطيفي النجفي المتوفي بكربلاء سنة ١٢٧١ في ترجمة أستاذه السيد عبد الله شبر قدس الله روحيهما. وكان السيد محمد معصوم من أعاظم علماء عصره وعباقرة دهره جمع بين العلم والأدب، كتب فأفاد ونظم فأجاد وهذه الرسالة إحدى نفثات يراعه البليغ تغمده الله برحماته الواسعة.

اعتمدنا بنقل هذه الرسالة على مؤلَّف العلامة الجليل والبحاثة الشهير شيخنا الشيخ آغا بزرك الطهراني سلَّمه الله، المخطوط بخطه والمسمى (إجازات الرواية والوراثة في القرون الأخيرة الثلاثة).

التواريخ المحفوظة والسير الملحوظة ، تواريخ العلماء الأعلام ، إذ عليهم مدار العالم من مبدأ نشوء آدم إلى يوم الحشر والحساب ، وهم الهداة إلى طريق الحق والصواب والأدلة على ما ينجي من العقاب ، فكان الواجب على الخلق حفظ تواريخهم وضبط مواليدهم ووفياتهم ونشر آدابهم وسيرتهم ليكون ذلك تذكرة على ممر الأعصار وباعثاً للوقوف على أخبارهم وذريعة للترحم عليهم في إناء الليل والنهار.

وكان أحق من نظم في عقد هذا الشأن ، ومن نوّه بذكره من أفاضل هذا الزمان ، بيان أحوال علم العلم الذي لا تباريه الأعلام والبالغ في ما حواه من الفضائل والفواضل إلى أعلى مقام الإمام الذي تصدر محراب العلم والإمامة ، والهمام الذي تسنّم صهوة جموح الفضل فملك زمامه الرافع للعلوم أرفع راية والجامع بين الرواية والدراية ، من تشنفت المسامع بفرائد كلامه ، وابتهجت النواظر بما تدبجه أنامل أقلامه ، سيدنا المقتدى بآثاره ، المهتدى بأنواره ، إمام محراب العلوم البديعة ، وخطيب منبر البلاغة التي أضحت له مذعنة ومطيعة ، قمر سماء المجد الأمثل ، وفلك شمس فخر كل ذي مقام جليل المحيطة يد بيانه حواجز الإشكال عن وجوه المعاني ، المعترف بمنطقه الفصيح القاصي من هذه الأمة والداني ، عمدة المحققين قديماً وحديثاً ، وملاذ المدققين تفسيراً وحديثاً ، بحر الفضائل الذي ساغ وعذب لكل وارد ، وكعبة المجد التي يطوي القفار إليها كل قاصد ، السيد الطاهر الأوحد ، حميد السجايا ومن اشتهرت فضائله كاشتهار الشمس بين البرايا ، حليف المعاني والمكارم ، ومن طوق الأجياد بإحسانه طوق الحمائم ، الحبر الذي قصرت عن استيفاء فضائله الأرقام ، والنائب عن الأئمة الطاهرين الكرام، الفاضل الذي هو مرجع الفضلاء في التحقيق ، الفاصل بين الأدلة إذا أعوز الترجيح والتوفيق ، جامع شمل العلوم العقلية والنقلية ، مقتطف ثمرات المسائل الفرعية من الأصلية ، سيدنا الحليم الأواه ، مولانا الحاج سيد عبد الله ، سلالة العالم المحقق والماهر المدقق مستنبط الفروع من الأصول ، ومرجع الدليل إلى المدلول ، علامة الأنام

وحجـة الإسـلام ، محيي الليل بـالعبـادة ، ومن استـوجب من الله الحسنى وزيـادة ، قدوة الفضـلاء وبقية العـرفاء ، العـالم العامـل والنحريـر الفاضـل ، المـدقق التقي النقي ، الجليل النبيـل ، الـورع الـزاهـد العـابـد ، والنـاسـك الراكع السـاجد ، رب الفضـائل والمحـامد والمـآثر ، حليف النهى والمكـارم والمفاخر شمس الخلق وبـدر الآفاق ، الـذي لم يعتر طبعـه الرقيق المحـاق ، المدبر عن أهـل الدنيـا الدنيـة ، والمقبل إلى كـل عمل يـرفع القـدر عند رب البـرية ، المبجـل لدى العلمـاء الأعلام ، والمشهـور بالفضـائل لـدى الخاص والعـام ، والكريم السخي الـذي جود كفـه باري السحـاب ، والمحبوب عنـد سائر أولي الألباب ، المبرز على كـل أهل الفضـل في زمانـه ، ومجتهد عصره وفريد أوانه ، المتواضع للصغير والكبير والمعظم لـدى الجليل والحقيـر ، من عبقت منـه رائحة النبـوة والإمامـة ، وإنه فـرع من دوحـة من ظللته الغمـامـة، المستجاب في الاستسقاءات وأكرم مبتهل عند رب الأرضين والسموات ، أجـلّ كافة السـادات والأشراف ومن لا يستـطاع ذكر مـزاياه ومـا حاز من المكـرمات والأوصاف .

يقـول الأقـل المحب المعلوم بـالسيـد محمـد خلف المـرحـوم السيـد معصوم ، محرر هذه الكلمات . هو أنه قد شاهدت له فضيلة تفـوق الفضائـل في سنـة مجدبـة من السنين أمـر الـوالي سعيـد بـاشـا جميـع أهـل بغـداد أن يصوموا ثلاثة أيام ويخرجـوا للاستسقـاء وطلب المطر ، ففعلوا ذلـك وخرجـوا وكـان بعض السحـاب في الجـو ، فلمـا دعـوا انجلى السحـاب وأشمست وحجبوا ورجعوا في خيبة وخجل، وأمر السيد المؤمى إليه قدس الله سـره ونور ضريحه أهل بلد الكاظمين بالصيام ثلاثة أيـام فصامـوا وخرج مـع جميع أهـل البلد إلى مسجد براثـا حافي الأقـدام مبتهلاً إلى الله تعـالى ، ولم يركب دابـة مـع أنه عـاجز عن المسيـر حيث إنه كـان بدينـاً جسيمـاً حتى دخـل المسجـد المذكور ، وصلى ودعـا وبكى ، فما أتم دعـاءه حتى انسدَّ الفضـاء بالسحـاب وأرعدت وأبرقت وصبت مـطراً سقت جميع أراضي العـراق من نواحي بغـداد وغيرها ، وهدمت كثيراً من دور أهـل بغداد حتى خشي النـاس الغرق ورجعنـا بخدمته إلى البـلاد ذاك سيدنـا الأبهر السيـد محمد رضـا شبر الحسيني قـدس

الله روحيهما وجعل في أعلى عليين مقاميهما بمحمد وآله الطاهرين.

وهذه رسالة في أحوال سيدنا ومولانا المتقدم ذكره السيد عبد الله فنقول ، إنا رتبنا لذلك مقدمة وفصولاً وخاتمة.

أما المقدمة ففي وصفه بالكمال على الإطلاق وما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق ووصف سماته وشكله وهيئته ، وأما الفصول فهي خمسة:

الأول في تعداد مشايخه الذين قرأ عندهم واستفاد منهم وأجازوه ، وفي تعداد مصنفاته وما أفاده من التحقيقات في المسائل الفائقة والمباحث الرائقة.

الثاني في تعداد تلامذته الذين قرأوا عليه وترددوا إليه ، وأخذوا عنه واستفادوا منه ، من العرب والعجم وغيرهم.

الثالث في ذكر أمره في الكتابة وما له فيها من الآيات ومحاسن المكرمات.

الرابع في تعداد أولاده ومن مات منهم ومن هو موجود الآن.

الخامس في ولادته ووفاته ، ومدة أيام عمره.

وأما الخاتمة ففي بيان حال وفاته وما جرى على الخلق بعده وما قيل فيه من القصائد ومن قام بالأمر بعده.

المقدمة :

حاز قدس الله سره ونور ضريحه من خصال الكمال محاسنها ومآثرها، وتردى من أصنافها بأنواع مفاخرها ، كانت له نفس عليّة وسجايا سنيّة ، يفوح منها الفضل ، كان شيخ الأمة وفتاها ومبدأ الفضائل ومنتهاها ، ملك من العلوم زماماً ، وجعل العكوف عليها فرضاً وإلزاماً، أحيى رسمها وأعلى اسمها ، لم يصرف لحظة من عمره إلا في اكتساب الفضيلة ، ووزع أوقاته على ما يعود إليه نفعه في اليوم والليلة أما النهار ففي تدريس ومطالعة وتصنيف ومراجعة ، وأما الليل فله فيه استعداد كامل لتحصيل ما يبتغيه من الفضائل ، هذا مع غاية اجتهاده إلى مولاه وقيامه بأوراد العبادة حتى كلّت

قدماه ، وهو مع ذلك قائمٌ بأحوال المعيشة أحسن قيام على أحسن نظام ، وقضاء حوائج المحتاجين بأخلاق هي ألطف من ماء الغمام ، وأحلى من ورد جَنِيٍّ هبَّ عليه نسيم السحر فتفتحت منه الأكمام . أما الفقه فقد كان قطب مداره وفلك شموسه وأقماره ، بل هو نجم سعوده في داره ، صنف فيه فأجاد وبلغ بذلك غاية المراد وناهيك بشرح المفاتيح الكبير الذي لم يسمح الزمان بمثله ولم ينسج ناسج على منواله . وأما الحديث فقد مدَّ فيه باعاً طويلاً، وذلل صعاب معانيه تذليلاً، وشعشع القول فيه ورروعه ومدَّ في ميدان الإعجاز مطلقه وحتى صار نصب عينيه عياناً وجعل للسالكين في طرقه تبياناً ، وناهيك (بجامع الأحكام)[1] الذي حوى جميع أخبار أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام فإنه كتاب غريب على طرز عجيب ، يستغني به من كان عنده عن جميع كتب الأخبار وقد اشتهر اشتهاز الشمس في رائعة النهار ، ولكثرة ما صنف وألف سيدنا المذكور قد اشتهر في زماننا بالمجلسي الثاني وقد بلغ عطر الله مرقده ـ بسبب كثرة ممارسته الأخبار وشدة تعلقه بملاحظة الآثار ـ أن جماعة من وجوه أهل عصره وجملة من المرتقين إلى أعلى مراتب الفضل والكمال من أهل عصره وغير مصره كانوا يمتحنونه بقراءة

---

(١) جامع المعارف والأحكام في الأخبار جمع فيه أحاديث الأصوليين والفقه من الكتب الأربعة وغيرها، يشتمل على عشرين مجلداً وهو كدائرة معارف . وكل هذه المؤلفات مخطوطة وأكثرها بخط المؤلف قدس الله سره . ولم يطبع منها غير النزر اليسير ، وإليك أسماء المطبوع منها:

١ ـ الحق اليقين ، جزءان ، طبع بمطبعة العرفان ـ صيدا ، وطبع مرة ثانية في النجف الأشرف ، ومرات أخرى في كل من إيران ولبنان.

٢ ـ مصابيح الأنوار، جزءان طبع عدة مرات.

٣ ـ الوجيز في تفسير القرآن العزيز ، طبع في طهران ـ إيران .

٤ ـ أحسن التقويم ، طبع مرات عديدة في مطابع الهند والعراق.

٥ ـ شرح زيارة الجامعة ، طبع في مطبعة الغري ـ النجف.

٦ ـ الأخلاق وهو الكتاب الذي بين يديك وقد سمحت به مكتبة سيدنا المفضال سماحة السيد عباس شبر سلّمه الله نجل سماحة العلامة الجليل السيد محمد حفيد المؤلف السيد عبد الله شبر تغمدهم الله برحماته الواسعة ، ومن الجدير بالذكر أن المكتبة (الشبرية) التي أسسها سماحة السيد عباس شبر تضم أكثر مؤلفات المترجم له.

متن الرواية ويقطعون السند وهو ـ قدس سره ـ يسندها إلى قائلها من آل بيت محمد ﷺ وقد تكرر ذلك منه ومنهم حتى تجاوز حد الإحصاء وبلغ مبلغاً لا يأتي له انتهاء ، فكان ذلك يعظم على أولئك العلماء الأعلام حتى استقرت نفوسهم وأيقنوا بأن ذلك لا يكون إلا كرامة له أتحفه بها المليك العلام . ولقد نقل أنه ذكر عند المجلسي أن العلامة طاب ثراه عدّت تصانيفه من يوم ولادته إلى حين وفاته فكانت كل يوم كراساً مضافاً إلى ما كان عليه من مكارم الأخلاق وقضاء الحوائج ومراجعة الملوك وغير ذلك فقال العلامة المجلسي : ونحن بحمد الله لا تقصر تصانيفنا عن ذلك.

وسيدنا المذكور إذا تأملت في تصانيفه تراها لا تقصر عن ذلك مضافاً إلى عبادته ومخالطته للناس وقيامه بمطالبهم وفصل دعاويهم وعيادة مرضاهم وحضور جنائزهم ومراجعة الملوك لما يتعلق بمصالحهم ، فهو آية من آيات الله للعباد وهادٍ لهم إلى طريق الرشاد ، ولقد كان يجلس في المجلس العام ويصنف والناس جالسون عنده وهو يلاطفهم ويكلمهم كل بما يليق بحاله ، وتأتي في خلال ذلك الدعاوى فيفصلها ويقضي بها على وفق أوامر الله كل ذلك لا يشغله عن التصنيف والتأليف وهذا من الكرامات الظاهرة والآيات الباهرة .

وأما علوم القرآن العزيز وتفاسيره من (الوسيط) و(الوجيز)[1] فقد حصل منهم على فوائدها وخاصها وعرف حقائقها ومجازها.

وأما علم المعقول فقد أتى فيه من الإبداع ما أراد وفاق فيه الفضلاء والأمجاد ، إن تكلم في علم الأوائل أبهج الأذهان والألباب وولج منها كل باب.

وأما علم الرجال فقد سبق فيه المصنفين في هذا المقال.

وأما الدعاء فقد كتب فيه المختصرات والمطولات .

---

(١) يشير إلى مؤلفاته في التفسير وهي (صفوة التفاسير) و(الجوهر الثمين في تفسير القرآن المبين).

وأمـا اللغة فقـد كتب فيها فـأحسن وحقق فأتقن ، ولـه فيهـا عجيبـة في فنها غريبة.

وأما « الأخلاق» فقد صنف فيـه مـا ينبغي أن يكتب على الأحـداق لا في بطون الأوراق.

وأما العرفان فقد كان له فيـه شأن وأي شـأن، ولقد اشتمـل على فضيلة جميلة ومنقبـة جليلة تفرد بهـا عن أبناء جنسـه وحبـاه الله بهـا تـزكيـة لنفسـه ، وهي أن من المعلوم البين أن العلمـاء لم يقـدروا على نشـر العلم من طـريق التصنيف والترصيف حتى يتفق لهم من يقـوم بجميع المهمـات وبذل النفقـات إمـا من ذي سلطان يسخـره الله لهم أو ممن يهـوى الخيـر والإحسـان . وكـان سيدنا المذكور قاطع النظر من جميع البشـر ليس له طمع في ما عنـدهم ، ومع ذلـك كان في سعـة الحال قـد بلغ بها النهـايـة وتجـاوز الغـايـة ، وبـرزت لـه تصانيف لا تحصى.

ولقد اجتمع مع بعض العلماء ، وكان السيد قـد فرغ من قـراءة الفاتحـة للشيخ المفيد وشيخه ابن قولويه ، فقـال له ذلـك العالم : يـا سيدنـا إني أريد أن أسألك عن مسألتين : عن أمر المعيشة ، وسرعة التصنيف ، فأجابه السيد بـأن أمر المعيشـة موكـول إلى الله عز وجـل ، وأما سـرعة التصنيف فـإني قـد رأيت الإمـام سيد الشهـداء أبـا عبـد الله الحسين عليه السلام في عـالم الـرؤيـا فقـال لي : أكتب وصنف فـإنه لا يجف قلمـك حتى تموت . وهـذه رؤيـا صحيحـة لأنـه ورد عنهم عليهم السلام إنه من رآنـا فقد رآنـا فإن الشيـطان لا يتمثـل بنـا. وورد عنهم عليهم السلام: إن الـطيف جزء من سبعين جـزء من النبوة . وكـان الأمر كـذلـك فإنه رحمه الله إلى مرض مـوته كـان يكتب ويصنف وأما شكله فقـد كان ربعـة من الرجال في القامة ، وكان بديناً سميناً ، ووجهـه كأنـه القمر بهي المنـظر ، وشعـر كريمتـه كأنـه سواد السبـج ، إذا نظر النـاظر إلى وجهـه وسمع عـذوبـة لفـظه لم تسمح نفسـه بمفارقتـه ، وتسلّى عن كل شيء بمخـاطبته ، وأيم الله إنه لفوق ما وصفت ولقد اشتمل على أكثر مما ذكرت.

الفصل الأول في تعداد مشايخه : فمن مشايخه رحمه الله والده العلامة قدوة الأفاضل ، ومن لنفسه دائماً في طاعة الله باذل ، السيد محمد رضا شبر ، المتقدم ذكره ، فقد قرأ عليه جملة من الزمان ، ومنهم العالم المتبحر المحقق المدقق الزاهد العابد صاحب التصانيف الرائقة والتحقيقات الفائقة ، اللسن المتقي إمام زمانه ووحيد أوانه سيدنا السيد محسن الأعرجي صاحب (الوسائل) وشرح الوافية ، والمحصول ، وغير ذلك فإنه قرأ عليه شطراً من العلوم، وغيرهما من العلماء والفضلاء، وقد أجازوه وأجازه أيضاً العالم الرباني والفرد الأوحد الذي ليس له ثانٍ، كعبة الفضلاء التي يطوي إليها القفار كل قاصد وبحر الجود الذي ساغ وعذب لكل وارد ، صاحب الآيات الظاهرة والبراهين الباهرة ، والتحقيقات التي لم يسبقه بها سابق ولم يلحقه بها لاحق ، خاتمة الفقهاء وبقية الفضلاء شيخنا الأكبر الشيخ جعفر النجفي ، وله تصانيف لم يكتب مثلها ، منها (كشف الغطاء) المشتمل على الفروع والتحقيقات ، وقد برز في جملة مجلدات ووصل إلى الحج ومنها شرح قواعد العلامة في التجارة ، وجملة من البيع مجلد ، ورسالة في الصلاة ورسالة في الصوم ، ورسالة في الزكاة ، ورسالة في الدعاء ، ورسالة في أحكام الجنائز ومنسك في الحج ، ورسالة في العقائد ، وحاشية على المفاتيح ، وغير ذلك من الحواشي وأجوبة المسائل طاب ثراه وجعل الجنة مثواه ، وكذلك أجازه العالم المتبحر جامع المعقول والمنقول ، ومستنبط الفروع من الأصول ، ومن أجاز سائر العلماء والمجتهدين ، الشيخ أحمد بن زين الدين الإحسائي(١).

الفصل الثاني في تعداد تلامذته : فمنهم العالم العامل الفاضل الكامل جامع المعقول والمنقول مستنبط الفروع من الأصول التقي الألمعي الشيخ عبد النبي الكاظمي فإنه قرأ عليه زماناً طويلاً ، واستفاد منه واستجازه

---

(١) وذكر شيخنا البحاثة الشيخ آغا بزرك الطهراني رحمه الله في تعليقة له على الرسالة المخطوطة بخطه ما نصه : وحكى سيدنا الحسن صدر الدين دام ظله أنه رأى إجازة الشيخ أسد الله صاحب (المقاييس) بخطه للسيد عبد الله شبر.

فأجازه ، ولهذا الشيخ مصنفات منها كتاب في الرجال عديم النظير في جامعيته استقصى فيه أحوال الرجال وقضاياهم ، ومن جملة من ذكره سيدنا المذكور فقال : عبد الله ابن السيد محمد رضا شبر الحسيني قرأت عليهما واستفدت منهما وهما ثقتان عينان مجتهدان فقيهان فاضلان ورعان حازا الخصال الحميدة ، والسيد عبد الله سلمه الله حاز جميع العلوم الشرعية من التفسير والفقه والحديث واللغة والأصولين وغيرها فأكثر وأجاد وأفاد ، وانتشرت أكثر كتبه في الأقطار وملأت الأمصار ، ولم يوجد أحد قط مثله في سرعة التصنيف وجودة التأليف ولنذكر ما وقفت عليه من كتبه ، ثم ذكر ما ذكرناه من المصنفات ، إلى أن قال في آخرها: وهذا الكثير مع مواظبته على كثير من الطاعات كزيارة الأئمة والإخوان والنوافل وقضاء الحوائج ، والقضاء والفتوى إلى غير ذلك.

ومنهم العالم العامل والنحرير الكامل المولى الألمعي والعريف اللوذعي حجة الإسلام وكهف الأنام شيخنا الشيخ إسماعيل خلف العلامة المرحوم شيخنا ومولانا الشيخ أسد الله قدس الله روحيهما ، ولهذا الشيخ المذكور طاب ثراه كتابة في الأصول الفقهية اسمها (المنهاج) ورسالة في أصول الدين ورسالة في الفتوى ومنسك في الحج إلى غير ذلك من الحواشي وأجوبة المسائل ، توفي قدس سره في سنة سبع وأربعين ومائتين وألف.

ومنهم العالم العامل ، والفاضل المدقق الكامل المتبحر الماهر التقي السيد علي العاملي فإنه لما هاجر من بلاد الجبل إلى العراق للاشتغال ورد إلى مشهد الكاظمين فقرأ جملة من العلوم على سيدنا المذكور ، وهذا السيد له بعض التصانيف منها شرح منظومة العالم المتبحر رئيس العلماء على الإطلاق ومن وقع على فضله الاتفاق بحر العلوم السيد محمد مهدي الطباطبائي طاب ثراه .

ومنهم العالم المحقق زبدة أهل التحقيق وقدوة أرباب التدقيق الأمين المؤتمن السيد حسين سلالة سيدنا المذكور فقد قرأ على أبيه جملة من

الزمان وله بعض المصنفات منها تتمة شرح نهج البلاغة لوالده السيد المذكور ، وكان على غاية من الصلاح والتقوى ومكارم الأخلاق والورع والعبادة .

ومنهم العالم العامل التقي النقي الشيخ محمد جعفر الدجيلي .

ومنهم العالم العامل والفاضل الكامل الشيخ محمد رضا ابن المرحوم الشيخ زين العابدين ابن الشيخ بهاء الدين المدفون في مدارس من بلاد الهند ، فإنه قرأ عليه جملة من العلوم ولهذا الشيخ شرح على شرائع الإسلام ورسالة في الفتوى .

ومنهم العالم العامل صاحب النظر الدقيق التقي الألمعي مولانا الشيخ أحمد البلاغي .

ومنهم العالم الفاضل البارع الكامل الألمعي الشيخ محمد إسماعيل الخالصي .

ومنهم العالم الفقيه والوحيد النبيه أفضل الفقهاء أجلُّ نواب الأئمة وأشرف المتكلفين بأيتام الأمة ذو الصولة التي لا تجارى والعظمة التي لا تبارى شيخنا الشيخ مهدي خلف العلامة الأواه الشيخ أسد الله .

ومنهم العالم العامل والفقيه الفاضل ، أفضل أهل زمانه على الإطلاق التقي النقي والمولى الصفي ، شيخنا ومولانا الشيخ حسين محفوظ العاملي طاب ثراه . وغيرهم ممن لا يحضرني أسماؤهم .

الفصل الثالث في ذكر أمره في الكتابة : أما أمره في الكتابة فعجيب غريب ، نشأ من التوفيقات السبحانية والفيوضات الإلهية ، وذلك لكمال الرابطة بينه وبين الملك الجبار ولتمام مجاهدته لنفسه وتصفيتها ، فمذ علم الله تعالى منه ذلك وأنه أهل لذلك أفاض عليه من عطاياه الحسنة وأتاه في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، وكان طاب ثراه له سرعة يد في الكتابة إلى الغاية تجاوز في ذلك النهاية وتصانيفه مع حسنها وما فيها من التحقيقات الرائقة كان يكتب حتى إن الكتّاب المنقلة الذين هم يكتبون تحت يديه

مصنفاته ومؤلفاته ليس لهم تلك السرعة ، ولقد رأينا له بعض الرسائل يقول فيها : إني شرعت بها عند العشاء وتمت عند نصف الليل.

الفصل الرابع في تعداد أولاده : وهم ستة ذكور ، منهم سيدنا ومولانا العالم العامل والفاضل الكامل ، جامع شتات المكارم ونتيجة الأجلاء الأعاظم المنزه عن كل شين ومين سيدنا ومولانا السيد حسين أطال الله بقاه وهو موجود الآن ، كان في لكنهور ثم ارتحل إلى كاپور لطيب هوائها وعذوبة مائها.

ومنهم العالم العامل والمحقق الفاضل الأمين المؤتمن سيدنا السيد حسن توفي طاب ثراه سنة الطاعون سنة ست وأربعين ومائتين وألف في مشهد الكاظمين ودفن مع جده وأبيه.

ومنهم السيد التقي النقي الأمجد الأسعد السيد محمد وقد توفي بمشهد الشهداء ودفن بالرواق الشريف سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف.

ومنهم السيد العالم الفاضل والمحقق الكامل جامع شتات الكمالات والمستمد من الأئمة الهداة الأبهر الأفخر السيد جعفر سلمه الله وهو موجود الآن في محروسة أصفهان وله شرح على شرائع الإسلام برز منه أربعة مجلدات مبسوطة.

ومنهم السيد موسى توفي سنة الطاعون الذي ذكر في ما سبق، كان في أوائل البلوغ.

ومنهم السيد محمد جواد توفي مع إخوته في سنة الطاعون المذكورة.

هذه خلاصة الكلام في أولاده أطال الله بقاء الموجودين وأفاض سحاب رحمته على الأموات.

الفصل الخامس في ولادته ووفاته : ولد طاب ثراه بالنجف الأشرف سنة ثمان وثمانين ومائة وألف ثم ارتحل مع والده إلى المشهد الكاظمي وقطن بها إلى أن توفي بها سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف ودفن مع والده المبرور

بحجرة في رواق الإمامين فيكون عمره طاب ثراه أربعاً وخمسين سنة ، فانظر إلى صغر سنة وإلى تلامذته وتصانيفه وما ذكرناه من جمعه للكمالات تعلم أن ذلك لمزيد التوفيق والتأييد من الملك الحميد والمبدىء المعيد.

الخاتمة : توفي رحمه الله في مشهد الكاظمين في رجب في ليلة الخميس بعد مضي ست ساعات من الليل ، ولا يحضرني المقدار من الشهر ولما أصبح الصباح ماجت بلد الكاظمين بأسرها ووافى أهل بغداد من الجانبين وكثر الصراخ والبكاء والضجيج ، وكان يوماً عظيماً مشهوداً وحمل على الأعناق إلى أن أدخل على الإمامين الهمامين موسى والجواد وصلى عليه ولده المؤتمن السيد حسن ودفن بالحجرة كما ذكرناه سابقاً ، وصار الناس يومئذٍ في وحشة عظيمة لما فاتهم من التشرف برؤياه والاكتحال بالنظر إلى محياه ، وقدم العلماء ولده الأمين المؤتمن السيد حسن المتقدم ذكره للصلاة في مسجده وصلوا خلفه وجلس رحمه الله وأقام له فاتحة عظيمة حضرها الناس جميعاً ، وأقام له في النجف الأشرف شيخ المشايخ الجلّة رئيس المذهب والملّة خاتمة المجتهدين وبقية المدققين وكعبة المحققين حافظ الشريعة المحمدية من شبهات الملحدين وعوارض المدلسين ، مربي المشتغلين والنائب عن الأئمة الطاهرين حجة الإسلام ومرجع الخاص والعام صاحب جواهر الكلام الذي لم يسمح الزمان بمثله ولم ينسج ناسج على منواله الأمين المؤتمن شيخنا ومولانا وأستاذنا جناب الشيخ محمد حسن سلمه الله من المحن مد الله ظلاله على العالمين كما حفظ به شريعة سيد المرسلين، وجلس للتعزية وورد عامة أهل النجف لقراءة الفاتحة ونظمت القصائد ومن جملة من رثاه السيد الطاهر الأوحد العالم الأمجد الأسعد الأشد السيد محمد نجل المرحوم المبرور الورع السيد معصوم الموسوي ومنها :

أروح وفي القلب مني شجىً — وأغدو وفي القلب مني شجن
ولم يشجني فقد عيش الشباب — وليل الصبا ولذيذ الوسن
ولا هاجني منزل بالحمى — ولا ذكر غانية أو أغن

ولكن شجتني صروف الزمان بأهل الرشاد ولات الزمن
بموسى الكلم بدت بالردى وكم فيه رُدَّ الردى والمحن
وثنت بمن لم يكن غيره إماماً لدينا يقيم السنن
فأخنى الزمان بنجل الرضا وألبسني فيه ثوب الحزن
وناعيه لما نعاه لنا أذاب الفؤاد وأضنى البدن
نعى العالم الهاشمي التقي نعى من له الفضل في كل فن
فلا غرو أن بكت المكرمات بدمع كمنهل غيث هتن
على من سرى ذكره في البلاد وشاع بذكر جميل حسن
فيا طود فضل هوى في الثرى وغيب في طيه إذ بطن
ويا راحلاً عن ديار الغرور فذكر جميلك فينا قطن

ثم أقيمت له في مشهد الإمام الحسين عليه السلام فاتحة عظيمة حضرها عامة أهالي كربلاء وكذلك في الحلة، وأما في إيران فقد أقيمت له الفواتح وناحت عليه النوائح وجرت عليه المدامع وأجج فقده الوجد بين الأضالع، وقام بالأمر ولده الأمين المؤتمن السيد حسن وجلس مكانه، وحضر عنده تلامذة السيد المرحوم وأتم بعض مصنفاته ونعم الخلف والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله أجمعين.

أرخ الخطيب الشهير الشيخ كاظم آل نوح وفاة السيد، كما أثبت ذلك في الجزء الثالث من ديوانه:

خطب دهى فراح عنا راحلاً ابن النبي الطاهر المطهر
وقد بكاه الدين حزناً أرخوا قد مات عبد الله بن شبر

١٢٤٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحسن خلق الإنسان وفطره على صبغة الإيمان وعلّمه المعارف والبيان وأنعم عليه بالتفضل والإحسان وأرشده إلى اقتناء الفضائل والفواضل وحذره وأنذره عن ارتكاب الرذائل وفرض تحسين الأخلاق إلى اجتهاد العبد فيها وتشهيره واستحثه على تهذيبها من الرذائل بتخويفه وتحذيره وسهّل عليه تحسينها بتوفيقه وتيسير ما إمتن عليه بتسهيل الصعب منها وعسيرها والصلاة على النبي الكريم المنعوت في الفرقان الحكيم بأنك لعلى خلق عظيم وآله القربى الذين حث الله على حبِّهم وأهل الذكر الذين أمر الله بمسألتهم وأولي الأمر الذين أمر الله بطاعتهم .

أما بعد فيقول العبد المذنب العاصي الغريق في بحار الآثام والمعاصي أفقر الخلق إلى ربه الغني عبد الله بن محمد رضا الحسيني رزقهما الله خير الدارين وأذاقهما حلاوة النشأتين وحباهما بما تقر به العين بمحمد وآله المصطفين لا يخفى على أولي البصائر النقّادة وذوي الأفهام الوقادة فضيلة علم الأخلاق وشرافته وجلالة قدره ورفعة شأنه ونباهته وأنه قُوام الدين ونظام العالمين وطلبه فرض على جميع المسلمين وبه يحصل التأسي بسيد المرسلين وعترته الطاهرين فإن الأخلاق الحسنة هي المنجيات والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة المهلكات المبعدة من جوار رب العالمين والمنخرطة بصاحبها في سلك الشيطان اللعين وأمراض القلوب والنفوس

المضرة بالأديان أعظم ضرراً من أمراض الأجساد والأبدان إذ تلك مغوية لحياة الجسد وهذه تفوّت حياة الأبد ووجوب ذلك الطب كفائي وتعلم هذا الطب واجب عيني وهذه أوراق قليلة حائزة لفوائد جليلة قد اشتملت على زبدة هذا العلم الشريف وجمعت خلاصة هذا الطب المنيف من خصوص أمراض القلوب وتفصيل العلاجات وبيان الخصال المنجيات والرذائل المهلكات وقد رصعت بجواهر الآيات القرآنية ودرر الأحاديث المعصومية والبراهين اليقينية والدلائل العقلية والشواهد النقلية وهي وإن صدرت ممن هو من الذين يقولون ما لا يفعلون ويأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ولا يأتمرون وينهون عن المعاصي والآثام ولا ينتهون والمواعظ والنصائح إن صدرت عن مجرد اللسان لم تتجاوز الأسماع وزلت كما يزل الماء عن الصفا وإن صدرت عمّن اتصف بها أثرت في القلوب كالنقش في الحجر إلا أن العذر في الأول زيادة البصيرة في التقصير والقصور والمقت للنفس والذل والانكسار والاطلاع على بواطن العيوب وقبائح الأمور والعذر في الثاني أنها لم تصدر على لسان المذنب الجاني بل كان مصدرها من معادن الوحي والتنزيل وأرباب العلوم والحقائق والتأويل الذي هبط في بيوتهم جبرئيل وعلماء الدين المبين وقوام شريعة سيد المرسلين ونواب الأئمة الطاهرين وقد رتبتها على مقدمة وأبواب وفصول والتوفيق من الله مسؤول والتأييد منه مطلوب ومأمول والعذر عند كرام الناس مقبول وهو حسبي ونعم الوكيل.

المقدمة

الفصل الأول : في مدح حسن الخلق وذم سيئه :

في الكافي عن الباقر عليه السلام قال : إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : ما يوضع في ميزان أمرىء يوم القيامة أفضل من حسن الخلق.

وعن الصادق عليه السلام قال : ما يتقدم المؤمن على الله عز وجل بعمل بعد الفرائض أحب إلى الله تعالى من أن يسع الناس بخلقه.

وعنه عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن صاحب الخلق الحسن له مثل أجر الصائم القائم.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : أكثر ما تلج به أمتي الجنة تقوى الله وحسن الخلق ، يعمران الديار ويزيدان في الأعمار.

وقال عليه السلام: إن الخلق الحسن ليميث الخطيئة كما تميث الشمس الجليد .

وقال عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله يغدو عليه ويروح .

وقال عليه السلام: إن حسن الخلق يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم .

وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن حسن الخلق ، فتلا قوله تعالى :

﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ ، ثم قال ﷺ : وهو أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك .

وقال ﷺ : بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

وجاء رجل إليه ﷺ من بين يديه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ فقال : حسن الخلق . ثم أتاه من قبل يمينه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ فقال : حسن الخلق . ثم أتاه من قبل شماله فقال : ما الدين ؟ فقال : حسن الخلق . ثم أتاه من ورائه فقال : ما الدين؟ فالتفت إليه فقال : أما تفقه ! هو أن لا تغضب .

وقيل : يا رسول الله ما الشوم ؟ فقال : سوء الخلق.

وسئل ﷺ : أي الأعمال أفضل فقال : حسن الخلق.

وقال ﷺ: سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل.

وقال ﷺ : أبى الله عز وجل لصاحب الخلق السيء بالتوبة . قيل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : إذا تاب من ذنب وقع في ذنب أعظم منه.

وقال الصادق عليه السلام: إن سوء الخلق ليفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل.

وقال عليه السلام: من ساء خلقه عذّب نفسه.

وقال بعض العارفين : سوء الخلق سيئة لا ينفع معها كثرة الحسنات ، وحسن الخلق حسنة لا يضر معها كثرة السيئات.

وقال الله تعالى : ﴿ولكم في رسول الله أُسوة حسنة﴾ .

قال بعض العلماء : كان رسول الله ﷺ أحلم الناس ، وأشجع الناس ، وأعدل الناس ، وأعف الناس ، لم تمس قط يده يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو لا تكون ذات رحم محرم منه ، وكان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم ، وإن فضل ولم يجد من يعطيه فجاءه

الليل لم يأو إلى منزله حتى يبرأ منه إلى من يحتاج إليه ، وكـان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم مصالح أهله ويقطع اللحم معهن.

وكـان أشد النـاس حيـاءً، لا يثبت بصره في وجه أحـد ، يجيب دعـوة الحر والعبد ، ويقبل الهدية ولو كـانت جرعـة لبن ويكافىء عليهـا ، ولا يأكـل الصدقة ، ويغضب لربه ولا يغضب لنفسـه يعود المـرضى ، ويشهد الجنـائز ، ويمشي بين أعـدائه وحـده بلا حـارس . أشد النـاس تواضعـاً ، وأسكنهم في غيـر كبر ، وأبلغهم من غيـر تـطويـل ، وأحسنهم بشـراً ، لا يهـولـه شيء من أمور الدنيا ولم يشبع من خبز بر ثـلاثة أيـام متواليـة حتى لقي الله تعالى إيثـاراً على نفسه لا فقراً ولا بخلاً.

وكـان يعصب الحجر على بـطنه من الجـوع ، ويأكـل ما حضـر ولا يرد ما وجد ، ولا يتورع من مطعم حـلال ، ويلبس ما وجـد ، ويـركب مـا أمكنه مرة فرسـاً ومرة بعيـراً ومرة بغلة شهبـاء ومرة حمـاراً ومرة يمشي راجـلاً ، يعود المرضى في أقصى المدينة ، يحب الطيب ويكره الروائـح الرديئـة ، ويجالس الفقـراء ، ويؤاكـل المساكين ، ويكـرم أهـل الفضـل في أخـلاقهم ، ويتـألف أهـل الشرف بـالبر لهم ، ويصـل ذوي رحمه من غيـر أن يؤثرهم على من هـو أفضـل منهم ، ولا يجفو أحـداً ، يقبل معـذرةَ المعتذر إليـه ، يمزح ولا يقـول إلا حقاً ، ويضحك من غير قهقهة ، وتـرفع الأصـوات عليه فيصبـر ، وما لعن امـرأة ولا خادمـاً ، ولا يجزي بـالسيئة السيئـة ولكن يعفو ويصفـح ، ويبدأ من لقيه بالسلام ، وما أخذ أحد بيـده فيرسـل يده حتى يـرسلها الآخـذ ، ولا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله.

وكان أكثر جلوسـه أن ينصب ساقيـه جميعاً ويمسـك بيديـه عليهما شبـه الحبـوة ، ولم يكن يعرف مجلسـه من مجلس أصحابـه لأنه حيث مـا انتهى به المجلس جلس فيه ، وأكثر ما يجلس مستقبل القبلة.

وكان يكرم من يـدخل عليـه حتى ربما بسط ثـوبه لمن ليست بينـه وبينه قرابة ، وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تكون تحته ، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل.

وكان أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضاءً، وكان أرأف الناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس ، أفصح الناس منطقاً وأحلاهم ، وأوجز الناس كلاماً ، يجمع كل ما أراد مع الإيجاز ، يتكلم بجوامع الكلم ، طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة ، ولا يقول المنكر ولا يقول في الغضب والرضا إلا الحق.

وكان أحب الطعام إليه ما كثرت عليه الأيدي ، ولا يأكل الحار ، ويأكل مما يليه ، ويأكل بأصابعه الثلاث وربما استعان بالرابعة ، ويأكل خبز الشعير غير منخول ، وكان لا يأكل الثوم ولا البصل ولا الكراث ، وما ذم طعاماً قط ولكن إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه ، وكان يلعق الصحفة فيقول : آخر الطعام أكثر بركة . ويلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر ، وكانت ثيابه كلها مشمراً فوق الكعبين.

وكان ﷺ أحلم الناس وأرغبهم في العفو مع القدرة ، وكان رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن ، يعرف في وجهه غضبه ورضاه.

وكان ﷺ أجود الناس وأسخاهم كفاً ، وأوسع الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفاهم ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشيرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه وما سئل عن شيء على الإسلام قط إلا أعطاه.

وقال علي ﷺ: لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذٍ بأساً.

وقال أيضاً : كنا إذا حمي البأس ولقي العدو القوم اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه.

وكان ﷺ أشد الناس تواضعاً في علو منصبه ، يستردف ، ويعود المريض ، ويتبع الجنازة ، ويجيب دعوة المملوك ، ويخصف النعل ويرقع الثوب ، وكان أصحابه لا يقومون له لما عرفوا من كراهته لذلك ، وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم.

وأتي ﷺ برجل فارعد من هيبته ، فقال : هوّن عليك فلست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد.

وكان يجلس بين أصحابه مختلطاً بهم كأنه أحدهم ، فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل عنه ، حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلساً ، فبنوا له دكاناً من طين ، فكان يجلس عليه.

وكان لا يدعوه أحد إلا قال : لبيك . وكان إذا جلس مع الناس إن تحدثوا في معنى الآخرة أخذ معهم ، وإن تحدثوا في طعام أو شراب تحدث معهم ، وإن تكلموا في الدنيا تحدث معهم رفقاً بهم وتواضعاً لهم . صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين.

الفصل الثاني : في معنى الخلق وكيفية تهذيبه :

الخُلق - بالضم - عبارة عن الصورة الباطنة ، كما أن الخَلق - بالفتح - عبارة عن الصورة الظاهرة . يقال : «فلان حسن الخلق والخلق» أي الظاهر والباطن ، ولكل منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة :

فالخُلق عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كان الصادر عن تلك الهيئة أفعالاً جميلة محمودة عقلاً وممدوحة شرعاً سميت تلك الهيئة «خلقاً حسناً» ، وإن كان الصادر منها أفعالاً قبيحة سميت «خلقاً سيئاً».

وإنما اشترط فيها الرسوخ لأن من يصدر عنه بذل المال مثلاً على الندرة لحاجة عارضة لا يقال «خلقه السخاء» ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ.

وإنما شرطنا السهولة لأن من يكلف بذل المال لا يقال «خلقه السخاء» .

وليس الخلق عبارة عن الفعل ، فرب شخص خلقه السخاء ، ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع آخر ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل

لباعث أو رياء ، ولا عبارة عن القدرة لأن نسبة القدرة إلى الضدين واحدة ، ولا عن المعرفة فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد ، بل هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة.

وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ، فكذلك لا بد في الباطن من أربعة لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق ، فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق ، وهي : قوة العلم ، وقوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث :

أما قوة العلم : فحسنها وصلاحها من أن تصير بحيث يسهل لها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال ، وبين الحق والباطل في الاعتقادات وبين الجميل والقبيح في الأفعال فإذا تحصلت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة التي هي رأس الأخلاق الحسنة «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً».

وأما قوة الغضب والشهوة : فحسنهما في أن يقتصر انقباضهما وانبساطهما على حد ما تقتضيه الحكمة والدين.

وأما قوة العدل : فهي ضبط قوة الغضب والشهوة تحت إشارة العقل والشرع ، فالعقل منزلته منزلة الناصح المشير، وقوته القدرة ومنزلتها منزلة المنفذ الممضي لإشارته ، والغضب والشهوة تنفذ فيهما الإشارة.

ومثال الغضب مثال كلب الصيد ، فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لا بحسب هيجان النفس ، والشهوة مثالها مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد ، فإنها تارة تكون مروضاً مؤدباً وتارة تكون جموحاً ، فمن استوت فيه هذه الصفات واعتدلت فهو حسن الخلق مطلقاً ، ومن اعتدل فيه بعضها دون بعض فهو حسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة ، كالذي يحسن بعض أجزاء وجهه دون البعض.

وحسن القوة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة ، وحسن قوة الشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة ، فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة سمي ذلك تهوراً ، وإن مالت إلى الضعف والنقصان سمي ذلك جبناً وخوراً، وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة سمي شرهاً ، وإن مالت الى النقصان سمي خموداً.

والمحمود هو الوسط ، وهو العدل والفضيلة، والطرفان رذيلتان مذمومتان ، والعدل إذا فات فليس له طرفان بزيادة ونقصان ، بل له ضد واحد وهو الجور.

وأما الحكمة فيسمى إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خَبّاً وجربزة ، ويسمى تفريطها بلهاً، والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة .

فإذاً أمهات الأخلاق الحسنة والجميلة وأصولها أربعة : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة والعدل.

ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربعة إلا رسول الله ﷺ ، ولهذا أثنى الله عليه قائلاً : ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

والناس بعده يتفاوتون في القرب والبعد ، فينبغي أن يقتدى به ، فإنه ﷺ قال : بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

وقد أشار الله تعالى إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى : **﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾** .

فالإيمان بالله ورسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين ، وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة ، والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة ، والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال ، وقد وصف الله تعالى به قوماً فقال : **﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾** ، إشارة إلى أن للشدة موضعاً وللرحمة موضعاً ، وليس الكمال بالشدة في كل حال ولا في الرحمة بكل حال.

الفصل الثالث :

قد زعم قوم من القاصرين البطالين أنه لا يمكن تغيير الأخلاق وتهذيبها لأمرين :

أحدهما : إن الخُلق صورة الباطن كما ان الخَلق صورة الظاهر ، وكما لا يمكن تغيير صورة الظاهر فكذا لا يمكن تغيير صورة الباطن.

وثانيهما : إن حسن الخلق إنما يحصل بقمع الغضب والشهوة وحب الدنيا وغيرها ، وهذا أمر ممتنع والاشتغال به تضييع عمر بلا فائدة ، فإن المطلوب هو قطع التفات القلب إلى الحظوظ العاجلة ، وهو محال.

ويقال لهؤلاء القوم الذين لا يكادون يفقهون حديثاً : لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات الشرعية ، ولما حث الشارع على تحسين الأخلاق وإنكار حصول هذا المعنى في حق الإنسان مع الاعتراف بوقوعه في البهائم ومشاهدة ذلك بالوجدان أمر غريب ، فإنا نجد انتقال الصيد من التوحش إلى الأنس ، والكلب من شره الأكل من الصيد إلى التأدب ، والفرس من الجماح إلى السلامة والانقياد. وكل ذلك تغيير للأخلاق.

وتحقيق الجواب : إن الموجودات منها ما لا مدخل للإنسان في تغييره وتبديله كما لا مدخل له في أصله ، كالسماء والكواكب وأعضاء البدن ونحوهما مما وقع الفراغ من وجوده وكماله ، ومنها ما وجد وجوداً ناقصاً ونيط به قوة قبول الكمال باختيار الإنسان وسعيه ، كالنواة تكون نخلاً وتفاحاً ، والأخلاق من قبيل القسم الثاني.

والجواب عن الثاني أن الإنسان غير مكلف بقلع قوة الغضب والشهوة بالكلية ، كيف ولو قمعت شهوة الأكل والوقاع لهلك الإنسان وانقطع النسل ولو قمع الغضب لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ويهلك ، بل المطلوب ردهما إلى الاعتدال والانقياد إلى العقل والشرع ، كما تقدمت الإشارة إليه ويأتي تفصيله.

والأنبياء الذين هم سادات المجاهدين لم يخلوا من الغضب والشهوة ، وقد مدح الله قوماً بقوله : «والكاظمين الغيظ» ولم يقل والفاقدين الغيظ ، وذلك أمر ممكن ، وكفى بالوجدان غنىً عن البيان .

والطريق إلى تحصيل الأخلاق الحسنة حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب ، كأن يتعاطى البخيل البذل والمتكبر التواضع حتى يصير ذلك خلقاً وطبعاً ، حتى ينتهي إلى التلذذ بذلك الفعل ، كما قال ﷺ : «جعلت قرة عيني في الصلاة».

وكلما طال العمر وكثرت تلك الأعمال والعبادات حصل الرسوخ والكمال في النفس ، وهذا هو السر في طلب الأنبياء طول العمر.

وربما كان حسن الخلق بجود إلهي وكمال فطري ، بأن يولد كامل العقل حسن الخلق ، قد كفي سلطان الشهوة والغضب . قال الصادق عليه السلام: إن الخلق منحة يمنحها الله خلقه ، فمنه سجية ومنه نية . فقلت : فأيهما أفضل ؟ فقال : إن صاحب السجية هو مجبول لا يستطيع غيره وصاحب النية يصبر على الطاعة تصبراً ، فهو أفضلهما .

الركن الأول

في أسرار العبادات وفيه أبواب :

الباب الأول
في الطهارة
وفيه فصول

الفصل الأول : في النية :

قال رسول الله ﷺ : إنما الأعمال بالنيات . وقال الصادق عليه السلام : نية المؤمن خير من عمله .

إعلم أن النية أصل العبادة ، وبها تمتاز عن العادة ، وتطلق النية على معان أربعة :

الأول : ما عليه أكثر العامة العمياء من أنها اللفظ الذي يتلفظ به حين الشروع في الفعل ، كأن يقول من أراد الوضوء : «أتوضأ لرفع الحدث قربة إلى الله تعالى» ونحوه وإن لم يكن في قلبه معنى هذه الألفاظ ، وهذا لغو باطل بإجماع العلماء .

الثاني : إنها الإخطار بالبال ، بأن تخطر هذه المعاني بباله ويتعقل معانيها ، وهذا قريب من سابقه أيضاً ، لأن ثمرة النية هي الإخلاص والخلاص من الرياء ، ولعل الداعي للإنسان على العمل هو الرياء ونحوه ولا ينفعه تصور هذه المعاني وإخطارها بباله وإجراؤها على قلبه .

الثالث : القصد المقارن للفعل ، بأن يكون قاصداً لإيقاع الفعل حين الشروع فيه ولا يقع عن سهو وغفلة ، وهذا المعنى لا يتصور خلو الفاعل العاقل غير الذاهل عنه ، ولهذا قال بعض المحققين : لو كلفنا الله بإيقاع الأفعال بلا نية لكان تكليفاً بما لا يطاق .

والرابع : الداعي والباعث على الفعل ، وهذا هـو الحق والمأمـور به ، فإن كان الداعي للإنسـان على عبادتـه وأفعالـه صحيحاً مـأموراً بـه كانت نيتـه صحيحة وعمله مقبولاً وإن لم يخطر تلك الألفاظ والمعاني بخاطـره، وإن كان الداعي والباعث له أمراً فاسداً ـ من ريـاء ونحوه ـ كـان عمله باطـلاً وإن أخطر القربة بخاطره وتصور معاني تلك الألفاظ بقلبه.

وهـذه النيـة غيـر داخلة تحت الاختيـار، لمـا عـرفت من أنهـا انبعـاث النفس وتوجهها إلى ملائم ظهر لهـا أن فيه غـرضها إمـا عاجـلاً أو آجلاً ، ومـا لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعـال فلا يتـوجه نحـوه قصده ، وذلـك ممـا لا يتمكن من اعتقـاده في كـل حين بـل لا بـد لـه من ريـاضـة واجتهـاد ، وإذا اعتقد فـإنما يتـوجه القلب إذا كـان فارغـاً غيـر مصـروف عنه بغرض شاغل أقوى منه ، وذلك لا يمكن في كل وقت.

والـدواعي والصوارف لهـا أسبـاب كثيـرة بهـا تجتمـع ، ويختلف ذلـك بـالأشخاص والأحـوال والأعمال ، فـإذا غلبت شهوة النكـاح ولم يعتقد غـرضاً صحيحاً في الولد لم يمكنه أن يتـزوج على نية الـولد ، بـل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة إذ النية هي إجابة الباعث ولا بـاعث إلا الشهوة فكيف ينـوي الولد.

نعم طـريق اكتساب هـذه النيـة مثـلاً أن يقـوى أولاً إيمـانـه بـالشـرع ، ويقـوى إيمانـه بعظم ثـواب من سعى في تكثير أمـة محمد ﷺ ويـدفـع عن نفسـه جميع المنفـرات عن الولـد من ثقل المؤونة وطـول التعب وغيـره ، وإذا فعـل ذلك فـربما انبعث من قلبـه رغبة الى تحصيـل الولـد للثواب ، فتحـركه تلك الرغبة وتحـرك أعضاءه لمبـاشرة العقـد ، وإذا انتهضت القدرة المحـركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كـان ناويـاً، وإذا لم يكن كـذلك فمـا يقدره في نفسـه ويـردده في قلبـه من قصـد الـولـد وسـواس وهذيان.

ولهـذا امتنـع جمـع من العـارفين من الـطاعـات ، حيث لم تحضـرهم النية ، وكانوا يعتذرون بعدم حضور النيـة ، فإن النيـة روح الأعمال ، والعمل

بغير نية صادقة رياء أو تكلف ، وهو سبب المقت لا القرب.

وعن الصادق عليه السلام أنه أتاه مولىً له فسلم عليه وجلس ، فلما انصرف انصرف معه الرجل ، فلما انتهى إلى باب داره دخل وترك الرجل فقال له ابنه إسماعيل : يا أبه ألا كنت قد عرضت عليه الدخول ؟ فقال : لم يكن من شأني إدخاله . قال : فهو لم يكن يدخل ؟ قال : يا بني إني أكره أن يكتبني الله عراضاً.

الفصل الثاني : في الإخلاص:

وهو تجريد النية من الشوائب والمفاسد . قال الله تعالى : ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ وقال تعالى : ﴿ألا لله الدين الخالص﴾ وقال : ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله﴾ .

وفي الكافي عن الرضا عليه السلام: إن أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول : طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء ، ولم يشغل قلبه بما ترى عيناه ، ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه ، ولم يحرك صدره بما أعطي غيره.

وعن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ قال: ليس يعني أكثرهم عملاً وإنما الإصابة خشية الله والنية الصادقة والخشية . ثم قال : الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل ، والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله عز وجل ، والنية أفضل من العمل ، ألا وإن النية هي العمل ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ يعني على نيته.

وعن المهدي عن الباقر عليه السلام قال : ما أخلص عبد الإيمان بالله أربعين يوماً ـ أو قال: ما أجمل عبد ذكر الله أربعين يوماً ـ إلا زهده الله في الدنيا، وبصره داءها ودواءها ، وأثبت الحكمة في قلبه ، وأنطق بها لسانه .

واعلم أن الإخلاص له مراتب متفاوتة :

أولها : مرتبة الشاكرين ، وهم الذين يعبدون الله تعالى شكراً على

نعمائه غير المتناهية، كما قال تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ . وقال أمير المؤمنين عليه السلام في النهج : إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار ، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد ، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار.

ثانيها : عبادة المقربين ، وهم الذين يعبدون الله تقرباً إليه ، والمراد بالقرب إما بحسب المنزلة والرتبة والكمال ، حيث إن واجب الوجود كامل من جميع الجهات والممكن ناقص من جميع الجهات ، فإذا سعى العبد في إزالة النقائص والرذائل عنه قرب قرباً معنوياً ، كما ورد في الحديث «تخلقوا بأخلاق الله». وأما القرب من حيث المحبة والمصاحبة كما إذا كان شخص بالمشرق وآخر بالمغرب وبينهما كمال المحبة والارتباط ولا يغفل أحدهما عن ذكر صاحبه ونشر مدائحه وكمالاته يقال: بينهما كمال القرب . وإذا كانا متقاربين في المكان وبينهما ضد ذلك يقال : بينهما كمال البعد . ويراد بالقرب والبعد المعنويان.

ثالثها : عبادة المستحين ، وهم قوم يبعثهم على الأعمال والطاعات الحياء من الله تعالى ، حيث علموا بأنه مطلع على ضمائرهم وعالم بما في خواطرهم ومحيط بدقائق أمورهم ، فاستحوا من أن يبارزوه بالمعاصي وبادروا إلى الطاعات والعبادات ، كما ورد «أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» . وفي وصية لقمان لولده : يا بني إذا أردت أن تعصي ربك فاعمد إلى مكان لا يراك الله فيه .

رابعها : عبادة المتلذذين ، وهم الذين يلتذون بعبادة ربهم بأعظم مما يلتذ به أهل الدنيا من نعيم الدنيا . ففي الكافي عن الصادق عليه السلام قال : قال الله تبارك وتعالى : يا عبادي الصديقين تنعموا بعبادتي في الدنيا فإنكم تتنعمون بها في الآخرة . وعنه عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أفضل الناس من عشق العبادة فعانقها وأحبها بقلبه وباشرها بجسده وتفرغ لها ، فهو لا يبالي على ما أصبح من الدنيا على عسر أم على يسر . وقال صلى الله عليه وآله وسلم : جعلت قرة عيني في الصلاة.

وخامسها : عبادة المحبين ، وهم الذين وصلوا بطاعتهم وعبادتهم إلى أعلى درجات الكمال من حب الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿يحبهم ويحبونه﴾ . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : فهبني يا إلهي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك . وقال سيد الشهداء في دعاء عرفة : أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا إلى غيرك . وقال عليه السلام : يا من أذاق أحباءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين . وقال ولده السجاد عليه السلام في المناجاة الإنجيلية : وعزتك لقد أحببتك محبة استقرت في قلبي حلاوتها وأنست نفسي ببشارتها . وقال في المناجاة الأخرى : إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم ، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم . وفي الحديث القدسي : يا بن عمران كذب من زعم أنه يحبني فإذا جنه الليل نام عني ، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه .

وسادسها : عبادة العارفين ، وهم الذين بعثهم على العبادة كمال معبودهم وأنه أهل للعبادة فعبدوه ، كما قال سيد العارفين وأمير المؤمنين عليه السلام : إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك .

وسابعها : عبادة الله لنيل ثوابه أو الخلاص من عقابه ، وهذه العبادة قد اختلف فيها : فذهب جماعة من أصحابنا إلى بطلانها ، وهو المحكي عن السيد ابن طاووس والفاضل المقداد وابن جمهور الإحسائي والشهيد الأول في ظاهر الدروس والقواعد ، لأن هذا القصد منافٍ للإخلاص الذي هو إرادة وجه الله سبحانه وحده ، وأن من قصد ذلك فإنما قصد جلب النفع الى نفسه ودفع الضرر عنها لا وجه الله سبحانه ، والأصلح الصحة للآيات القرآنية والأحاديث المعصومية كقوله تعالى : ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ وقوله تعالى : ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ وقوله : ﴿ويدعوننا رغباً ورهباً﴾ وقوله : ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾ أي راجين الفلاح وهو الفوز بالثواب ، وقوله تعالى : ﴿رجال لا

تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا﴾ .

وما ورد في الأخبار المتظافرة بطرق عديدة من أن من بلغه ثواب على عمل فعمله ابتغاء ذلك الثواب أوتيه وإن لم يكن الأمر كما بلغه . وقال الصادق عليه السلام: العباد ثلاثة : قوم عبدوا الله عز وجل خوفاً فتلك عبادة العبيد ، وقوم عبدوا الله طلباً للثواب فتلك عبادة الأجراء وقوم عبدوا الله عز وجل حباً له فتلك عبادة الأحرار ، وهي أفضل العبادة . والأفضلية تستلزم وجود الفضيلة . ونحو ذلك الأخبار الواردة في الأعمال المأمور بها لقضاء الحوائج وتحصيل الولد أو المال والتزويج أو الشفاء أو طلب الخيرة أو نحو ذلك ، ولو كان مثل هذه النيات مفسداً للعبادات لكان الترغيب والترهيب والوعد عبثاً بل مخلاً بالمقصود.

وكيف يمكن للعبد الضعيف الذليل الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً أن يستغني عن جلب النفع من مولاه لنفسه أو دفع الضرر عنها ، والعبادة المقصود بها الثواب أو الخلاص من العقاب إنما وقعت بأمره تعالى ، فطالبها طالب لرضاه وأمره.

وتكليف سائر الناس بتلك المراتب العلية والدرجات السنية لعله تكليف بالمحال ، فإن أكثر الناس لا يسعهم تلك القصود ، وتلك المراتب مختصة بهم عليهم السلام ومن يقرب من مرتبتهم كسلمان وأبي ذر والمقداد ، ومن ادعى تلك المراتب فإنما يصدق في دعواه إذا علم من نفسه أنه لو أيقن أن الله تعالى يدخله بطاعته وعبادته النار وبمعصيته الجنة يختار الطاعة ويترك المعصية ، وأين عامة الخلق من هذه الدرجة ؟!.

نعم ربما يتجه ذلك بناءً على زعم من زعم أن النية هي الإخطار بالبال وإن لم يكن له داع وباعث على القرب ، وقد عرفت خلافه ، فإن الداعي والباعث على القرب إذا لم يكن حاصلاً قبل فلا يمكن الإتيان به بتصوير بالجنان أو نطق باللسان.

وإن كنت في ريب من ذلك فانظر الى نفسك حين يغلب عليها حب التدريس لإظهار الفضيلة والصيت وحب العبادة لاستمالة القلوب ومع ذلك أخطرت ببالك حين إيقاعهما أنك تدرس هذا الدرس وتعبد هذه العبادة قربة إلى الله تعالى كنت بمعزل عن الإخلاص ، وكان إخطارك ذلك من الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ، ولم ينفعك ذلك الإخطار، ولم يخلصك عن استحقاق النار ، وكان ذلك كإخطار الشبعان اشتهى هذا الطعام قاصداً حصول الاشتهاء .

واعلم أن الطريق الى الإخلاص كسر حظوظ النفس ، وقطع الطمع عن الدنيا ، والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب ، وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله تعالى ويكون فيها مغروراً لأنه لا يدري وجه الآفة فيها ، كما حكي عن بعضهم أنه قال : قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد جماعة في الصف الأول لأني تأخرت يوماً لعذر ، وصليت في الصف الثاني فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني ، فعرفت أن نظر الناس إلي في الصف الأول كان يسرني ، وكان سبب استراحة قلبي من ذلك من حيث لا أشعر.

وهذا باب دقيق غامض قلما تسلم الأعمال عن مثل ذلك ، وقل من يتنبه له .

والغافلون عنه يرون حسناتهم في الآخرة كلها سيئات ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، وبدا لهم سيئات ما عملوا ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً.

الفصل الثالث : في مجمل القول في الطهارة والنظافة :

قال الله سبحانه : ﴿رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين﴾ .

وقال النبي ﷺ : الطهور نصف الإيمان . وقال: مفتاح الصلاة

الطهور . وقال : بني الدين على النظافة . وقال : بئس العبد القاذورة .

قال بعض العارفين : ليتفطن ذوو البصائر بهذه الظواهر أن الإيمان إنما يتم بعمارة القلوب والسرائر ، وأن المراد بقوله ﷺ «الطهور نصف الإيمان» أن عمارة الظاهر بالتطهير والتنظيف بإفاضة الماء نصف الإيمان ، والنصف الآخر عمارة الباطن بالأعمال الصالحة والأخلاق الحميدة .

والطهارة لها أربع مراتب :

الأولى : تطهير الظاهر من الأحداث والأخباث والفضلات .

والثانية : تطهير الجوارح من الجرائم والآثام والتبعات .

والثالثة : تطهير القلب من مساوىء الأخلاق ورذائلها .

والرابعة : تطهير السر مما سوى الله جل وعلا ، وهي طهارة الأنبياء والصديقين . والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها .

وهذه مقامات الإيمان ، ولكل مقام طبقة ، ولن ينال العبد الطبقة العالية إلا أن يتجاوز الطبقة السافلة ، فلا يصل إلى طهارة السر مما سوى الله تعالى وعمارته بمعرفة الله وانكشاف جلاله وعظمته سبحانه ما لم يفرغ عن طهارة القلب من الخلق المذموم وعمارته بالمحمود، ولن يصل إلى ذلك من لم يفرغ عن طهارة الجوارح من المناهي وعمارتها بالطاعات والعبادات .

الفصل الرابع : في أسرار إزالة النجاسة والتخلي لقضاء الحاجة :

قال الشهيد الثاني : ليتذكر بذلك تطهير القلب من نجاسة الأخلاق ومساوئها ، فإنك إذا أمرت بتطهير ظاهر الجلد ـ وهو القشر ـ وتطهير الثياب وهي أبعد عن ذاتك فلا تغفل عن تطهير لبك الذي هو ذاتك وهو قلبك . فاجتهد في تطهيره بالتوبة والندم على ما فرط ، وتصميم العزم على ترك العود في المستقبل ، وطهر بها باطنك فإنه موقع نظر المعبود .

وتذكر لتخليك لقضاء الحاجة نقصك وحاجتك ، وما تشتمل عليه من

الأقذار وما في باطنك ، وأنت تزين ظاهرك للناس والله تعالى مطلع على خبث باطنك وخسة حالك ، فاشتغل بإخراج نجاسات الباطن والأخلاق الداخلة في الأعماق المفسدة ، لكن لا على الإطلاق لتستريح نفسك عند إخراجها ويسكن قلبك من دنسها ويخف لبك من ثقلها ، وتصلح للوقوف على بساط الخدمة والتأهل للمناجاة.

قال الصادق عليه السلام أي في مصباح الشريعة - : سمي المستراح مستراحاً لاستراحة النفوس من أثقال النجاسات واستفراغ الكثافات والقذر فيها.

والمؤمن يعتبر عندها أن الخالص من حطام الدنيا كذلك تصير عاقبته ، فيستريح بالعدول عنها ويتركها ويفرغ نفسه وقلبه عن شغلها ، ويستنكف عن أخذها وجمعها استنكافه عن النجاسة والغائط والقذر ، ويتفكر في نفسه المكرمة في حال كيف تصير ذليلة في حال.

ويعلم أن التمسك بالقناعة والتقوى يورث له راحة الدارين ، فإن الراحة في هوان الدنيا والفراغ من التمتع بها ، وفي إزالة النجاسة من الحرام والشبهة فيغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته إياها ، ويفر من الذنوب ، ويفتح باب التواضع والندم والحياء ، ويجتهد في أداء أوامره واجتناب نواهيه ، طلباً لحسن المآب وطيب الزلف ، ويسجن نفسه في سجن الخوف والصبر والكف عن الشهوات إلى أن يتصل بأمان الله في دار القرار ويذوق طعم رضاه ، فإن المعول ذلك وما عداه لا شيء.

الفصل الخامس : في السواك :

قال صلى الله عليه وآله وسلم : صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك.

وقال الصادق عليه السلام: إذا قمت بالليل فاستك ، فإن الملك يأتيك فيضع فاه على فيك وليس من حرف تتلوه إلا صعد به إلى السماء ، فليكن فوك طيب الريح.

وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب.

وجعلها من سننه المؤكدة، وفيها منافع للظاهر والباطن ما لا يحصى لمن عقل. وكما تزيل ما تلوث من أسنانك من مطعمك ومأكلك بالسواك كذلك فأزل نجاسة ذنوبك بالتضرع والخشوع والتهجد والاستغفار بالأسحار، وطهر باطنك وظاهرك من كدورات المخالفات وركوب المناهي كلها خالصاً لله تعالى، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أراد باستعماله مثلاً لأهل اليقظة، وهو أن المسواك نبات لطيف نظيف وغصن شجر عذب مبارك.

والأسنان خلق خلقه الله تعالى في الحلق آلة وأداة للمضغ وسبباً لاشتهاء الطعام وإصلاح المعدة، وهي جوهرة صافية تتلوث بما يمضغ من الطعام وتتغير بها رائحة الفم، ويتولد منها الفساد في الدماغ، فإذا استاك المؤمن الفطن بالنبات اللطيف ومسحه على الجوهرة الصافية أزال عنها الفساد والتغيير وعادت إلى أصلها، كذلك خلق الله القلب طاهراً صافياً، وجعل غذاءه الفكر والذكر والهيبة والتعظيم، وإذا شيب القلب الصافي فعدلته بالغفلة والكدر صقل بمصقلة التوبة ونظف بماء الإنابة، ليعود الى حالته الأولى، وجوهرته الأصلية الصافية. قال الله عز وجل: ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾.

وإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمرنا باستواك ظاهر الأسنان وأراد بهذا المعنى المثل، ومن أناخ تفكره على باب العبرة في استخراج مثل هذه الأمثال في الأصل والفرع فتح الله له عيون الحكمة، والمزيد من فضل الله والله لا يضيع أجر المحسنين.

الفصل السادس: في الوضوء:

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: من توضأ فذكر اسم الله طهر جميع جسده، وكان الوضوء إلى الوضوء كفارة لما بينهما من الذنوب، ومن لم يسم لم يطهر جسده إلا ما أصابه الماء.

وكأن السر في ذلك أن التسمية تنبه القلب وتطهره عن الغفلة عن ذكر الله ، وإذا طهر القلب الذي هو الرئيس طهرت جميع الأعضاء.

قال الشهيد الثاني (ره) : أما الطهارة فليستحضر في قلبه أن تكليفه فيها بغسل الأطراف الظاهرة وتنظيفها لاطلاع الناس عليها ، ولكون تلك الأعضاء مباشرة للأمور الدنيوية المنهمكة في الكدورات الدنية، فلأن يطهر مع ذلك قلبه الذي هو موضع نظر الحق تعالى ، فإنه لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر الى قلوبكم ، ولأنه الرئيس الأعظم لهذه الجوارح والمستخدم لها في الأمور للبعدة عن جنابه تعالى وتقدس أولى وأحرى ، بل هذا تنبيه واضح على ذلك وبيان شاف لما هنالك.

وليعلم من يطهر تلك الأعضاء عند الاشتغال بعبادة الله تعالى والإقبال عليه والالتفات عن الدنيا ، فلذلك أمر بالتطهير من الدنيا عند الاشتغال والإقبال على الأخرى ، فأمر في الوضوء بغسل الوجه لأن التوجه والإقبال بوجه القلب على الله به ، وفيه أكثر الحواس الظاهرة التي هي أعظم الأسباب الباعثة على مطالب الدنيا ، فأمر بغسله ليتوجه به وهو خال من تلك الأدناس ، ويترقى بذلك الى تطهير ما هو الركن الأعظم في القياس.

ثم أمر بغسل اليدين لمباشرتهما أكثر أحوال الدنيا الدنية والمشتهيات الطبيعية.

ثم أمر بمسح الرأس لأن فيه القوة المفكرة التي يحصل بواسطتها القصد إلى تناول المرادات الطبيعية ، وتنبعث الحواس حينئذ إلى الإقبال على الأمور الدنيوية المانع من الإقبال على الآخرة السنية.

ثم بمسح الرجلين لأن بهما يتوصل إلى مطالبه ، ويتوصل إلى تحصيل مآربه على نحو ما ذكر في باقي الأعضاء ، وحينئذ فيسوغ له الدخول في العبادة والإقبال عليها فائزاً بالسعادة ـ انتهى .

وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام: إذا أردت الطهارة والوضوء فتقدم إلى الماء تقدمك الى رحمة الله ، فإن الله قد جعل الماء مفتاح قربته

ومناجاته ، ودليلاً إلى بساط خدمته ، وكما أن رحمته تطهر ذنوب العباد كذلك نجاسات الظاهر يطهرها الماء لا غيره ، قال الله تعالى : ﴿وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماءاً طهوراً﴾ وقال عز وجل : ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ ، فكما أحيا به كل شيء من نعيم الدنيا كذلك بفضله ورحمته حياة القلوب بالطاعات.

وتفكر في صفاء الماء ورقته وطهوره وبركته ولطيف امتزاجه بكل شيء وفي كل شيء ، واستعمله في تطهير الأعضاء التي أمرك الله بتطهيرها ، وآت بآدابها فرائضه وسننه ، فإن تحت كل واحدة منها فوائد كثيرة ، إذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عين فوائده عن قريب.

ثم عاشر خلق الله كامتزاج الماء بالأشياء ، يؤدي كل شيء حقه ولا يتغير عن معناه معتبراً لقول رسول الله ﷺ : مثل المؤمن الخاص كمثل الماء .

ولتكن صفوتك مع الله في جميع طاعاتك كصفوة الماء حين أنزله من السماء وسماه طهوراً ، وطهر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء.

وفي علل الفضل بن شاذان عن الرضا عليه السلام : إنما أمر بالوضوء ليكون العبد طاهراً إذا قام بين يدي الجبار عند مناجاته إياه ، مطيعاً له في ما أمره، نقياً من الأدناس والنجاسة ، مع ما فيه من ذهاب الكسل وطرد النعاس ، وتزكية الفؤاد للقيام بين يدي الجبار .

وإنما وجب على الوجه واليدين والرأس والرجلين ، لأن العبد إذا قام بين يدي الجبار فإنما ينكشف من جوارحه ويظهر ما وجب فيه الوضوء ، وذلك أنه بوجهه يسجد ويخضع وبيده يسأل ويرغب ويرهب ويتبتل وبرأسه يستقبله في ركوعه وسجوده وبرجليه يقوم ويقعد.

الفصل السابع : في أسرار الغسل والتيمم :

قال الشهيد الثاني : أمر في الغسل بغسل جميع البشرة ، لأن أدنى حالات الإنسان وأشدها تعلقاً وتملكاً بالملكات الشهوية حالة الجماع

وموجبات الغسل ، ولجميع بدنه مدخل في تلك الحالة ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن تحت كل شعر جنابة.

فحيث كان جميع بدنه بعيداً عن المرتبة العلية منغمساً في اللذات الدنية كان غسله أجمع من أهم المطالب الشرعية ، ليتأهل لمقابلة الجهة الشريفة والدخول في العبادة المنيفة ، ويبعد عن القوى الحيوانية واللذات الدنيوية .

ولما كان للقلب من ذلك الحظ الأوفر والنصيب الأكمل كان الاشتغال بتطهيره من الرذائل والتوجهات المانعة من درك الفضائل أولى من تطهير تلك الأعضاء الظاهرة عند اللبيب العاقل.

وأمر بالتيمم بمسح تاك الأعضاء بالتراب عند تعذر غسلها بالماء الطهور وضعاً لتلك الأعضاء الرئيسية وهضماً لها بتلقيها بأثر التربة الخسيسة.

وهكذا يخطر بباله أن القلب إذا لم يمكن تطهيره من الأخلاق الرذيلة وتحليته بالأوصاف الجميلة فليقمه في مقام الهضم والإزراء ويسقّه بسياط الذل والإغضاء، عسى أن يطلع عليه مولاه الرحيم وسيده الكريم ، وهو منكسر متواضع ، فيهبه نفحة من نفحاته نوره اللامع ، فإنه عند القلوب المنكسرة كما ورد في الأثر ، فترق من هذه الإشارات ونحوها إلى ما يوجب لك الإقبال وتلافي سالف الإهمال ـ انتهى .

وقال الرضا عليه السلام في تتمة الرواية السابقة : وأمر بالغسل من الجنابة دون الخلاء لأن الجنابة من نفس الإنسان ، وهو شيء يخرج من جميع جسده ، والخلاء ليس هو من نفس الإنسان ، إنما هو غذاء يدخل من باب ويخرج من باب .

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام : وعلة التخفيف في البول والغائط أنه أكثر وأدوم من الجنابة فرضي فيه بالوضوء لكثرته ومشقته ومجيئه بغير إرادة منه ولا شهوة ، والجنابة لا تكون إلا بالاستلذاذ منهم لأنفسهم.

الفصل الثامن : في الاستحمام :

قال أمير المؤمنين عليه السلام : نعم البيت الحمام ، يذكر فيه النار ويذهب بالدرن.

قيل : فيه إشارة إلى أنه ينبغي للعاقل أن لا يغفل عن ذكر الآخرة في لحظاته ، فإنها مصيره ومستقره ، فيكون له في كل ما يراه من ماء أو نار أو غيرهما عبرة وموعظة ، فإن نظر إلى ظلمة تذكر ظلمة اللحد ، وإن سمع صوتاً هائلاً تذكر نفخة الصور ، وإن رأى شيئاً حسناً تذكر نعيم الجنة ، وإن سمع كلمة رد أو قبول تذكر ما ينكشف له في آخر أمره بعد الحساب من الرد والقبول. . . إلى غير ذلك.

والحمام أشبه شيء بجهنم النار من تحت والظلام من فوق ، فينبغي أن يتذكر حر النار بحرارته ، ويقدر نفسه محبوساً في البيت الحار ساعة ويقيسه إلى جهنم ويستعيذ بالله منها.

قال الصادق عليه السلام : فإذا دخلت البيت الثالث فقل : «نعوذ بالله من النار ونسأله الجنة» ترددها إلى وقت خروجك من البيت الحار.

الفصل التاسع : في سماع الأذان:

قال أبو حامد : إذا سمعت نداء المؤذن فأحضِر في قلبك هول النداء يوم القيامة ، وتشمر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارعة ، فإن المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر ، فاعرُض قلبك على هذا النداء، فإن وجدته مملوءً بالفرح والاستبشار مشحوناً بالرغبة إلى الابتدار فاعلم أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم : «أرحنا يا بلال» أي أرحنا بها وبالنداء إليها إذ كانت قرة عينه فيها - انتهى.

وقال الشهيد الثاني (ره) : واعتبر بفصول الأذان وكلماته كيف افتتحت بالله واختتمت بالله ، واعتبر بذلك ، أن الله جل جلاله هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، ووطن قلبك بتعظيمه وتكبيره عند سماع التكبير ،

واستحقر الدنيا وما فيها لئلا تكون كاذباً في تكبيرك ، وانف عن خاطرك كل معبود سواء بسماع التهليل ، وأحضر النبي ﷺ وتأدب بين يديه ، واشهد له بالرسالة مخلصاً ، وصل عليه وآله ، وحرك نفسك واسع بقلبك وقالبك عند الدعاء إلى الصلاة ، وما يوجب الفلاح ، وما هو خير الأعمال وأفضلها ، وجدد عهدك بعد ذلك بتكبير الله وتعظيمه ، واختمه بذكره كما افتتحت به ، واجعل مبدأك منه وعودك إليه وقوامك به ، واعتمادك على حوله وقوته ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الفصل العاشر : في الوقت :

قال الشهيد الثاني : استحضر عند دخوله أنه ميقات جعله الله لك ، لتقوم فيه بخدمته ، وتتأهل للسؤال في حضرته والفوز بطاعته ، وليظهر على قلبك السرور وعلى وجهك البهجة عند دخوله ، لكونه سبباً لقربك ووسيلة الى فوزك ، واستعد له بالطهارة والنظافة ولبس الثياب الصالحة للمناجاة ، كما تتأهب عند القدوم على ملك من ملوك الدنيا ، وتلقاه بالوقار والسكينة والخوف والرجاء ، واستحضر عظمة الله وجلاله ، ونقصان قدرك وكماله .

وقد روي أن بعض أزواج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه شغلاً بالله عن كل شيء.

وكان علي عليه السلام إذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل، فيقال له : ما لك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول : جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها.

وكان علي بن الحسين عليه السلام إذا حضر الوضوء اصفر لونه.

الفصل الحادي عشر : في لباس المصلي :

قال أبو حامد : وأما ستر العورة فاعلم أن معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق ، فإن ظاهر بدنك موقع نظر الخلق ، فما رأيك في عورات باطنك وفضائح سرك التي لا يطلع عليها إلا ربك ، فأحضر تلك

الفضائح ببالك وطالب نفسك بسترها ، وتحقق أنه لا يسترها عن عين الله ساتر وإنما يكفرها الندم والحياء والخوف ، فتستفيد بإحضارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والحياء من مكامنها ، فتذل به نفسك وتسكن تحت الخجلة قلبك.

وتقوم بين يدي الله قيام العبد المجرم المسيء الآبق الذي ندم فرجع إلى مولاه ناكساً رأسه من الحياء والخوف.

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام: أزين اللباس للمؤمنين لباس التقوى ، وأنعمه الإيمان ، قال الله عز وجل : ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ ، وأما اللباس الظاهر فنعمة من الله يستر بها عورات بني آدم ، وهي كرامة أكرم الله بها عبادة ذرية آدم عليه السلام ما لم يكرم بها غيرهم ، وهي للمؤمنين آلة لأداء ما افترض الله عليهم.

وخير لباسك ما لا يشغلك عن الله تعالى بل يقربك من شكره وذكره وطاعته ، ولا يحملك على العجب والرياء والتزين والمفاخرة والخيلاء ، فإنها من آفات الدين ومورثة القسوة في القلب ، وإذا لبست ثوبك فاذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته.

وألبس باطنك بالصدق كما ألبست ظاهرك بثوبك ، وليكن باطنك في ستر الرهبة وظاهرك في ستر الطاعة ، واعتبر بفضل الله عز وجل ، حيث خلق أسباب اللباس لتستر العورات الظاهرة ، وفتح أبواب التوبة والإنابة لتستر بها عورات الباطن من الذنوب وأخلاق السوء.

ولا تفضح أحداً حيث ستر الله عليك أعظم منه ، واشتغل بعيب نفسك ، واصفح عما لا يعنيك حاله وأمره.

واحذر أن تفني عمرك بعمل غيرك ، ويتجر برأس مالك غيرك وتهلك نفسك ، فإن نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله تعالى في العاجل وأوفر أسباب العقوبة في الآجل ، وما دام العبد مشتغلاً بطاعة الله ومعرفة عيوب نفسه وترك ما يشين في دين الله فهو بمعزل من الآفات ، خائض في بحر

رحمة الله ، يفوز بجواهر الفوائد من الحكمة والبيان ، وما دام ناسياً لذنوبه جاهلاً بعيوبه راجعاً إلى حوله وقوته لا يفلح أبداً.

الفصل الثاني عشر : في مكان المصلي :

قال الشهيد الثاني (ره) : استحضر فيه أنك كائن بين يدي ملك الملوك ، تريد مناجاته والتضرع إليه والتماس رضاه ونظره إليك بعين الرحمة ، فانظر مكاناً يصلح لذلك كالمساجد الشريفة والمشاهد المطهرة مع الإمكان ، فإنه تعالى جعل تلك المواضع محلاً لإجابته ومظنة لقبوله ورحمته ، ومعدناً لمرضاته ومغفرته ، على مثال حضرة الملوك الذين يجعلونها وسيلة لذلك ، فادخلها ملازماً للسكينة والوقار ، ومراقباً للخشوع والانكسار ، سائلاً أن يجعلك من خلص عباده ، وأن يلحقك بالماضين منهم.

وراقب الله كأنك على الصراط جائز ، وكن متردداً بين الخوف والرجاء وبين القبول والطرد ، فيخشع حينئذ قلبك ويخضع لبك ، وتتأهل لأن يفيض عليك الرحمة وتنالك يد العاطفة ، وترعاك عين العناية.

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام: إذا بلغت باب المسجد فاعلم أنك قصدت ملكاً عظيماً لا يطأ بساطه إلا المطهرون ، ولا يؤذن بمجالسته إلا الصديقون ، وهب القدوم إلى بساط خدمته هيبة الملك ، فإنك على خطر عظيم إن غفلت.

واعلم أنه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك ، لأن عطف عليك بفضله ورحمته قبل منك يسير الطاعة وأجزل لك عليها ثواباً كثيراً جزيلاً وإن طالبك باستحقاقه الصدق والإخلاص عدلاً بك حجبك ورد طاعتك وإن كثرت ، وهو فعال لما يريد.

واعترف بعجزك وتقصيرك وفقرك بين يديه ، فإنك قد توجهت للعبادة له والمؤانسة به ، واعرض أسرارك عليه ، ولتعلم أنه لا يخفى عليه أسرار الخلائق أجمعين وعلانيتهم ، وكن كأفقر عباده بين يديه.

وأخل قلبك عن كل شاغل يحجبك عن ربك ، فإنه لا يقبل إلا الأطهر والأخلص ، فانظر من أي ديوان يخرج اسمك ، فإن ذقت من حلاوة مناجاته ولذيذ مخاطباته ، وشربت بكأس رحمته وكراماته من حسن إقباله عليك وإجاباته وقد صلحت لخدمته ، فادخل فلك الإذن والأمان ، وإلا فقف وقوف مضطر قد انقطع عنه الحيل وقصر عنه الأمل وقضى الأجل ، فإذا علم الله من قلبك صدق الالتجاء إليه نظر إليك بعين الرأفة والرحمة والعطف ، ووفقك لما يحب ويرضى ، فإنه كريم يحب الكرامة لعباده المضطرين إليه المحترقين على بابه لطلب مرضاته . قال الله تعالى : ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه﴾ .

الفصل الثالث عشر : في الاستقبال :

قال أبو حامد : وأما الاستقبال فهو صرف لظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله ، أفترى أن صرف القلب من سائر الأمور إلى أمر الله ليس مطلوباً منك ؟ ! هيهات فلا مطلوب سواه.

وإنما هذه الظواهر تحريكات للبواطن وضبط للجوارح وتسكين لها بالإثبات في جهة واحدة حتى لا تبغى على القلب، فإنها إذا بغت وظلمت في حركاتها إلى جهاتها استبغت القلب وانقلبت به عن وجه الله ، فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك.

واعلم أنه كما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالصرف عن غيرها فلا ينصرف القلب إلى الله تعالى إلا بالتفرغ عما سوى الله ، وقد قال النبي ﷺ : إذا قام العبد إلى صلاته وكان هواه وقلبه إلى الله انصرف كيوم ولدته أمه ـ انتهى .

وروي عنه ﷺ أنه قال: أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار.

قيل : هذا نهي عن الالتفات عن الله وملاحظة عظمته في حال الصلاة ، فإن الملتفت يميناً وشمالاً ملتفت عن الله تعالى وغافل عن مطالعة

أنوار كبريائه ومن كان كذلك فيوشك أن تدوم تلك الغفلة عليه فيتحول وجه قلبه كوجه قلب الحمار في قلة عقله للأمور العلوية وعدم فهمه للعلوم.

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام: إذا استقبلت القبلة فأيئس من الدنيا وما فيها والخلق وما هم فيه ، واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله تعالى ، وعاين بسرك عظمة الله ، واذكر وقوفك بين يديه ﴿يوم تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ ، وقف على قدم الخوف والرجاء.

الفصل الرابع عشر : في القيام :

قال أبو حامد : وأما الاعتدال قائماً فهو مثول بالقلب والشخص بين يدي الله تعالى ، فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطرقاً متطأطئاً منكساً ، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيهاً على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبري عن الترؤس والتكبر ، وليكن على ذكرك هنا خطر المقام بين يدي الله في هول المطلع عند التعرض للسؤال.

واعلم في الحال أنك قائم بين يدي الله تعالى وهو مطلع عليك ، فقم بين يديه قيامك بين بعض ملوك الزمان إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله ، بل قدر في دوام قيامك في صلواتك أنك ملحوظ ومرقوب بعين كالئة من رجل صالح من أهلك أو ممن ترغب في أن يعرفك بالصلاح ، فإنه تهدأ عند ذلك أطرافك وتخشع جوارحك ويسكن جميع أجزائك ، خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع.

وإذا أحسست من نفسك التماسك عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها : إنك تدعين معرفة الله وحبه أفلا تستحين من اجترائك عليه مع توقيرك عبداً من عباده أو تخشين الناس ولا تخشينه ، وهو أحق أن يخشى ؟!.

ولذلك لما قيل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : كيف الحياء من الله ؟ فقال : تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح من أهلك.

الفصل الخامس عشر : في التوجه :

قال الشهيد الثاني (ره) : إذا توجهت بالتكبيرات فاستحضر عظمة الله سبحانه ، وصغر نفسك وخسة عبادتك في جنب عظمته ، وانحطاط همتك عن القيام بوظائف خدمته واستتمام حقائق عبادته.

وتفكر عند قولك : ﴿اللّهمّ أنت الملك الحق المبين﴾ في عظيم ملكه وعموم قدرته واستيلائه على جميع العوالم ، ثم ارجع على نفسك بالذل والإنكسار والاعتراف بالذنوب والاستغفار عند قولك : «عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

وأحضر دعوته لك بالقيام بهذه الخدمة ، ومثل نفسك بين يديه ، وأنه قريب منك مجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، ويسمع نداءه ، وأن بيده خير الدنيا والآخرة لا بيد غيره عند قولك : «لبيك وسعديك والخير في يديك» ، ونزهه من الأعمال السيئة وأفعال الشر.

وأبدله بها محض الإرشاد والهداية عند قولك : «والشر ليس إليك والمهدي من هديت» ، واعترف له بالعبودية وأن قوام وجودك وبدأه ومعاده منه بقولك : «عبدك وابن عبديك منك وبك ولك وإليك» ، أي منك وجوده وبك قوامه ولك ملكه وإليك معاده ، وهو الذي يبدىء الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى.

فأحضر في ذهنك هذه الحقائق ، وترق منها إلى ما يفتح عليك من الأسرار والدقائق ، وتلق الفيض من العالم الأعلى.

الفصل السادس عشر : في النية :

قال أبو حامد : وأما النية فاعزم على إجابة الله في امتثال أمره بالصلاة وإتمامها ، والكف عن نواقضها ومفسداتها ، وإخلاص جميع ذلك لوجه الله رجاءً لثوابه وخوفاً من عقابه وطلباً للقربة منه ، متقلداً للمنة بإذنه إياك في المناجاة ، مع سوء أدبك وكثرة عصيانك.

وعظم في نفسك قدر مناجاته ، وانظر إلى من تناجي وكيف تناجي وبماذا تناجي ، وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجل وترتعد فرائصك من الهيبة ويصفر وجهك من الخوف.

الفصل السابع عشر : في التكبير :

ومعناه الله أكبر من كل شيء ، أو من أن يوصف ، أو أن يدرك بالحواس ، أو أن يقاس بالناس.

قال أبو حامد : فإذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذبه قلبك ، وإن كان في قلبك شيء هو أكبر من الله تعالى فالله يشهد أنك كاذب وإن كان الكلام صدقاً ، كما شهد على المنافقين في قولهم : «إنك رسول الله».

فإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله وأنت أطوع له منك لله فقد اتخذته إلهك وكبرته ، فيوشك أن يكون قولك : «الله أكبر» كلاماً باللسان المجرد وقد تخلف القلب عن مساعدته ، وما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار ، وحسن الظن بكرم الله وعفوه.

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : إذا كبرت فاستصغر ما بين السموات العلى والثرى دون كبريائه ، فإن الله تعالى إذا اطلع على قلب العبد وهو يكبر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره قال : يا كاذب أتخدعني ! وعزتي وجلالي لأحرمنك حلاوة ذكري ، ولأحجبنك عن قربي والمسارة بمناجاتي.

فاعتبر أنت قلبك حين صلاتك فإن كنت تجد حلاوتها وفي نفسك سرورها وبهجتها ، وقلبك مسروراً بمناجاته ملتذاً بمخاطباته فاعلم انه قد صدقك في تكبيرك ، وإلا فقد عرفت من سلب لذة المناجاة وحرمان حلاوة العبادة أنه دليل على تكذيب الله لك وطردك عن بابه.

الفصل الثامن عشر : في دعاء التوجه :

قال أبو حامد : وأما دعاء الاستفتاح فأول كلماته قولك : «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً» وليس المراد بالوجه

الوجه الظاهري ، فإنك إنما وجهته إلى جهة القبلة ، والله سبحانه يتقدس عن أن تحده الجهات حتى تقبل بوجه بدنك عليه ، وإنما وجه القلب هو الذي يتوجه به إلى فاطر السماوات والأرض ، فانظر إليه أمتوجه هو إلى أمانيه وهممه في البيت والسوق ومتبع للشهوات أم مقبل على فاطر السماوات والأرض ؟

وإياك وأن تكون أول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاف ، ولن ينصرف الوجه إلى الله إلا بانصرافه عمن سواه ، فاجتهد في الحال في صرفه إليه ، وإن عجزت عنه على الدوام ليكون قولك في الحال صدقاً.

وإذا قلت : «حنيفاً مسلماً» فينبغي أن يخطر ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من لسانه ويده ، فإن لم تكن كذلك كنت كاذباً ، فاجتهد أن تعزم عليه في الاستقبال، وتندم على ما سبق من الأحوال.

وإذا قلت : «وما أنا من المشركين» فأخطر ببالك الشرك الخفي ، فإن قوله تعالى : ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ نزل في من يقصد بعبادته وجه الله وحمد الناس. وكن منفياً من هذا الشرك، واستشعر الخجلة في قلبك أن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير براءة من هذا الشرك ، فإن اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه.

وإذا قلت : «محياي ومماتي لله» فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيده، وأنه إن صدر من رضاه وغضبه وقيامه وقعوده ورغبته في الحياة ورهبته من الموت لأمور الدنيا لم يكن ملائماً للحال.

الفصل التاسع عشر : في الاستعاذة :

قال : إذا قلت : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فاعلم أنه عدوك ، ومترصد لصرف قلبك عن الله حسداً لك على مناجاتك مع الله وسجودك له ، مع أنه لعن لسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها.

وأن استعاذتك بالله منه بترك ما يحبه وتبديله بما يحب الله لا بمجرد قولك ، وأن من قصده سبع أو عدو ليفترسه أو يقتله فقال : «أعوذ منك بذلك الحصن الحصين» وهو ثابت على مكانه أن ذلك لا ينفعه ، بل لا يعيذه إلا تبديل المكان ، فكذلك من يتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمان فلا يغنيه مجرد القول ، فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عز وجل عن شر الشيطان ، وحصنه لا إله إلا الله ، إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا ﷺ : ﴿لا إله إلا الله حصني﴾ ، والمتحصن به من لا معبود له سوى الله ، فأما من اتخذ إلهه هواه فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله .

واعلم أن من مكائده أن يشغلك في الصلاة بفكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات لتمتنع عن فهم ما تقرأ ، فاعلم أن كل ما يشغلك عن معاني القرآن فهو وسواس ، فإن حركة اللسان غير مقصودة بل المقصود المعاني ، والناس في القراءة ثلاثة : رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل ، ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيستمع ويفهم منه كأنه يسمعه من غيره وهو درجة أصحاب اليمين ، ورجل يسبق قلبه إلى المعاني أولاً ثم يخدم اللسان قلبه فيترجمه . ففرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب ، والمقربون ألسنتهم ترجمان يتبع القلب - انتهى .

وعليك بالخضوع والخشوع وحضور القلب في صلاتك .

الفصل العشرون : في بيان الخضوع والخشوع وحضور القلب :

قال الله تعالى : ﴿والذين هم في صلواتهم خاشعون﴾ وقال تعالى : ﴿فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ . ذمهم على الغفلة عنها مع كونهم مصلين لا لأنهم سهوا عنها وتركوها .

وقال تعالى : ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾ وفيه تنبيه على سكر الدنيا إذ بيّن فيه العلة .

وقال تعالى : ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ وقال تعالى : ﴿أقم الصلاة لذكري﴾.

وقال النبي ﷺ : من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه.

وقال ﷺ: إذا صليت فريضة فصلِّ لوقتها صلاة مودع تخاف أن لا تعود فيها.

وقال ﷺ : لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه.

وقال الصادق ؑ: من قبل الله منه صلاة واحدة لم يعذبه ، ومن قبل منه حسنة لم يعذبه.

وروي أن إبراهيم الخليل ؑ كان يسمع تأوهه على حد ميل ، وكان في صلاته يسمع له أزيز كأزيز المرجل.

وكان الحسن ؑ إذا فرغ من وضوئه تغير لونه ، فقيل له في ذلك فقال : حق على من أراد أن يدخل على ذي العرش أن يتغير لونه . وروي نحوه عن السجاد ؑ

وعنه ؑ أنه كان إذا توضأ اصفر لونه ، فتقول له أهله : ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء ؟ فيقول : أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم.

ورآه رجل يصلي فسقط رداؤه عن منكبه فلم يسوه حتى فرغ من صلاته فسأله عن ذلك فقال : ويحك أتدري بين يدي من كنت ؟ إن العبد لا تقبل منه صلاة إلا ما أقبل فيها . فقلت : جعلت فداك هلكنا قال ؑ كلا إن الله يتم ذلك بالنوافل.

وعن الصادق ؑ قال : كان علي بن الحسين إذا قام إلى الصلاة تغير لونه ، وإذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقاً.

وعنه ؑ قال : كان أبي يقول : كان علي بن الحسين ؑ إذا قام

إلى الصلاة كأنه ساق شجرة لا يتحرك منه إلا ما حركت الريح منه.

ولله در المحقق الفريد والمدقق الوحيد الشريف المهدي الطباطبائي (ره) حيث قال في الدرة:

عليك بالحضور والإقبال ... في جملة الأقوال والأفعال
والصدق في النية والإخبات ... فإنها حقيقة الصلاة
وليس للعبد بها ما يقبل ... إلا الذي كان عليه يقبل
وصلِ بالخضوع والتخشع ... وكن إذا صليت كالمودع
واستعمل الوقار والسكينة ... واستحضر المقاصد المكنونة
وخذ من الأكمام لب الثمرة ... واطلب من المعدن أصل الجوهرة
إياك من قول به تفند ... فأنت عبد لهواك تعبد
تلهج في إياك نستعين ... وأنت غير الله تستعين
ينعى على الباطن حسن ما علن ... ما أقبح القبيح في زي حسن
حسن له الباطن فوق الظاهر ... واعبده بالقلب التقي الطاهر
وتب إليه وأنب واستغفر ... وسدد الطاعة بالتفكر
وقم قيام الماثل الذليل ... ما بين أيدي الملك الجليل
واعلم إذا ما قلت ما تقول ... ومَن تناجي ومَن المسؤول

وذكر أبو حامد وغيره أن المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة تجمعها ست جمل، وهي: حضور القلب، والتفهم، والتعظيم والهيبة، والرجاء، والحياء.

فالأول: حضور القلب، ونعني به أن يفرغ القلب من غير ما هو ملابس له ومتكلم به، فيكون العلم بالفعل والقول مقروناً بهما، ولا يكون الفكر جارياً في غيرهما، ومهما انصرف الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لما هو فيه، ولم يكن فيه غفلة عنه فقد حصل حضور القلب.

الثاني: التفهم، بمعنى الكلام، وهو أمر وراء حضور القلب، فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ولا يكون حاضراً مع معنى اللفظ، فاشتمال

القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي أردنا به التفهم ، وهذا مقام يتفاوت فيه الناس ، إذ ليس يشترك الناس في فهم معاني القرآن والتسبيحات ، وكم من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة ولم تكن قد خطرت بقلبه قبل ذلك . ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر ، فإنها تفهم أموراً وتلك الأمور تنهى عن الفحشاء والمنكر لا محالة.

الثالث : التعظيم ، وهو أمر وراء حضور القلب والتفهم ، إذ الرجل ربما يخاطب غيره بكلام هو حاضر القلب فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون معظماً له.

الرابع : الهيبة ، وهي زائدة على التعظيم ، إذ هي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم ، لأن من لا يخاف لا يسمى هائباً . ثم كل خوف لا يسمى مهابة ، بل الهيبة خوف مصدره الإجلال.

الخامس : الرجاء ، فالعبد ينبغي أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله ، كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله.

ثم الحياء ، ومستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب.

ثم ذكروا أسباب هذه المعاني الستة : فسبب حضور القلب الهمة ، فإن قلبك تابع لهمك، فلا يحضر إلا في ما يهمك، ومهما أهمك أمر حضر القلب شاء أم أبى ، فهو مجبول عليه ومسخر فيه ، والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلاً بل كان حاضراً في ما الهمة مصروفة إليه من أمور الدنيا ، فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة ، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن الغرض المطلوب منوط بها ، وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى ، وأن الصلاة وسيلة إليه ، فإذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهانتها حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة.

وأما التفهم فسببه ـ بعد حضور القلب ـ إدمان الفكر وصرف الذهن

إلى إدراك المعنى ، وعلاجه ما هو علاج إحضار القلب مع الإقبال على الفكر والتشمر لرفع الخواطر الشاغلة ، وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها ، أعني النزوع من تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها ، وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر ، فمن أحب شيئاً أكثر ذكره ، فذكر المحبوب يهجم على القلب بالضرورة ، ولذلك ترى من أحب غير الله لا يصفو له صلاة عن الخواطر.

وأما التعظيم فهي حالة للقلب يتولد من معرفتين : إحداهما معرفة جلال الله وعظمته ، وهي من أصول الإيمان ، فإن من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه . الثانية معرفة حقارة النفس وخستها وكونها عبداً مسخراً مربوباً ، حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله ، فيعبر عنه بالتعظيم وما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الرب لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع ، فإن المستغني عن غيره الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة.

ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله ، لأن القرينة الأخرى - وهي معرفة حقارة النفس وحاجتها - لم تقترن إليه.

وأما الهيبة والخوف فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به ، ولو أنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة . هذا مع مطالعة ما يجري على الأنبياء والأوصياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع . وبالجملة كلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة.

وأما الرجاء فسببه معرفة لطف الله وكرمه وعميم أنعامه ولطائف صنعه ، ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة ، فإذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعها الرجاء لا محالة.

وأما الحياء فباستشعار التقصير في العبادة ، وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله ، ويقوي ذلك المعرفة بعيوب النفس وآفاتها وقلة إخلاصها

وخبث دخلتها ، وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعاله مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله ، والعلم بأنه مطلع على السريرة وخطرات القلب وإن دقت وخفيت ، وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً انبعث منها بالضرورة حالة تسمى الحياء.

الفصل الحادي والعشرون : في القراءة :

قال أبو حامد : إذ قلت ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فانوِ به التبرك لابتداء القراءة بكلام الله ؛ وافهم أن معناه أن الأمور كلها بالله ، وأن المراد بالاسم هنا هو المسمى ، فإذا كانت الأمور بالله فلا جرم كان ﴿الحمد لله﴾ ، إذ النعم منه ، ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله بشكره لا من حيث إنه مسخر من الله ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله .

فإذا قلت :﴿الرحمن الرحيم﴾ فأحضر في قلبك أنواع لطفه تتضح لك رحمته ، فينبعث به رجاؤك ، ثم استشعر من قلبك التعظيم والخوف بقولك : ﴿مالك يوم الدين﴾، أما العظمة فلأنه لا ملك إلا له ، وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه.

ثم جدد الإخلاص بقولك :﴿إياك نعبد﴾ وجدد العجز والاحتياج والتبري من الحول والقوة بقولك :﴿وإياك نستعين﴾، وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا بإعانته ، وأن له المنة إذ وفقك لطاعته واستخدمك لعبادته ، وجعلك أهلاً لمناجاته ، ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان اللعين.

قيل : أتى بصيغة الجمع هضماً لنفسه ، وإن عبادته واستعانته ليستا قابلتين في معرض العدل ، فمزج عبادة غيره واستعانته أيضاً في ذلك ، إذ لا تخلو جميع العبادات من عبادة مقبولة ، وتكون عبادته وغيرها كبيع الصفقة لا يرد بعضه ، ويقبل بعضه ، بل إما يرد الجميع أو يقبل الجميع ، والله سبحانه أكرم من أن يرد الجميع فيقبل الجميع ، وهذا من جملة فوائد

الصلاة في أول الوقت والصلاة جماعة ، والابتداء في سؤال الحاجة بالصلاة على محمد وآله ثم ذكر الحاجة ثم الاختتام بالصلاة ، فإن الله أكرم من أن يقبل الطرفين ويرد الوسط .

ثم إذا فرغت من التفويض بقولك بسم الله وعن التحميد وعن إظهار الحاجة إلى الإعانة مطلقاً فعين سؤالك ولا تطلب إلا أهم حاجاتك وقل : ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ الذي يسوقنا إلى جوارك ويفضي بنا إلى مرضاتك ، وزده شرحاً وتفصيلاً وتأكيداً واستشهاداً بالذين أنعم عليهم نعمة الهداية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، دون الذين غضب عليهم من الكفار والمنافقين الزائغين من اليهود والنصارى والصابئين.

فإذا تلوت الفاتحة كذلك فيشبه أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم في ما أخبر عنه النبي ﷺ : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي ، يقول العبد: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ فيقول الله : حمدني عبدي وأثنى علي ، وهو معنى قوله : سمع الله لمن حمده - الحديث إلى آخره.

فإن لم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله في جلاله وعظمته فناهيك به غنيمة ، فكيف ما ترجوه من ثوابه وفضله.

وكذلك ينبغي أن تكون تفهم ما تقرأ من السورة كما يأتي في باب تلاوة القرآن ، فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعده ووعيده ومواعظه وأخبار أنبيائه وذكر منته وإحسانه ، فلكل واحد حق ، فالرجاء حق الوعد ، والخوف حق الوعيد ، والعزم حق الأمر والنهي ، والاتعاظ حق الموعظة ، والشكر حق ذكر المنة ، والاعتبار حق أخبار الأنبياء . وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم ، ويكون الفهم بحسب وفور العلم وصفاء القلب ، ودرجات ذلك لا تنحصر.

والصلاة مفتاح القلوب ، فيها تنكشف أسرار الكلمات . فهذا حق القراءة ، وهو حق الأذكار والتسبيحات أيضاً . ثم تراعي الهيئة في القراءة

فترتل ولا تسرد ولا تعجل ، فإن ذلك أيسر للتأمل.

الفصل الثاني والعشرون : في دوام القيام :

قال أبو حامد : وأما دوام القيام فهو تنبيه على إقامة القلب مع الله على نعت واحد من الحضور . قال النبي ﷺ : إن الله مقبل على المصلي ما لم يلتفت.

وكما يجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات فكذلك يجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الصلاة ، فإن التفت إلى غيرها فذكره باطلاع الله عليك ، وقبح التهاون بالمناجي عند غفلة المناجي ليعود إليه.

والزم خشوع القلب ، فإن الخلاص عن الالتفات باطناً وظاهراً ثمرة الخشوع ، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر . قال ﷺ وقد رأى مصلياً يعبث بلحيته : أما هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ، فإن الرعية بحكم الراعي . ولهذا ورد في الدعاء «اللهم أصلح الراعي والرعية» وهو القلب والجوارح ، كل ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعظم من أبناء الدنيا فكيف لا يتقاضاه بين يدي ملك الملوك عند من يعرف ملك الملوك.

ومن يطمئن بين يدي غير الله خاشعاً وتضطرب أطرافه بين يدي الله تعالى فذلك لقصور معرفته عن جلال الله تعالى ، وعن اطلاعه على سره وضميره ، وتدبر قوله تعالى : ﴿الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين﴾.

الفصل الثالث والعشرون : في الركوع :

قال : وأما الركوع فينبغي أن تجدد عنده ذكر كبرياء الله تعالى ، وترفع يديك مستجيراً بعفو الله من عقابه ، ومتبعاً سنة نبيه ﷺ ، ثم تستأنف له ذلاً وتواضعاً بركوعك ، وتجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك ، وتستشعر ذلك وعز مولاك واتضاعك وعلو ربك ، وتستعين على

تقرير ذلك في قلبك بلسانك ، فتسبح ربك وتشهد له بالعظمة وأنه أعظم من كل عظيم ، وتكرر ذلك على قلبك لتؤكده بالتكرار.

ثم ترتفع عن ركوعك راجياً أنه راحم ذلك ، وتؤكد ذلك الرجاء في نفسك بقولك : «سمع الله لمن حمده» أي أجاب الله لمن شكره ، ثم تردف ذلك بالشكر المتقاضي للمزيد ، فتقول : «الحمد لله رب العالمين» ـ انتهى.

ثم تزيد في الخشوع والتذلل ، فتقول: «أهل الكبرياء والعظمة والجود والجبروت» .

وروى الصدوق عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سئل عن معنى مد العنق في الركوع ؟ فقال : تأويله آمنت بك ولو ضربت عنقي.

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام: لا يركع لله عبد ركوعاً على الحقيقة إلا زينه الله تعالى بنور بهائه ، وأظله في ظلال كبريائه ، وكساه كسوة أصفيائه ، والركوع أول والسجود ثان ، فمن أتى بمعنى الأول صلح للثاني ، وفي الركوع أدب وفي السجود قرب ، ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب ، فاركع ركوع خاضع لله بقلبه متذلل وجل تحت سلطانه ، خافض له بجوارحه خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين.

الفصل الرابع والعشرون : في السجود :

قال أبو حامد : ثم تهوي إلى السجود ، وهو أعلى درجات الاستكانة فمكن أعز أعضائك ـ وهو الوجه ـ من أذل الأشياء ـ وهو التراب ـ ، وإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلاً فتسجد على الأرض فافعل ، فإنه أجلب للخضوع وأدل على الذل.

وإذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم أنك وضعتها موضعها ورددت الفرع إلى أصله فإنك من التراب خلقت وإليه رددت ، فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله وقل : «سبحان ربي الأعلى» وأكده بالتكرار ، فإن المرة

الواحدة ضعيفة الآثار ، فإذا رق قلبك وطهر لبك فليصدق رجاؤك في رحمة ربك ، فإن رحمته تتسارع إلى الضعف والذل لا إلى التكبر والبطر ، فارفع رأسك مكبراً سائلاً حاجتك ومستغفراً من ذنوبك.

ثم أكد التواضع بالتكرار ، وعد إلى السجود ثانياً كذلك . انتهى.

وروى الصدوق عن أمير المؤمنين عليه السلام: إنه سئل ما معنى السجدة الأولى ؟ قال : تأويلها «اللهم إنك منها خلقتنا» يعني من الأرض ، وتأويل رفع رأسك منها «ومنها أخرجتنا» ، والسجدة الثانية «وإليها تعيدنا» ورفع رأسك منها «ومنها تخرجنا تارة أخرى» .

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام: ما خسر والله من أتى بحقيقة السجود ولو كان في العمر مرة واحدة ، وما أفلح من خلا بربه في مثل تلك الحال شبيهاً بمخادع نفسه غافل لاهٍ عما أعد الله للساجدين من أنس العاجل وراحة الآجل ، ولا بعد عن الله أبداً من أحسن تقربه في السجود ، ولا قرب إليه أبداً من أساء أدبه وضيع حرمته بتعليق قلبه بسواه في حال سجوده ، فاسجد سجود متواضع لله ذليل علم أنه خلق من تراب يطؤه الخلق، وأنه ركب من نطفة يستقذرها كل أحد . وقد جعل الله معنى السجود سبب التقرب إليه بالقلب والسر والروح ، فمن قرب منه بعد من غيره ، ألا ترى في الظاهر أنه لا يستوي حال السجود إلا بالتواري عن جميع الأشياء والاحتجاب عن كل ما تراه العيون ، كذلك أمر الباطن ، فمن كان قلبه متعلقاً في صلاته بشيء دون الله فهو قريب من ذلك الشيء بعيد عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته . قال الله تعالى : ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قال الله تعالى : «لا أطلع على قلب عبد فأعلم فيه حب الإخلاص لطاعة وجهي وابتغاء مرضاتي إلا تولیت تقویمه وسياسته ، ومن اشتغل في صلاته بغيري فهو من المستهزئين بنفسه مكتوب اسمه في ديوان الخاسرين» .

الفصل الخامس والعشرون : في التشهد :

قال الشهيد الثاني (ره) : إذا جلست للتشهد بعد هذه الأفعال الدقيقة والأسرار العميقة المشتملة على الأخطار الجسيمة والأهوال العظيمة فاستشعر الخوف التام والرهبة والحياء والوجل أن يكون جميع ما سلف منك غير واقع على وجهه ولا محصلاً لوظيفته وشرطه ولا مكتوباً في ديوان المقبولين ، فاجعل يدك صفراً من فوائدها إلا أن يتداركك الله برحمته ويقبل عملك الناقص بفضله ، وارجع إلى مبدأ الأمر وأصل الدين ، واستمسك بكلمة التوحيد وحصن الله تعالى الذي من دخله كان آمناً إن لم يكن حصل في يدك غيره.

واشهد له بالوحدانية ، وأحضر رسوله الكريم ونبيه العظيم ﷺ بالك واشهد له بالنبوة والرسالة ، وصلِ عليه وآله مجدداً عهد الله بإعادة كلمتي الشهادة متعرضاً بهما لتأسيس مراتب العبادة ، فإنهما أول الوسائل وأساس الفواضل وجماع أمر الفضائل ، مترقباً لإجابته ﷺ لك بصلاتك عشراً من صلاته إذا قمت بحقيقة صلاتك عليه التي لو وصل إليك منها واحدة فلحت أبداً.

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : التشهد ثناء على الله ، فكن عبداً له في السر ، خاضعاً له في الفعل ، كما أنك له عبد في القول والدعوى ، وصل صدق لسانك بصفاء سرك ، فإنه خلقك عبداً وأمرك أن تعبده بقلبك ولسانك وجوارحك ، وأن تحقق عبوديتك له بربوبيته لك ، وتعلم أن نواصي الخلق بيده ، فليس لهم نفس ولا لحظة إلا بقدرته ومشيئته وهم عاجزون عن إتيان أقل شيء في مملكته إلا بإذنه وإرادته.

ثم قال عليه السلام : فاستعمل العبودية في الرضا بحكمته ، وبالعبادة في أداء أوامره ، وقد أمرك بالصلاة على نبيه محمد ﷺ ، فأوصل صلاته بصلاته وطاعته بطاعته وشهادته بشهادته ، وانظر أن لا تفوتك بركات معرفة حرمته فتحرم عن فائدة صلواته.

الفصل السادس والعشرون : في التسليم :

قال (ره) : وإذا فرغت من التشهد فأحضر نفسك بحضرة سيد المرسلين والملائكة المقربين وبقية أنبياء الله وأئمته عليهم السلام: والحفظة لك من الملائكة المحصين لأعمالك ، وأحضرهم جميعاً في بالك وقل : «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» ، ولا تطلق لسانك بصيغة الخطاب من غير حضور المخاطب في ذهنك ، فتكون من العابثين واللاعبين . وكيف يسمع الخطاب لمن لا يقصد لولا فضل الله ورحمته الشاملة ورأفته الكاملة في اجتزائه بذلك عن أصل الواجب ، وإن كان بعيداً عن درجات القبول منحطاً عن أوج القرب والوصول .

وإن كنت إماماً لقوم فأقصدهم السلام مع من تقدم من المقصودين ، وليقصدوا هم الرد عليك أيضاً ، ثم يقصدوا مقصدك بسلام ثانٍ ، فإذا فعلتم ذلك فقد أديتم وظيفة السلام ، واستحققتم من الله مزيد الإكرام.

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام: معنى السلام في دبر كل صلاة الأمان ، أي من أدى أمر الله وسنة نبيه خالصاً له خاشعاً قلبه فله الأمان من بلاء الدنيا ، وبراءة من عذاب الآخرة . والسلام اسم من أسماء الله تعالى أودعه خلقه ليستعملوا معناه في المعاملات والأمانات والإنصافات ، وصدق مصاحبتهم في ما بينهم وصحة معاشرتهم.

وإن أردت أن تضع السلام موضعه وتؤدي معناه فاتق الله ، وليسلم منك دينك وقلبك وعقلك أن لا تدنسها بظلمة المعاصي ، وليسلم حفظتك أن لا تبرمهم وتملهم وتوحشهم منك بسوء معاملتك معهم ثم صديقك ثم عدوك ، فإن لم يسلم منه من هو الأقرب إليه فالأبعد أولى ، ومن لا يضع السلام مواضعه هذه فلا سلام ولا إسلام ولا تسليم ، وكان كاذباً في سلامه وإن أفشاه في الخلق.

الباب الثاني
في صلاة الجمعة

قال الشهيد الثاني (ره) : وتختص صلاة الجمعة باستحضار أن يومها يوم عظيم ، وعيدها عيد شريف ، خص الله به هذه الأمة وجعله وقتاً شريفاً لعباده ، ليقربهم فيه من جواره ويبعدهم من طرده وناره ، وحثهم فيه على الإقبال بصالح الأعمال ، وتلافي ما فرط منهم في بقية الأسبوع من الإهمال، وجعل أهم ما يقع فيه من طاعته وما يوجب الزلفى لديه صلاة الجمعة ، وعبَّر عنها في محكم كتابه الكريم بذكر الله ، وخصها من بين سائر الصلوات التي هي أفضل القربات بالذكر ، فقال سبحانه : **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾** .

وفي هذه الآية الشريفة من التنبيهات والتأكيدات ما يتنبه له من له حظ من المعاني ، ومن أهم رمزها التعبير عن الصلاة بذكر الله تنبيهاً على أن الغرض الأقصى من الصلاة ذكر الله بالقلب وإحضار عظمته بالبال ، فإن هذا وأشباهه هو السر في كون الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر ، وهذا إنما يتم مع التوجه التام إلى الله وملاحظة جلاله الذي هو الذكر الأكبر والكثير على ما ورد في بعض التفسير فضلاً عن أن يكون ذكراً مطلقاً ، فلا جرم وجب الأهتمام بها زيادة على غيرها من الصلوات ، والتهيؤ والاستعداد للقاء

الله والوقوف بين يديه والمثول في حضرته والفوز بمخاطبته ، بعد الإتيان بمقدمات الصلاة من وظائف اليوم من التنظيف والتطييب والتعمم وحلق الرأس وقص الشارب والأظفار وغير ذلك من السنن بقلب مقبل صاف وعمل مخلص ونية خالصة : كما تعمل ذلك في لقاء ملك الدنيا.

ولا تقصد بهذه الوظائف حظك من الرفاهية ، فتخسر صفقتك وتظهر بعد ذلك حسرتك ، وكلما أمكنك تكثير المطالب التي يترتب عليها الثواب بعملك فاقصدها يضاعف ثواب عملك بقصدها إن أمكنك ذلك.

الباب الثالث
في صلاة العيدين

قال : وأما صلاة العيدين فأحضر في قلبك أنها يوم قسمة الجوائز ، وتفرقة الرحمة وإفاضة المواهب على من قبل صومه وقرباته وقام بوظائفها فأكثر من الخشوع في صلاتك والابتهال إلى الله تعالى فيها وقبلها وبعدها في قبول أعمالك والعفو عن تقصيرك ، واستشعر الحياء والخجلة من حيرة الرد وخذلان الطرد ، فليس ذلك اليوم بعيد لمن لبس الجديد ، وإنما هو عيد من أمن الوعيد ، وسلم من النقاش والتهديد ، واستحق بصالح أعماله المزيد فاستقبله بما استقبلت به يوم الجمعة من الوظائف وأسباب التهيؤ للإقبال بالقلب على ربك والوقوف بين يديه ، عسى أن تصلح للمناجاة والخضوع لديه ، ولا تجعل فرحك فيه بما لم تخلق لأجله من متاع الدنيا ، بل بكثرة عوائد الله فيه على من عامله بمتاجر الآخرة.

الباب الرابع
في صلوة الآيات

قال : وأما الآيات فاستحضر عندها أهوال الآخرة وزلازلها ، وتكوير الشمس والقمر وظلمة القيامة ووجل الخلائق وخوفهم من الأخذ والنكال والعقوبة والاستئصال ، فأكثر من الدعاء والابتهال بمزيد الخضوع والخشوع والخوف والوجل في النجاة من تلك الشدائد ، ورد النور بعد الظلمة والمسامحة على الهفوة والزلة.

وتب إلى الله من ذنوبك وأحسن التوبة عسى أن ينظر إليك ، وأنت منكسر النفس مطرق الرأس مستحٍ من التقصير ، فيقبل توبتك ويسامح هفوتك.

قال السجاد عليه السلام: لا يفزع للآيتين ولا يرهب إلا من كان من شيعتنا ، فإذا كان ذلك منهما فافزعوا إلى الله وراجعوه.

وقال الرضا عليه السلام: إنما جعلت للكسوف صلاة لأنه من آيات الله تعالى ، لا يدري لرحمة ظهرت أم لعذاب ، فأحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن تفزع أمته إلى خالقها وراحمها عند ذلك ليصرف عنهم شرها ويقيم مكروهها ، كما صرف عن قوم يونس حين تضرعوا إلى الله عز وجل.

الباب الخامس
في قراءة القرآن

قال الله تعالى : ﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾ . قال أمير المؤمنين عليه السلام : أي بيِّنه تبياناً ولا تهذه هذّ الشعر ولا تنثره نثر الرمل ، ولكن اقرعوا قلوبكم القاسية ، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة .

وقال الله تعالى : ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ . ونرى أنفسنا الشقية تتلوه وتقرؤه ولا تخشع قلوبنا ولا تتصدع فكنا كما قال تعالى : ﴿ثم قست قلوبكم﴾ فكانت كالحجارة أو أشد قسوة .

وقال الصادق عليه السلام : القرآن نزل بالحزن فاقرأوه بالحزن .

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أُتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا .

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام من قرأ القرآن ولم يخضع له ولم يرق قلبه ولم ينشىء حزنا ووجلا في سره فقد استهان بعظم شأن الله وخسر خسراناً مبيناً .

فقارىء القرآن يحتاج إلى ثلاثة أشياء : قلب خاشع ، وبدن فارغ ، وموضع خالٍ . فإذا خشع لله قلبه فر منه الشيطان الرجيم ، وإذا تفرغ نفسه من الأسباب تجرد قلبه للقراءة فلا يعترضه عارض فيحرمه نور القرآن

وفوائده ، وإذا اتخذ مجلساً خالياً واعتزل من الخلق بعد أن أتى بالخصلتين الأوليتين استأنس روحه وسره بالله ، ووجد حلاوة مخاطبات الله عباده الصالحين ، وعلم لطفه بهم ومقام اختصاصه لهم بفنون كراماته وبدائع إشاراته ، فإذا شرب كأساً من هذا المشرب فحينئذ لا يختار على ذلك الحال حالاً ولا على ذلك الوقت وقتاً ، بل يؤثره على كل طاعة وعبادة ، لأن فيه المناجاة مع الرب بلا واسطة .

فانظر كيف تقرأ كتاب ربك ومنشور ولايتك ، وكيف تجيب أوامره ونواهيه ، وكيف تمثل حدوده ، فإنه كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

فرتله ترتيلاً ، وقف عند وعده ووعيده ، وتفكر في أمثاله ومواعظه واحذر أن تقع من إقامتك حروفه في إضاعة حدوده .

وقال أبو حامد ما ملخصه : ينبغي لتالي القرآن من أمور باطنة :

منها : فهم عظمة الكلام وعلوه ، وفضل الله تعالى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة أفهام خلقه .

ومنها : التعظيم للمتكلم ، فالقارىء عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ، ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر ، وأن في تلاوة كلامه غاية الخطر ، فإنه تعالى قال : ﴿لا يمسه إلا المطهرون﴾ ، وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهراً ، فباطن معناه أيضاً محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان منقطعاً عن كل رجس ومستنيراً بنور التعظيم والتوقير ، وكما لا يصلح للمس المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب .

ومنها : حضور القلب وترك حديث النفس ، وهذا يتولد من التعظيم فإن المعظم للكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه ، ففي

القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالي أهلاً له ، فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره وهو في متنزه.

ومنها : التدبر ، وهو وراء حضور القلب ، فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبر ، المقصود من القراءة التدبر ، قال تعالى : ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ ولذلك سن فيه الترتيل ، لأن الترتيل في الظاهر تمكن من التدبر في الباطن . قال أمير المؤمنين عليه السلام: لا خير في عبادة لا فقه فيها ، ولا في قراءة لا تدبر فيها . وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بالترديد فليردد.

ومنها : التفهم ، وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها ، إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله تعالى وذكر أفعاله وأحوال أنبيائه والمكذبين لهم وأوامره وزواجره والجنة والنار.

ومنها : التخلي عن موانع الفهم ، فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم ، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن . قال النبي صلى الله عليه وآله : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لينظروا إلى الملكوت ، ومعاني القرآن من جملة الملكوت لأنها إنما تدرك بنور البصيرة دون الحواس.

وحجب الفهم أربعة :

أولها : أن يكون الهم منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها ، فيكون تأملهم مقصوراً على مخارج الحروف ، وهذا من تسويلات الشيطان.

ثانيها : أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة.

ثالثها : أن يكون مصراً على ذنب أو متصفاً بكبر ، ومبتلى على

الجملة بهوىً في الدنيا مطاع ، فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدؤه ، وهو كالخبث على المرآة.

رابعها : أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً ، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل ، وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي ولم يعلم أن القرآن له معانٍ كثيرة وبطون وبطون وبطون.

ومنها : التخصيص ، وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن فإن سمع أمراً أو نهياً قدر أنه هو المأمور والمنهي ، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك ، وإن سمع موعظة اتعظ أو عبرة اعتبر ، وهكذا.

ومنها : التأثر ، وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات في الرحمة والمغفرة والعذاب ونحو ذلك.

ومنها : الترقي ، وهو أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله لا من نفسه ، فدرجات القراءة ثلاث: أدناها أن يقدر العبد كأنه يقرأ على الله تعالى واقفاً بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه ، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهال ، ثم أن يشهد بقلبه كأن ربه يخاطبه بألطافه ويناجيه بأنعامه وإحسانه ، فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم ، ثم أن يرى في الكلام المتكلم وفي الكلمات الصفات ، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ، ولا إلى تعلق الأنعام به من حيث إنه منعم عليه ، بل يكون مقصور الهم على المتكلم بوقوف الفكر عليه ، كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره ، وهذه درجة المقربين ، وما قبلها من درجات أصحاب اليمين ، وما عداها من درجة الغافلين . وعن الدرجة العليا أخبر الإمام الصادق عليه السلام في ما روي عنه فقال : والله لقد تجلى الله لخلقه في كلامه ولكن لا يبصرون .

ومنها : التبري ، وهو أن يتبرى من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بعين الرضا والتزكية ، فإذا تلا آيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك بل يشهد الموقنين والصديقين فيها . ويتشوق أن يلحقه الله بهم ،

وإذا تلا آية المقت وذم العصاة والمقصرين شهد نفسه هناك وقدر أنه المخاطب خوفاً وإشفاقاً ، وإلى هذا أشار أمير المؤمنين عليه السلام في الخطبة التي يصف فيها المتقين بقوله : وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم وظنوا أن زفير جهنم في آذانهم ، فإذا رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة كانت رؤيته سبب قربه ، وحيث يتلو آيات الرحمة ويغلب على حاله الاستبشار تنكشف له صورة الجنة فيشاهدها كأنه يراها عياناً ، وإن غلب عليه الخوف كوشف بالنار حتى يرى أنواع عذابها ، وهكذا.

الباب السادس
في آداب الدعاء

العمدة في آدابه الإقبال بالقلب ، لأن من لا يقبل عليك لا يستحق إقبالك عليه ، كما لو حادثك من تعلم غفلته عن محاورتك وإعراضه عن مجاورتك ، فإنه يستحق إعراضك عن خطابه واشتغالك عن جوابه.

قال الصادق عليه السلام: من أراد أن ينظر منزلته عند الله فلينظر منزلة الله عنده ، فإن الله ينزل العبد مثل ما ينزل العبد الله من نفسه.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: لا يقبل الله دعاء لاهٍ.

ومن جملة آدابه تسمية الحاجة ، والتعميم في الدعاء ، والبكاء حالته ، والاعتراف بالذنب قبل السؤال ، والتقدم في الدعاء قبل الحاجة إليه ، وأن لا يعتمد في حوائجه على غير الله ، وأن لا يلحن في الدعاء.

وعن الصادق عليه السلام قال : إحفظ آداب الدعاء ، وانظر من تدعو وكيف تدعو ولماذا تدعو ، وحقق عظمة الله وكبرياءه، وعاين بقلبك علمه بما في ضميرك واطلاعه على سرك وما كمن فيه من الحق والباطل ، واعرف طرق نجاتك وهلاكك كي لا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك وأنت تظن أن فيه خيراً، وتفكر ماذا تسأل ولماذا تسأل ، والدعاء استجابة الكل منك للحق وتذويب المهجة في مشاهدة الرب ، وترك الاختيار جميعاً، وتسليم الأمور كلها

ظاهرها وباطنها إلى الله ، فإن لم تأت بشرط الدعاء فلا تنتظر الإجابة فإنه يعلم السر وأخفى ، فلعلك تدعوه بشيء علم من نيتك بخلاف ذلك.

واعلم أنه لو لم يكن أمرنا الله بالدعاء لكنا إذا أخلصنا الدعاء تفضل علينا بالإجابة ، فكيف وقد ضمن ذلك لمن أتى بشرائط الدعاء ، قال : فإذا أتيت بما ذكرت لك من شرائط الدعاء وأخلصت سرك لوجهه فأبشر بإحدى ثلاث: إما أن يعجل لك بما سألت ، أو يدخر لك ما هو أعظم منه ، وإما أن يصرف عنك من البلاء ما أن لو أرسله عليك لهلكت.

وروي عن الصادق عليه السلام أنه قرأ ﴿أمّن يجيب المضطر إذا دعاه﴾ فسئل ما لنا ندعو ولا يستجيب لنا ؟ فقال : لأنكم تدعون من لا تعرفونه ، وتسألون ما لا تفهمونه.

الباب السابع
في أسرار الزكاة والمعروف

قال بعض العارفين : السر في إيجاب الزكاة وإنفاق المال امتحان العبد ، وفيه ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول : إن التلفظ بكلمتي الشهادة التزام التوحيد وشهادة بإقرار المعبود ، وشرط تمام الوفاء بذلك أن لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد ، فإن المحبة لا تقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى ، وإنما تمتحن درجة الحب بمفارقة المحبوبات ، والأموال محبوبة عند الخلق لأنها آلة تنعمهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم ويفرون من الموت مع أن فيه لقاء المحبوب ، فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب ، واستنزلوا عن المال الذي هو مرقومهم ومعشوقهم ، ولذلك قال الله تعالى : **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾** .

والمعنى الثاني : التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات . قال النبي ﷺ : ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوىً متبع ، وإعجاب المرء بنفسه . وقال الله عز وجل : **﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾** .

وإنما تزول صفة البخل بأن يتعود بذل المال ، فحب الشيء لا ينقطع

إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير ذلك اعتياداً ، فالإنفاق بهذا المعنى يطهر صاحبه من حيث البخل المهلك ، وإنما طهارته بقدر بذله وبقدر فرحه بإخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى.

والمعنى الثالث : شكر النعمة ، فإن لله على عبده نعمة في نفسه وماله ، فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن والمالية شكر لنعمة المال . وما أخسّ من ينظر إلى الفقير وقد ضيق الرزق عليه وأحوج إليه ، ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى في إغنائه عن السؤال.

وينبغي للمنفق أن يغتنم الفرصة مهما ظهرت داعية الخير من الباطن حذراً من إغواء الشيطان اللعين ، وأن لا يحوج الفقير إلى السؤال ، فورد أنه مكافأة لوجهه المبذول وثمن ما أخذ منه وليس بمعروف ، ويتحرى الأوقات الشريفة والأمكنة المنيفة كمكة والمدينة والمشاهد وشهر رمضان وذي الحجة ويوم الغدير ، وأن يسر في المستحب بحيث لا تدري شماله ما تعطي يمينه قال الصادق عليه السلام: الصدقة في السر والله أفضل من الصدقة في العلانية .

وكان عليه السلام إذا صلى العتمة وذهب من الليل شطره أخذ جراباً فيه خبز ولحم والدراهم وحمله على عنقه ثم ذهب به إلى أهل الحاجة من أهل المدينة فقسمه بينهم ولا يعرفونه ، فلما مضى عليه السلام فقدوا ذلك وعلموا أنه كان أبا عبد الله عليه السلام

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : صدقة السر تطفىء غضب الرب.

وقال الصادق عليه السلام: كل ما فرض الله عليك فإعلانه أفضل من إسراره ، وكلما كان تطوعاً فإسراره أفضل من إعلانه.

وسئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أي الصدقة أفضل ؟ قال : أن تتصدق وأنت صحيح شحيح تأمل البقاء وتخشى الفاقة ،ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا.

وينبغي أن تستصغر الإعطاء ليعظم عند الله تعالى وهو يذكر التوفيق والثواب . قال الصادق عليه السلام: رأيت المعروف لا يصلح إلا بثلاث خصال : تصغيره ، وستره ، وتعجيله . فإنك إذا صغرته عظمته عند من تصنعه إليه ، فإذا سترته تممته ، وإذا عجلته هنأته ، وإن كان غير ذلك محقته.

وأن يعطي الأجود والأحب والأبعد عن الشبهة . قال تعالى : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ وقال تعالى : ﴿أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾، وأن يقبل يده بعد الإعطاء، فقد ورد أن الله تعالى يأخذها قبل أن تقع في يد السائل ، فإنه عز وجل يأخذ الصدقات ، وأن يلتمس الدعاء من الآخذ ، فقد ورد أن دعاءه يستجاب فيه ، وأن يصرف إلى من في إعطائه أكثرية الأجر كالأرحام والعلماء والصلحاء ، ولا يرد السائل إلا بلطف ، فورد : أكرم السائل ببذل يسير أو برد جميل ، ولا يحتقر ما عنده ، فورد : لا تستحيوا من إعطاء القليل فإن الحرمان أقل منه.

ويجتنب المن والأذى كما قال تعالى : ﴿ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾. والمن: أن يرى نفسه محسناً، بل المحسن هو القابض لإيصاله إلى الثواب والإنجاء من العقاب ، وكونه نائباً عنه تعالى ، وهو حق الله عز وجل أحال عليه الفقير إنجازاً لما وعده من الرزق . والأذى التعيير والتوبيخ والقول السيىء والقطوب والاستخدام وهتك الستر والاستخفاف.

وينبغي للآخذ أن يعلم أن الله تعالى أمر المعطي بصرفه إليه ليكفي مهمته ، فيتجرد للعبادة فيشكر الله ويشكر المعطي ، فيدعو له ويثني عليه مع رؤية النعمة من الله سبحانه . قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : من لم يشكر الناس لم يشكر الله .

وينبغي للمؤمن أن لا يسأل الناس مهما استطاع ، فإنه ذل في الدنيا وفقر معجل وحساب طويل يوم القيامة. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوماً لأصحابه: ألا تبايعون! فقالوا: قد بايعناك يا رسول الله. قال: تبايعون على أن لا تسألوا الناس

شيئاً ، فكان بعد ذلك تقع المخضرة من يد أحدهم فينزل لها ولا يقول لأحد ناولنيها.

وقال ﷺ : لو أن أحدكم يأخذ حبلاً فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل.

وقال ﷺ : من سألنا أعطيناه ، ومن استغنى أغناه الله .

وقال الصادق عليه السلام : شيعتنا من لا يسأل الناس شيئاً ولو مات جوعاً .

وقال عليه السلام : لو يعلم السائل ما عليه من الوزر ما سأل أحد أحداً ، ولو يعلم المسؤول ما عليه إذا منع ما منع أحد أحداً .

وقال عليه السلام : من سأل من غير حاجة فكأنما يأكل الجمر.

واعلم أن للجسد زكاة كما أن في المال زكاة ، وهو نقصه لمزيد الخير والبركة ، إما اضطراراً بأن يصاب بآفة ، أو اختياراً بأن يصرف في الطاعة ويمنع عن المعصية.

قال الصادق عليه السلام: قال النبي ﷺ يوماً لأصحابه : ملعون كل مال لا يزكى ، ملعون كل جسد لا يزكى ولو في كل أربعين يوم مرة . قيل له : يا رسول الله أما زكاة المال فقد عرفناها فما زكاة الأجساد ؟ فقال لهم : أن تصاب بآفة . قال : فتغيرت وجوه الذين سمعوا ذلك منه . قال : فلما رآهم قد تغيرت ألوانهم قال : هل تدرون ما عنيت بقولي ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : إن الرجل يخدش الخدشة وينكب النكبة ويعثر العثرة ويمرض المرضة ويشاك الشوكة وما أشبه هذا حتى ذكر في حديثه اختلاج العين .

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام: على كل جزء من أجزائك زكاة واجبة لله عز وجل ، بل على كل منبت شعرك ، بل على كل لحظة فزكاة العين النظر بالعبر والغض عن الشهوات وما يضاهيها ، وزكاة الأذن استماع العلم والحكمة والقرآن وفوائد الدين من الموعظة والنصيحة وما فيه نجاتك بالإعراض عما هو ضده من الكذب والغيبة وأشباههما ، وزكاة

اللســان النصح للمسلمين والتيقظ للغـافلين وكثـرة التسبيـح والـذكـر وغيـره ، وزكاة اليد البذل والسخاء بما أنعم الله عليك وتحـريكها بكتـابة العلوم ومنـافع ينتفـع بهـا المسلمـون في طـاعـة الله والقبض عن الشـرور ، وزكـاة الـرجــل السعي في حقـوق الله من زيارة الصالحين ومجـالس الـذكـر وإصـلاح النـاس وصلة الرحم والجهاد وما فيه صلاح قلبك وسلامة دينك.

هذا ما تحمـل القلوب فهمه والـنفـوس استعمـاله ، ومـا لا يشرف عليـه إلا عبـاده المقـربــون المخلصـون أكثــر من أن يحصى ، وهم أربـابــه وهـو شعارهم ودثارهم.

وعن النبي ﷺ : لكل شيء زكاة وزكاة الأبدان الصيام.

الباب الثامن
في أسرار الصوم

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : الصوم جنة من النار.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : الصائم في عبادة وإن كان نائماً في فراشه ما لم يغتب مسلماً.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : قال الله تعالى : الصوم لي وأنا أجزي به ، وللصائم فرحتان : حين يفطر وحين يلقى ربه عز وجل ، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك .

وقال الكاظم عليه السلام: قيلوا فإن الله تبارك وتعالى يطعم الصائم ويسقيه في منامه.

قيل : ولو لم يكن في الصوم إلا الارتقاء من حضيض حظوظ النفس البهيمية إلى ذروة التشبه بالملائكة الروحانية لكفى به فضلاً ومنقبة ، وإنما كان الصوم جنة من النار لأنه يدفع حر الشهوة والغضب اللتين بهما تصلى نار جهنم في باطن الإنسان في الدنيا وتبرز له في الآخرة . وإنما قال صلى الله عليه وآله وسلم : «ما لم يغتب مسلماً» لأن الغيبة أكل لحم الميتة ، فهو نوع من الأكل يقوى به البدن.

وإنما كان الصوم لله مع أن سائر العبادات له ـ كما شرف البيت

بالنسبة إليه والأرض كلها له ـ لوجهين :

أحدهما : إن الصوم كف وترك ، وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد وجميع الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى ، والصوم لا يعلمه إلا الله .

والثاني : إنه قهر لعدو الله ، فإن وسيلة الشيطان الشهوات ، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب ، ولذلك قال النبي ﷺ : إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم ، فضيقوا مجاريه بالجوع ، والشهوات مرتع الشياطين ومرعاهم.

وإنما كان خلوف الفم ـ وهو تغير رائحته ـ أطيب عند الله من ريح المسك لأنه سبب طيب الروح الذي هو عند الله من الإنسان كما أنه بدنه عند نفسه ، وإليه أشير في قوله تعالى : ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله يبقى﴾ ، وأين طيب الروح من طيب المسك ؟ فإن الأول روحاني عقلي معنوي والثاني جسماني حسي صوري.

فصل :

قال أبو حامد ما ملخصه : إعلم أن للصوم ثلاث درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص : أما « صوم العموم» فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوات.

وأما «صوم الخصوص» فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام ، ويتم بأمور ستة:

الأول : غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر الى كل ما يذم ويكره ، بل كل ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله تعالى . قال النبي ﷺ : النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، فمن تركها خوفاً من الله أتاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه . وقال ﷺ : خمس يفطرن الصائم : الكذب ، والغيبة ، والنميمة ، واليمين الكاذبة ، والنظر بشهوة.

الثاني : حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء . قال ﷺ : إنما الصوم جنة ، فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم .

الثالث: كف السمع عن الإصغاء إلى المحرمات، إذ كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه . قال تعالى : ﴿سماعون للكذب أكالون للسحت﴾ . وقال ﷺ : المغتاب والمستمع شريكان في الإثم .

الرابع : كف بقية الجوارح من اليد والرجل من المكاره ، وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار ، إذ لا معنى للصوم عن الحلال والإفطار على الحرام فيكون قد بنى قصراً وهدم مصراً ، وشرب الدواء وأكل السم ، لأن المحرمات سموم تهلك الدين والصوم دواء ، ولا ينفع الدواء مع السم . وقال النبي ﷺ : كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش . فقيل : هو الذي يفطر على الحرام . وقيل : هو الذي يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالغيبة وهو الحرام . وقيل : هو الذي لا يحفظ جوارحه عن الآثام ، ولعل المعنى أعم.

الخامس : أن لا يستكثر من الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلىء ، فما من وعاء أبغض إلى الله من بطن مليء من الحلال . وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى ، ثم تفطم عن الشهوات إلى الليل حتى تهيج شهوتها وتقوى رغبتها ، ثم تطعم من اللذات إلى أن تمتلىء ؟! ولعلها لو تركت على عادتها لكان أولى ، بل ينبغي أن يأكل الأكلة المعتادة ولا يملىء بطنه .

السادس : أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقاً مضطرباً بين الخوف والرجاء إذ ليس يدري أيقبل صومه فيكون من المقربين ، أو يرد عليه فيكون من الممقوتين.

أقول: وإلى هذا النوع من الصوم أشير في ما روي عن الصادق عليه السلام قال : إذا صمت فليصم سمعك وبصرك وشعرك وجلدك .. وعد أشياء غير

هـذا وقال : لا يكـون يوم صـومك كيـوم فطرك ، ودع المـراء وأذى الخادم ، وليكن عليـك وقار الصيـام ، فإن رسـول الله ﷺ سمع امـرأة تسب جاريتهـا وهي صائمة فـدعى بطعـام فقال لهـا كلي ، فقالت إني صـائمة ، فقـال كيف تكـونين صائمـة وقد سببت جـاريتك ؟! إن الصـوم ليس من الطعـام والشراب فقط .

قـال أبو حـامـد : وأمـا صـوم خصـوص الخصـوص فصـوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفـه عما سـوى الله بالكليـة ، ويحصل الفـطر في هـذا الصوم بـالفكر في ما سوى الله واليـوم الآخر ، وبـالفكر في الـدنيا إلا دنيا تراد للدين ، فإن ذلك زاد الآخرة ـ انتهى .

وفي مصبـاح الشـريعـة : قـال الصـادق عليه السلام : قـال رسـول الله ﷺ : الصـوم جنة ، أي ستـر من آفات الـدنيـا وحجـاب من عـذاب الآخـرة ، فـإذا صمت فـانوِ بصـومـك كف النفس عن الشهـوات وقـطع الهمـة عن خـطرات الشيطان ، فأنزل نفسك منـزلة المـرضى لا تشتهي طعامـاً ولا شرابـاً ، متوقعـاً في كل لحظة شفـاءك من مرض الـذنوب ، وطهـر باطنـك من كل كـدر وغفلة وظلمة تقطعك عن معنى الإخلاص لوجه الله تعالى .

ثم قـال : قال رسـول الله ﷺ : قال الله عـز وجـل : الصـوم لي وأنـا أجـزي به ، فـالصوم يميت مـواد النفس وشهوة الـطمـع ، وفيـه صفـاء القلب وطهـارة الجوارح وعمـارة الظاهـر والباطن والشكـر على النعم والإحسـان إلى الفقـراء وزيـادة التضـرع والخشـوع والبكـاء وحبـل الالتجـاء إلى الله ، وسبب انكســار الهمـة وتخفيف الحسـاب وتضعيف الحسنات . وفيـه من الفوائـد ما لا يحصى وكفى بما ذكرنا منبه لمن عقل ووفق لاستعماله .

الباب التاسع
في أسرار الحج وزيارة النبي والمشاهد

ولنفتتح الباب بما رواه في مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام.

قال : قال الصادق عليه السلام: إذا أردت الحج فجرد قلبك لله تعالى من كل شاغل وحجاب كل حاجب ، وفوض أمورك كلها إلى خالقك ، وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك ، وسلم لقضائه وحكمه وقدره ، وودع الدنيا والراحة والخلق ، وأخرج من حقوق تلزمك من جهة المخلوقين ، ولا تعتمد على زادك أو راحلتك وأصحابك وقوتك وشبابك ومالك مخافة أن يصير ذلك عدواً ووبالاً ، فإن من ادعى رضاء الله واعتمد على ما سواه صيره عليه وبالاً وعدواً ليعلم أنه ليس له قوة وحيلة ولا لأحد إلا بعصمة الله وتوفيقه.

فاستعد استعداد من لا يرجو الرجوع، وأحسن الصحبة ، وراع أوقات فرائض الله وسنن نبيه وما يجب عليك من الأدب والاحتمال والصبر والشكر والشفقة والسخاوة وإيثار الزاد على دوام الأوقات.

ثم اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك ، والبس كسوة الصدق والصفا والخضوع والخشوع ، وأحرم من كل شيء يمنعك عن ذكر الله ويحجبك عن طاعته ، ولب بمعنى إجابة صادقة صافية خالصة زاكية لله تعالى في دعوتك متمسكاً بالعروة الوثقى ، وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش

كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت ، وهرول هـرولة من هـواك ، وتبرأ من حـولك وقـوتك ، واخـرج من غفلتك وزلاتـك بخـروجـك إلى منى . ولا تتمن ما لا يحل لك ولا تستحقه ، واعتـرف بالخـطأ بعرفـات ، وجدد عهـدك عند الله تعالى بوحدانيته ، وتقرب إليـه واتقه بمـزدلفة ، واصعـد بروحـك إلى الملأ الأعلى بصعـودك على الجبـل ، واذبـح حنجـرة الهـوى والـطمـع عنـد الذبيحة ، وارم الشهوات والخساسة والدنـاءة والذميمـة عند رمي الجمـرات ، واحلق العيـوب الظاهـرة والباطنـة بحلق شعرك ، وادخـل في أمـان الله وكنفـه وستره وكلاءته من متابعة مرادك بدخولك الحرم ودخـول البيت متحققاً لتعـظيم صـاحبه ومعـرفة جـلاله وسلطانـه ، واستلم الحجـر رضـاً بقسمتـه وخضـوعـاً لعزته ، وودع ما سواه بطواف الوداع ، واصفـ روحك وسرك للقـائه يـوم تلقاه بوقوفـك على الصفا وكن بمـرأى من الله نقية أوصـافك عنـد المروة ، واستقم على شرط حجتك هـذه ووفاء عهـدك الذي عـاهدت بـه مع ربـك وأوجبته لـه إلى يوم القيامة .

واعلم بـأن الله تعالى لم يفـرض الحج ولم يخصـه من جميع الـطاعات بـالإضافـة إلى نفسه بقـوله تعـالى : ﴿ولله على الناس حـج البيت من استطاع إليـه سبيلا﴾ ، ولا شـرع نبيه سنـة في خلال المنـاسك على تـرتيب ما شـرعه إلا لـلاستعانـة والإشـارة إلى المـوت والقبـر والبعث والقيـامـة ، وفضـل بيـان السـابقة من الـدخول في الجنـة أهلها ودخـول النار أهلهـا بمشاهـدة منـاسـك الحج من أولها إلى آخرها لأولي الألباب وأولي النهى .

فصل : في العزم على الحج :

ينبغي للعـازم أن يعلم أنـه عـزم على أمـر رفيـع شـأنـه خـطيـر أمـره ، فليجعـل عزمـه خالصـاً لوجـه الله بعيداً عن الـرياء والسمعـة ، وإلا فقد أتلف مـاله وأتعب بـدنه واكتسب الإثم وخسـر الدنيـا والآخـرة وذلـك هـو الخسـران المبين ، وليـرد المظالم ويتب تـوبة خـالصة ، ولا يقـدم على ربه قـدوم العبد العاصي ، فلا يكون له من سفره نصيب إلا التعب.

وليتذكر في سفره سفر الآخرة ، فعن قريب إليه يصير ونحوه يسير .

فصل : في الزاد :

ليتذكر فيه زاد سفر الآخرة ، فإنه أبعد من هذا السفر والاحتياج فيه إلى الزاد من الأعمال الصالحة أكثر ، وليحذر أن تكون أعماله التي هي زاده لا تصحبه بعد الموت بل تفسدها شوائب الرياء.

فصل : في الراحلة :

ليشكر الله على تسخير الدواب له لتحمل أثقاله إلى بلد لم يكن بالغه إلا بشق الأنفس ، وليتذكر المركب الذي يركبه إلى الدار الآخرة ، وهي الجنازة التي يحمل عليها ، فالعجب لمن يستعد للسفر المشكوك فيه ولا يستعد للسفر المتيقن.

فصل : في شراء ثوب الاحرام :

ليذكر عنده الكفن ولفه فيه ، فإنه سيرتدي ويتزر بثوبي الإحرام عند القرب من بيت الله ، وربما لا يتم سفره إليه ، وإنه سيلقى الله ملفوفاً في ثياب الكفن لا محالة ، فكما لا يلقى بيت الله إلا مخالفاً عادته في الزي والهيئة فلا يلقى الله بعد الموت إلا في زي مخالف لزي الدنيا، وهذان الثوبان متقاربان لعدم الخياطة فيهما.

فصل : في الخروج من البلد :

ليعلم أنه فارق الأهل والوطن متوجهاً إلى الله في سفر لا يضاهي أسفار الدنيا ، فليحضر في قلبه ماذا يريد وأين يتوجه وزيارة من بقصد ، وسفر الآخرة ومفارقة الأهل والوطن مفارقة لا رجوع فيها.

فصل : في دخول البادية ومشاهدة العقبات :

ليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات القيامة وما بينهما من الأهوال والمطالبات ، وليتذكر من هول قطع الطريق سؤال منكر

ونكير ومن سباع البوادي عقارب القبر وديدانه وما فيه من الأفاعي والحيات، ومن انفراده عن أهله وأقاربه ووحشة القبر وكربته ووحدته، وليتزود في هذه الأحوال لمخاوف القبر.

فصل: في الاحرام والتلبية بالميقات:

ليعلم أن معناه إجابة نداء الله، فليرج القبول وليخش أن يقال له «لا لبيك ولا سعديك» فإن وقت التلبية بداية الأمر وهو محل الخطر، فقد روي أن السجاد ﷺ لما أحرم واستوت به راحلته اصفر لونه وانتفض ووقعت عليه الرعدة ولم يستطع أن يلبي فقال: أخشى أن يقول لي ربي لا لبيك ولا سعديك، فلما لبى ﷺ غشي عليه وسقط من راحلته، فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجته.

فصل: في دخول مكة:

ليتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم آمن، وليرج عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله، وليخش أن لا يكون أهلاً للقرب، فيكون بدخول الحرم خائناً مستحقاً للمقت، وليكن رجاؤه في جميع الأوقات غالباً، فالكرم عميم ورب البيت كريم، وحق الزائر يرعى وذمام المستجير غير مضيع.

فصل: في وقوع البصر على البيت:

ليحضر عظمة البيت في القلب ويقدر أنه حاضر بين يدي رب البيت، وليرجُ أن يرزقه لقاءه في الآخرة كما رزقه لقاء بيته في الدنيا، وليتذكر انصباب الناس في القيامة إلى جهة الجنة آملين لدخولها كافة فيؤذن لبعض ويمنع الآخرون.

فصل: في الطواف بالبيت:

ليعلم أنه في الطواف متشبه بالملائكة الحافين حول العرش الطائفين حوله، وأن المقصود الحقيقي طواف قلبه بذكر رب البيت حتى لا يبتدىء

الذكر إلا به ولا يختم إلا به كما يبتدىء الطائف بالبيت ويختم به.

فصل : في استلام الحجر :

ليعتقد أنه حينئذ يبايع الله على طاعته والتجنب عن معصيته ، فليصمم العزم على الوفاء ، ومن غدر في المبايعة استحق المقت ، فقد روي أن الحجر يمين الله في الأرض يصافح بها خلقه كما يصافح الرجل أخاه.

فصل : في التعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم :

لتكن نيته في الالتزام طلب القرب حباً وشوقاً للبيت ولرب البيت وتبركاً بالمماسة ورجاءً للتحصن عن النار في كل جزء لا في البيت ، ولتكن نيته في التعلق بالستر الإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان كالمذنب المتعلق بثياب من أذنب إليه المتضرع إليه في عفوه عنه المظهر له أنه لا ملجأ له منه إلا إليه ولا مفزع له إلا عفوه وكرمه ، وأنه لا يفارق ذيله إلا بالعفو وبذل الأمن في المستقبل.

فصل : في السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت :

ليتذكر أنه متردد تردد العبد في فناء ملك الملوك جائياً وذاهباً مرة بعد أخرى وكرة بعد أولى ، إظهاراً للخلوص في الخدمة ورجاءً للملاحظة بعين الرحمة ، كالذي دخل على الملك وخرج وهو لا يدري ما الذي يقضي به الملك في حقه من قبول أو رد ، فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى يرجو أن يرحم في الثانية إن لم يرحم في الأولى.

وليتذكر عند تردده تردده بين كفتي الميزان في عرصات القيامة ، وليمثل الصفا بكفة الحسنات والمروة بكفة السيئات ، وليتذكر تردده بين الكفتين ناظراً إلى الرجحان والنقصان مردداً بين العذاب والغفران.

فصل : في الوقوف بعرفة :

ليتذكر بما يرى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات واختلاف اللغات

واتباع الفرق أئمتهم في الترددات على المشاعر اقتفاءً لهم وسيراً بسيرتهم وكأنه في عرصات القيامة واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة، واقتفاء كل أمة نبياً وطمعهم في شفاعتهم وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول.

وإذا تذكرت ذلك فألزم قلبك الضراعة والابتهال إلى الله حتى تحشر في زمرة الفائزين المرحومين ، وحقق رجاءك بالإجابة ، فالموقف شريف .

فصل : في الوقوف بالمشعر :

استحضر أنه قد أقبل عليك مولاك بعد أن كان مدبراً عنك طارداً لك عن بابه فأذن لك في دخول حرمه ، فإن المشعر من جملة الحرم وعرفة خارجة عنه ، فقد أشرف على أبواب الرحمة وهبت عليك نسمات الرأفة ، وكسبت خلع القبول بالإذن في دخول حرم الملك.

فصل : في رمي الجمار :

ليقصد به الانقياد للأمر ، إظهاراً للرق والعبودية وانتهاضاً لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس ، وليقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس عليه اللعنة في هذا الموضع ليدخل على حجة الشبهة فأمره الله أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأصله.

فصل : في ذبح الهدي :

ليعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال ، وليرج أن يعتق بكل جزء منه جزءاً من النار ، وهكذا ورد الوعد ، وكلما كان الهدي أكثر وأجزاؤه أوفر كان فداؤه من النار أعم.

فصل : في رؤية المدينة :

إذا وقع بصرك على حيطانها فتذكر أنها البلدة التي اختارها الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم وجعل إليها هجرته وأنها داره التي فيها شرع فرائض ربه وسننه وجاهد عدوه وأظهر بها دينه إلى أن توفاه الله وجعل تربته فيها.

ثم مثل في نفسك مواقع أقدام رسول الله ﷺ عند ترداداتك فيها ، وأنه ما من موضع قدم تطؤه إلا وهي موضع قدمه العزيز ، فلا تضع قدمك عليه إلا على سكينة ووجل، وتذكر مشيه وتخطيه في سككها ، وتصور خشوعه ﷺ وسكينته في المشي وإحباط عمل من هتك حرمته برفع صوته فوق صوته.

فصل : في زيارة النبي والأئمة (عليهم السلام) :

ينبغي أن تقف بين أيديهم في كمال الأدب خاشعاً معظماً ، وأن تزورهم أمواتاً كما تزورهم أحياءً ، ولا تقرب من قبرهم إلا كما تقرب من شخصهم في حياتهم.

واعلم أنهم عالمون بحضورك وقيامك وزيارتك ، وأنه يبلغهم سلامك وصلواتك ، فمثل صورهم الكريمة في خيالك موضوعين على اللحد بإزائك ، وأحضر عظيم رتبتهم في قلبك ، وتذكر كلماتهم الشريفة ومواعظهم المنيفة ونصائحهم الشافية وهدايتهم الكافية الوافية.

الركن الثاني

في العبادات ، وفيه أبواب :

الباب الأول

في جملة الحقوق التي تلزم الإنسان :

روى الصدوق في الفقيه عن زين العابدين عليه السلام قال :

حق الله الأكبر أن تعبده لا تشرك به شيئاً ، فإذا فعلت ذلك بإخلاص جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة.

وحق نفسك عليك أن تستعملها بطاعة الله تعالى.

وحق اللسان إكرامه عن الخنا وتعويده الخير وترك الفضول التي لا فائدة فيها والبر بالناس وحسن القول فيهم.

وحق السمع تنزيهه عن سماع الغيبة وسماع ما لا يحل له سماعه .

وحق البصر أن تغضه عما لا يحل لك وتعتبر بالنظر به.

وحق يدك أن لا تبسطها إلى ما لا يحل لك.

وحق رجليك أن لا تمشي بهما إلى ما لا يحل لك فيهما تقف على الصراط فانظر أن لا تزل بك فتردى بهما في النار.

وحق بطنك أن لا تجعله وعاءً للحرام ولا تزيد على الشبع.

وحق فرجك أن تحصنه عن الزنا وتحفظه من أن ينظر إليه.

وحق الصلاة أن تعلم أنها وفادة إلى الله عز وجل وأنت فيها قائم بين يدي الله تعالى ، فإذا علمت ذلك قمت مقام العبد الذليل الحقير الراغب الراهب الراجي الخائف المستكين المتضرع المعظِّم لمن كان بين يديه بالسكون والوقار ، وتقبل عليها بقلبك وتقيمها بحدودها وحقوقها.

وحق الحج أن تعلم أنه وفادة إلى ربك وفرار إليه من ذنوبك ، وفيه قبول توبتك وقضاء الفرض الذي أوجبه الله تعالى عليك.

وحق الصوم أن تعلم أنه حجاب ضربه الله عز وجل على لسانك وسمعك وبصرك وبطنك وفرجك ليسترك به من النار ، فإن تركت الصوم خرقت ستر الله عليك.

وحق الصدقة أن تعلم أنها ذخرك عند ربك ووديعتك التي لا يحتاج إلى الإشهاد عليها ، وكنت لما تستودعه سراً أوثق منك بما تستودعه علانية ، وتعلم أنها تدفع البلاء والأسقام في الدنيا وتدفع عنك النار في الآخرة.

وحق الهدي أن تريد به الله عز وجل ولا تريد به خلقه ، ولا تريد به إلا التعرض لرحمة الله ونجاة روحك يوم تلقاه.

وحق السلطان أن تعلم أنك جعلت له فتنة، وأنه مبتلىً فيك بما جعله الله له عليك من السلطان ، وأن عليك أن لا تتعرض لسخطه فتلقى بيدك إلى التهلكة وتكون شريكاً له فيما يأتي إليك من سوء.

وحق سائسك بالعلم التعظيم له والتوقير لمجلسه ، وحسن الاستماع إليه والإقبال إليه ، وأن لا ترفع عليه صوتك ، ولا تجيب أحداً يسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يجيب ، ولا تحدث في مجلسه أحداً ، ولا تغتاب عنده أحداً ، وأن تدفع عنه إذا ذكر عندك بسوء ، وأن تستر عيوبه وتظهر مناقبه ، ولا تجالس له عدواً ولا تعادي له ولياً ، فإذا فعلت ذلك شهد لك ملائكة الله بأنك قصدته وتعلمت علمه لله جل اسمه لا للناس.

وأما حق سائسك بالملك فأن تطيعه ولا تعصيه إلا فيما يسخط الله عز

وجل ، فإنه لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق.

وأما حق رعيتك بالسلطان فأن تعلم أنهم صاروا رعيتك لضعفهم وقوتك ، فيجب أن تعدل فيهم وتكون لهم كالوالد الرحيم ، وتغفر لهم جهلهم ولا تعاجلهم بالعقوبة ، وتشكر الله عز وجل على ما آتاك من القوة عليهم.

وأما حق رعيتك بالعلم فأن تعلم أن الله عز وجل إنما جعلك قيماً لهم في ما آتاك من العلم وفتح لك من خزائنه فإن أحسنت في تعليم الناس ولم تخرق بهم ولم تضجر عليهم زادك الله من فضله ، وإن أنت منعت الناس علمك أو خرقت بهم عند طلبهم العلم منك كان حقاً على الله عز وجل أن يسلبك العلم وبهاءه ويسقط من القلوب محلك.

وأما حق الزوجة فأن تعلم أن الله تعالى جعلها لك سكناً وأنساً ، فتعلم أن ذلك نعمة من الله تعالى عليك ، فتكرمها وترفق بها وإن كان حقك عليها أوجب ، فإن لها عليك أن ترحمها لأنها أسيرك ،وتطعمها وتكسوها وإذا جهلتْ عفوت عنها.

وأما حق مملوكك فأن تعلم أنه خلق ربك وابن أبيك وأمك ولحمك ودمك ، لم تملكه لأنك ما صنعته دون الله ولا خلقت شيئاً من جوارحه ولا أخرجت له رزقاً ، ولكن الله تعالى كفاك ذلك ثم سخره لك وائتمنك عليه واستودعك إياه ليحفظ لك ما يأتيه من خير إليه ، فأحسن إليه كما أحسن الله إليك ، وإن كرهته استبدلت به ولم تعذب خلق الله تعالى . ولا قوة إلا بالله .

وحق أمك أن تعلم أنها حملت حيث لا يحتمل أحد أحداً ، وأعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطي أحد أحداً ، ووقتك بجميع جوارحها ، ولم تبال أن تجوع وتطعمك وتعطش وتسقيك وتعرى وتكسوك وتضحى وتظللك ، وتهجر النوم لأجلك ، ووقتك الحر والبرد لتكون لها ، فإنك لا تطيق شكرها إلا بعون الله وتوفيقه.

وأما حق أبيك فأن تعلم أنه أصلك ، فإنك لولاه لم تكن مهما رأيت من نفسك ما يعجبك فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه ، فاحمد الله واشكره على قدر ذلك.

وأما حق ولدك فأن تعلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره، وأنك مسؤول عما وليته من حسن الأدب والدلالة على ربه عز وجل والمعونة على طاعته ، فاعمل في أمره عمل من يعلم أنه مثاب على الإحسان إليه معاقب على الإساءة إليه.

وأما حق أخيك فأن تعلم أنه يدك وعزك وقوتك فلا تتخذه سلاحاً على معصية الله ولا عدة للظلم على خلق الله ، ولا تدع نصرته على عدوه والنصيحة له ، فإن أطاع الله وإلا فليكن الله أكرم عليك منه.

وأما حق مولاك المنعم عليك فأن تعلم أنه أنفق فيك ماله وأخرجك من ذل الرق ووحشته إلى عز الحرية وأنسها فأطلقك من أسر الملكة وفك عنك قيد العبودية وأخرجك من السجن وملكك نفسك وفرغك لعبادة ربك ، وتعلم أنه أولى الخلق بك في حياتك ومودتك ، وأن نصرته عليك واجبة بنفسك وما احتاج إليه منك.

وأما حق مولاك الذي أنعمت عليه فأن تعلم أن الله عز وجل جعل عتقك له وسيلة إليه وحجاباً لك من النار ، وأن ثوابك في العاجل ميراثه إذا لم يكن له رحم مكافأة لما أنفقت من مالك وفي الآجل الجنة.

وأما حق ذي المعروف عليك فأن تشكره وتذكر معروفه وتكسبه المقالة الحسنة ، وتخلص له الدعاء فيما بينك وبين الله تعالى ، فإذا فعلت ذلك كنت قد شكرته سراً وعلانية ، ثم إن قدرت على مكافأته يوماً كافأته.

وحق المؤذن أن تعلم أنه مذكر لك ربك عز وجل وداع لك إلى حظك وعونك على قضاء فرض الله عليك ، فاشكره على ذلك شكر المحسنين إليك.

وأما حق إمامك في صلاتك فأن تعلم أنه تقلد السفارة بينك وبين ربك عز وجل وتكلم عنك ولم تتكلم عنه ، ودعا لك ولم تدع له. وكفاك هول المقام بين يدي الله عز وجل ، فإن كان نقص كان به دونك وإن كان تماماً كنت شريكه ، ولم يكن له عليك فضل فوقى نفسك بنفسه وصلاتك بصلاته ، فتشكر له على قدر ذلك.

وأما حق جليسك فأن تلين له جانبك وتنصفه في مجازاة اللفظ ولا تقوم من مجلسك إلا بإذنه ، ومن يجلس إليك يجوز له القيام عنك بغير إذنك ، وتنسى زلاته وتحفظ خيراته ولا تسمعه إلا خيراً.

وأما حق جارك فحفظه غائباً وإكرامه شاهداً ونصرته إذا كان مظلوماً ، ولا تتبع له عورة ، فإن علمت عليه سوءً سترته عليه، وإن علمت أنه يقبل نصيحتك نصحته فيما بينك وبينه ، ولا تسلمه عند شديدة ، وتقيل عثرته وتغفر ذنبه وتعاشره معاشرة كريمة.

وأما حق الصاحب فأن تصحبه بالتفضل والإنصاف وتكرمه كما يكرمك ، ولا تدعه يسبق إلى مكرمة فإن سبق كافأته ، وتوده كما يودك ، وتزجره عما يهم به من معصية ، وكن عليه رحمة ولا تكن عليه عذاباً .

وأما حق الشريك فإن غاب كفيته وإن حضر رعيته ، ولا تحكم دون حكمه ولا تعمل برأيك دون مناظرته . وتحفظ عليه ماله ولا تخنه فيما غر أو خان من أمره ، فإن يد الله تعالى على الشريكين ما لم يتخاونا.

وأما حق مالك فأن لا تأخذه إلا من حله ولا تنفقه إلا في وجهه ، ولا تؤثر على نفسك من لا يحمدك فاعمل به بطاعة ربك ، ولا تبخل به فتبوء بالحسرة والندامة والتبعة.

وأما حق غريمك الذي يطلبك فإن كنت موسراً أعطيته ، وإن كنت معسراً أرضيته بحسن القول ورددته عن نفسك رداً لطيفاً .

وحق الخليط أن لا تغره ولا تغشه ولا تخدعه وتتقي الله في أمره.

وحق الخصم المدعي عليك فإن كان ما يدعي عليك حقاً كنت شاهده على نفسك ولم تظلمه وأوفيته حقه ، وإن كان ما يدعي باطلاً رفقت به ولم تأت به في أمره غير الرفق ولم تسخط ربك.

وحق خصمك الذي تدعي عليه إن كنت محقاً في دعواك أجملت مقاولته ولم تجحد حقه ، وإن كنت مبطلاً في دعواك اتقيت الله عز وجل وتبت إليه وتركت الدعوى.

وحق المستشير إن علمت له رأياً حسناً أشرت عليه ، وإن لم تعلم أرشدته إلى من يعلم.

وحق المشير عليك أن لا تتهمه في ما لا يوافقك من رأيه ، وإن وافقك حمدت الله تعالى.

وحق المستنصح أن تؤدي إليه النصيحة ، وليكن مذهبك الرحمة له والرفق به.

وحق الناصح أن تلين له جناحك وتصغي إليه بسمعك ، فإن أتى بالصواب حمدت الله تعالى وإن لم يوفق رحمته ولم تتهمه وعلمت أنه أخطأ ولم تؤاخذه بذلك إلا أن يكون مستحقاً للتهمة فلا تعبأ بشيء من أمره على حال.

وحق الكبير توقيره لسنه وإجلاله لتقدمه في الإسلام قبلك وترك مقابلته عند الخصام ، ولا تسبقه إلى طريق ولا تتقدمه ولا تستجهله ، وإن جهل عليك احتملته وأكرمته لحق الإسلام وحرمته.

وحق الصغير رحمته في تعليمه والعفو عنه والستر عليه والرفق به والمعونة.

وحق السائل إعطاؤه على قدر حاجته.

وحق المسؤول إن أعطى فاقبل منه بالشكر والمعرفة بفضله ، وإن منع فاقبل عذره.

وحق من سرك لله أن تحمد الله تعالى أولاً ثم تشكره.

وحق من أساءك أن تعفو عنه ، وإن علمت أن العفو يضر انتصرت . قال الله تعالى : ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾.

وحق أهل ملتك إضمار السلامة والرحمة لهم والرفق بمسيئهم وتألفهم واستصلاحهم وشكر محسنهم وكف الأذى عنهم ، وتحب لهم ما تحب لنفسك وتكره لهم ما تكره لنفسك ، وأن يكون شيوخهم بمنزلة أبيك وشبابهم بمنزلة إخوتك وعجائزهم بمنزلة أمك والصغار بمنزلة أولادك.

وأما حق أهل الذمة أن تقبل منهم ما قبل الله عز وجل منهم ولا تظلمهم ما وفوا لله عز وجل بعهده.

الباب الثاني

في آداب المعيشة والمجالسة مع أصناف الخلق إجمالاً ، ملتقطة من كلام الحكماء وأخبار أهل البيت عليهم السلام

إذا أردت حسن المعيشة فالق صديقك وعدوك بوجه الرضا من غير ذلة لهم ولا وحشة منهم .

وتوقر في غير كبر وتواضع في غير مذلة .

وكن في جميع أمورك في أوسطها ، فكلا طرفي قصد الأمور ذميم .

ولا تنظر في عطفيك ، ولا تكثر الالتفات ، ولا تقف على الجماعات وإذا جلست فلا تستوفز[1] .

وتحفظ من تشبيك أصابعك ، والعبث بلحيتك وخاتمك ، وتخليل أسنانك وإدخال يدك في أنفك ، وكثرة بصاقك وتنخمك ، وطرد الذباب عن وجهك ، وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة وفي غيرها .

وليكن مجلسك هادئاً ، وحديثك منظوماً مرتباً ، واصغ إلى الكلام الحسن ممن حدثك بغير إظهار تعجب مفرط ، ولا تسأله إعادته .

---

(١) المستوفز : الذي ينتصب في جلسته ويضع إليتيه على قدميه .

واسكت عن المضاحك والحكايات ، ولا تحدث عن إعجابك بولدك ولا جاريتك ولا شعرك وتصنيفك وسائر ما يخصك.

ولا تتصنع تصنع المرأة في التزيين ولا تتبذل تبذل العبيد ، وتوق كثرة الكحل والإسراف في الدهن ، ولا تلح في الحاجات ، ولا تشجع أحداً على الظلم.

ولا تعلم أهلك وولدك فضلاً عن غيرهم مقدار مالك ، فإنهم إن رأوه قليلاً هنت عندهم ، وإن كان كثيراً لم تبلغ قط رضاهم ، واجفهم من غير عنف ، ولن لهم من غير ضعف.

ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك ، وإذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك ، وتفكر في حجتك ، ولا تكثر من الإشارة بيديك ، ولا تكثر الالتفات إلى من وراءك.

ولا تجث على ركبتيك ، وإذا هدأ غيظك فتكلم ، وإن قربك سلطان فكن منه على حد السنان ، وإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك ، وارفق به رفقك بالصبي ، وكلمه بما يشتهيه ولا يحملنّك لطفه بك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وجيشه وإن كنت لذلك مستحقاً عنده ، فإن سقطة الداخل بين الملك وأهله سقطة لا تنعش وزلة لا تقال.

وإياك وصديق العافية ، فإنه أعدى الأعداء ، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك ، وإذا دخلت مجلساً فالأدب البداية بالتسليم وترك التخطي لمن سبق والجلوس حيث تسعى وحيث يكون أقرب إلى التواضع ، وأن تحيي بالسلام من قرب منك عند الجلوس ، ولا تجلس على الطريق ، وإن جلست فأدبه غض البصر ، ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وعون الضعيف وإرشاد الضال ورد السلام وإعطاء السائل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والارتياد لموضع البصاق ، فلا تبصق عن جهة القبلة ولا عن يمينك ولكن عن يسارك وتحت قدمك اليسرى.

ولا تجالس الملوك ، فإن فعلت فأدبه ترك الغيبة ومجانبة الكذب

وصيانة السر وقلة الحوائج وتهذيب الألفاظ والإعراب في الخطاب ، والمذاكرة بأخلاق الملوك وقلة المداعبة وكثرة الحذر منهم وإن ظهرت المودة ، وأن لا يتجشأ[1] بحضرته ولا يتخلل بعد الأكل عنده.

وعلى الملك أن يتحمل كل شيء إلا إفشاء السر والقدح في الملك والتعرض للحرم.

ولا تجالس العامة ، فإن فعلت فأدبه ترك الخوض في حديثهم ، وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم ، والتغافل عما يجري في سوء ألفاظهم ، وقلة اللقاء لهم مع الحاجة إليهم.

وإياك وأن تمازح لبيباً أو غير لبيب ، فإن اللبيب يحقد عليك والسفيه يجترىء عليك ، لأن المزاح يخرق الهيبة ، ويسقط ماء الوجه ، ويعقب الحقد ، ويذهب بحلاوة الود ،ويشين فقه الفقيه ويجرىء السفيه، ويسقط المنزلة عند الحكيم ، ويمقته المتقون . وهو يميت القلب ، ويباعد عن الرب ، ويكسب الغفلة ، ويورث الذلة ، وبه تظلم السرائر وتموت الخواطر ، وبه تكثر العيوب وتبين الذنوب . وقد قيل : لا يكون المزاح إلا من سخف أو بطر ، ومن بلي في مجلس بمزاح أو لفظ فليذكر الله تعالى عند قيامه . قال النبي ﷺ : من جلس في مجلس وكثر فيه لفظه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك» غفر له ما كان في مجلسه ذلك.

---

(١) تجشأ: هو الصوت من الفم يكون عند الشبع.

الباب الثالث
في الإخاء والإلفة

قال تعالى في معرض الامتنان : ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾.

وقال تعالى : ﴿فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾ يعني بالإلفة.

ثم ذم التفرقة وزجر عنها فقال : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾.

وقال : ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا﴾.

وقال النبي ﷺ : من أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً ، إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه.

وقال ﷺ : من آخى أخاً في الله رفع الله له درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : أعجز الناس من عجز عن اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به.

وقال النبي ﷺ : أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله والتولي لأولياء الله والتبري من أعداء الله.

وقال الباقر عليه السلام: إذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً فانظر إلى قلبك ، فإن كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خير والله يحبك ، وإذا كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك ، والمرء مع من أحب.

وتحقيق المقام في بيان الحب والبغض في الله : إن الصحبة تنقسم إلى ما يقع بالاتفاق ـ كالصحبة بحسب الجوار وبحسب الاجتماع في مدرسة أو سوق أو سفر أو على باب السلطان أو غير ذلك ـ وإلى ما ينشأ اختياراً أو يقصد ، وهو الذي يبعث على الأخوة في الدين ، إذ لا ثواب إلا على الأفعال الاختيارية.

والصحبة عبارة عن المجالسة والمخالطة والمجاورة ، وهذه الأمور لا يقصد بها الإنسان غيره إلا إذا أحبه ، فإن غير المحبوب يجتنب ويباعد ولا تقصد مخالطته.

والمحبوب إما أن يحب لذاته ، وإما أن يحب ليتوصل به إلى مقصود آخر وراءه ، وذلك المقصود إما أن يكون مقصوراً على الدنيا وحظوظها ، وإما أن يكون متعلقاً بالآخرة ، وإما أن يكون متعلقاً بالله تعالى . فهذه أربعة أقسام :

القسم الأول : وهو حبك الإنسان لذاته ، وهو ممكن أن يكون هو في ذاته محبوباً عندك على معنى أنك تلتذ برؤيته ومعيته ومشاهدة أخلاقه لاستحسانك له ، فإن كل جميل لذيذ في حق من أدرك جماله ، وكل لذيذ محبوب ، واللذة تتبع الاستحسان ، والاستحسان يتبع الملاءمة والمناسبة والموافقة بين الطباع.

ثم ذلك المستحسن إما أن يكون الصورة الظاهرة ـ أي الخلقة ـ وإما أن يكون الصورة الباطنة ، وهي كمال العقل وحسن الخلق ، ويتبع حسن الأخلاق حسن الأفعال لا محالة ، ويتبع كمال العقل غزارة العلم ، وكل ذلك مستحسن عند ذي الطبع السليم والعقل المستقيم . وكل مستحسن

مستلذ بـه ومحبوب ، بـل في ائتلاف القلوب أمـر أغمض من هذا ، فـإنه قـد تستحكم المـودة بين شخصين من غيـر مـلاحـة في صـورة وحسن في خلق وخلق ، ولكن بمناسبة باطنـة تـوجب الإلفة والمـوافقـة ، فـإن شبـه الشيء ينجذب إليه بالطبـع ، والأشباه البـاطنة خفيـة ولها أسبـاب دقيقة ليس في قـوة البشـر الاطـلاع عليهـا ، وعنـه عبـر رسـول الله ﷺ بقـولـه : الأرواح جنـود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف . فالتناكر نتيجة التباين ، والائتلاف نتيجة التناسب الذي عبر عنه بالتعارف.

ويـدخـل في هـذا القسم المحبـة للجمـال إذا لم يكن المقصـود قضـاء الشهـوة وهذا الحب لا يـدخل فيـه الحب لله ، بل هـو الحب بالـطبع وشهـوة النفس ، وهو إن اتصل به غرض مذموم صار مذموماً وإلا فهو مباح.

القسم الثـاني : أن يحبه لينـال من ذاتـه غيـر ذاتـه ، فيكـون وسيلة إلى محبـوب غيـره ، والـوسيلة إلى المحبـوب محبـوب ، ولـذلـك يحب النـاس الـذهب والفضة من حيث إنهمـا وسيلة إلى المقاصـد ، وهـو إن كـان لفـائـدة دنيوية لم يكن من جملة الحب في الله ، ثم ينقسم ذلك إلى مذموم ومباح.

القسم الثـالث : أن يحبه لا لـذاته بـل لغيره ، وذلـك الغير غيـر راجـع إلى حظوظه في الدنيا بل يرجـع إلى حظوظـه في الآخرة ، كمن يحب أستـاذه وشيخـه لأن يتـوسـل بـه إلى تحصيـل العلم وتحسين العمـل ، ومقصـوده من العلم والعمـل الفوز في الآخـرة ، فهذا من جملة المحبين لله ، وكـذلـك من يحب تلميذه لأنه يتلقف منه العلم وينال بـواسطتـه رتبة التعليم ويتـرقى به إلى درجـة التعظيم في ملكـوت السماء . قـال عيسى عليه السلام: من علم وعمل وعلّم فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماء .

ولا يتم التعليم إلا بمتعلم ، فهـو إذاً آلـة في تحصيـل هـذا الكمـال ، فإن أحبه لأنه آلة له إذ جعل صدره مزرعة لحرثه فهو محب لله.

بـل نزيـد ونقـول : من يجمـع الضيفـان ويهيء لهم الأطعمـة اللذيـذة تقرباً إلى الله فـأحب طباخـاً لحسن صنعته في الـطبخ فهـو من جملة المحبين

في الله ، وكـذا لو أحب من يتـولى لـه إيصـال الصـدقـة إلى المستحقين فقـد أحبه في الله .

بـل نـزيـد على هـذا ونقـول : من أحب من يخـدمـه في غسـل ثيـابـه وكنـس بيتـه وطبـخ طعـامـه لتفـرغـه بـذلـك للعلم والعمـل ، ومقصوده من استخدامه في هذه الأعمال الفراغ للعبادة فهو محب في الله .

القسم الـرابـع : أن يحب في الله ولله لا لينـال منـه علمـاً أو عمـلاً أو يتوسل بـه إلى أمر وراء ذاتـه ، وهذا أعلى الدرجـات وأعظمهـا ، وهذا القسم أيضاً ممكن فإن من آثـار غلبة الحب أن يتعـدى إلى كل من يتعلق بـالمحبوب ويناسبه ولو من بعد ، فمنْ أحب إنساناً حباً شديداً أحب محب ذلك الإنسان وأحب محبـوبـه وأحب من يخـدمـه وأحب من يثني عليـه محبـوبـه وأحب من يتسارع إلى رضا محبوبه ، وكذلك من أحب الله تعـالى أحب أحباءه . ويـأتي الكلام في محبة الله إن شاء الله تعالى .

ويلزم المحب في الله أن يبغض في الله ، فـإذا أحببت إنسـانـاً من حيث إنه مطيع لله تعالى فـإذا عصى ربه فـلا بد أن تبغضـه لأنه عاصٍ لـلّه وممقوت عند الله .

روي أن الله تعـالى أوحى إلى نبي من الأنبياء : أمـا زهـدك في الـدنيـا فقد تعجلت الراحة ، وأما انقطاعك إلي فقـد تعززت بي ، ولكن هـل عاديت فيَّ عدواً أو واليت فيَّ ولياً ؟! .

الباب الرابع
في تقسيم الاخوان والأصدقاء

روي عن الباقر عليه السلام قال : قام رجل بالبصرة فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الإخوان ؟ فقال عليه السلام : الإخوان صنفان : إخوان الثقة ، وإخوان المكاشرة. فأما إخوان الثقة فهم الكهف والجناح والأهل والمال، فإذا كنت من أخيك على حد الثقة فابذل له مالك وبدنك وصاف من صافاه وعادِ من عاداه واكتم سره وعيبه وأظهر منه الحسن ، واعلم أيها السائل أنهم أقل من الكبريت الأحمر . وأما إخوان المكاشرة فإنك تصيب لذتك منهم فلا تقطعن ذلك منهم ، ولا تطلبن ما وراء ذلك عن ضميرهم ، وابذل لهم ما بذلوا من طلاقة الوجه وحلاوة اللسان.

وعن الصادق عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : لا عليك أن تصحب ذا العقل ، وإن لم تحمد كرمه ، ولكن انتفع بعقله واحترس من سيء أخلاقه ، ولا تدعن صحبة الكريم فإن لم تنتفع بعقله ولكن انتفع بكرمه بعقلك وفرّ كل الفرار من اللئيم الأحمق.

وقال الصادق عليه السلام : عليك بالتلاد ، وإياك وكل محدث لا عهد له ولا أمان ولا ذمة ولا ميثاق ، وكن على حذر من أوثق الناس في نفسك ، فإن الناس أعداء النعم.

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام : لا تكون الصداقة إلا بحدودها ، فمن

كانت فيه هـذه الحدود أو شيء منهـا فانسبـه إلى الصداقـة ، ومن لم يكن فيه شيء منهـا فـلا تنسبـه إلى شيء من الصـداقـة : فـأولهـا أن تكـون سـريـرتـه وعلانيته لك واحدة ، والثـانية أن يـرى زينك زينـه وشينك شينـه ، والثالثـة أن لا تغيـره عليك ولايـة ولا مال ، والـرابعة أن لا يمنعـك شيئاً تنـاله مقـدرتـه ، والخامسة ـ وهي تجمع هذه الخصال ـ أن لا يسلمك عند النكبات.

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : قد قـل ثلاثـة أشياء في كـل زمـان : الإخـاء في الله ، والـزوجـة الصـالحـة الأليفـة في دين الله ، والـولـد الرشيد . ومن أصـــاب أحد الثـلاثة فقـد أصاب خيـر الدارين والحظ الأوفـر في الدنيا.

واحـذر أن تؤاخي من أرادك لطمـع أو خوف أو قتـل أو أكل أو شـرب ، واطلب مؤاخـاة الأتقيـاء وفي ظلمـات الأرض ولـو أفنيت عمـرك في طلبهم ، فـإن الله عز وجـل لم يخلق على وجه الأرض أفضـل منهم بعـد النبيين ، ومـا أنعم الله على العبـد بمثـل مـا أنعم بـه من التـوفيق لصحبتهم . قـال الله تعالى : ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾.

الباب الخامس
في حقوق الأخوة والصحبة

وهي في المال والنفس واللسان والقلب بالعفو والدعاء والإخلاص والوفاء والتخفيف وترك التكلف والتكليف، وتجمعها ثمانية أمور:

الأول : المال ، وله مراتب ثلاث:

أولها : وهي أدناها أن تنزله منزلة عبدك وخادمك في القيام بحوائجه وأموره من دون أن تحوجه إلى سؤال.

الثانية : وهي أوسطها أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك.

الثالثة : وهي أعلاها أن تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك ، قال تعالى : ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ وقال السجاد عليه السلام لرجل : هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه وكيسه فيأخذ منه ما يريد من غير إذن ؟ قال : لا . قال : فلستم بإخوان.

الثاني : في الإعانة بالنفس في قضاء حاجاته والقيام بها قبل السؤال وهذه أيضاً لها درجات : أدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة مع البشاشة . وعن الصادق عليه السلام قال : إني لأتسارع إلى قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردهم فيستغنون عني . هذا في الأعداء فكيف في الأصدقاء .

الثالث والرابع : على اللسان بالسكوت عن ذكر عيوبه في حضرته وغيبته والمماراة والمنافسة معه إلا في الله ، وعن أسراره التي تنهى إليه ولو بعد القطيعة ، فإن ذلك من لؤم الطبع ، وأن يسكت عن القدح في أحبائه وأهله وولده ، وعن حكاية قدح غيره فيه ، فإن الذي سبك من بلغك ، وبالنطق بإظهار التودد والتفقد والدعاء والثناء ، وينصحه ويخوفه إذا ارتكب حراماً وينبهه على عيوبه ، ويقبح القبيح في عينه ويحسن الحسن.

قال ﷺ : المؤمن مرآة المؤمن - أي يرى منه ما لا يرى من نفسه ، كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة.

الخامس : العفو عن زلاته وهفواته ، وهفوته إن كانت في الدين نصحته وأرشدته ، وإن كانت لتقصير في الأخوة عفوت عنه ولا تعاقبه ، وإذا اعتذر إليك فاقبل عذره . قال النبي ﷺ : من اعتذر إليه أخوه فلم يقبل فعليه مثل إثم صاحب المكس.

السادس : الدعاء له في حياته ومماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله ، ولا تفرق بين نفسك وبينه ، فإن دعاءك له دعاء لنفسك . قال النبي ﷺ : إذا دعا رجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك: ولك مثل ذلك.

وعن الباقر عليه السلام في قوله تعالى ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله﴾ قال : هو المؤمن يدعو لأخيه بظهر الغيب ، فتقول له الملائكة : آمين . ويقول الله العزيز الجبار : ولك مثل ما سألت ، ولقد أعطيت ما سألت بحبك إياه .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : مثل الميت في قبره مثل الغريق يتعلق بكل شيء ، ينتظر دعوة من ولد أو والد أو أخ أو قريب ، وإنه ليدخل على قبور الأموات من دعاء الأحياء من الأنوار مثل الجبال.

السابع : الوفاء والإخلاص ، والوفاء هو الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه ، فإن الحب إنما يراد للآخرة ، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي ، ولذلك قيل :

«قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثير الوفاء في حال الحياة».

وروي أنه ﷺ أكرم عجوزاً دخلت عليه ، فقيل له في ذلك فقال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة.

ومن الوفاء مراعاة جميع أقاربه وأصدقائه ، وأن لا يتغير حاله في التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته ، وأن لا يصادق أعداءه .

الثامن : التخفيف وترك التكليف ، وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشق عليه ، ولا يستمد منه من جاه ولا مال ، ولا يكلفه التواضع له والتفقد والقيام بحقوقه ، بل لا يقصد بمحبته إلا الله تبارك وتعالى تبركاً بدعائه واستئناساً بلقائه.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: شر الأصدقاء من تكلف لك ، ومن أحوجك إلى مداراة ، وألجأك إلى اعتذار.

وعن الصادق عليه السلام قال : أثقل إخواني عليَّ من يتكلف لي وأتحفظ منهم ، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي.

الباب السادس
في حقوق المسلم والمؤمن

وهي أمور :

الأول : أن يحب للكافة ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه .

قال الصادق ﷺ: إنما المؤمنون إخوة بنو أب وأم ، وإذا ضرب على رجل منهم عرق سهر له الآخرون.

وقال ﷺ: المؤمن أخو المؤمن كالجسد الواحد ، إن اشتكى شيئاً منه وجد ألم ذلك في سائر جسده ، وأرواحهما من روح واحدة ـ الحديث.

وقال ﷺ المؤمنون خدم بعضهم لبعض ، قال : يفيد بعضهم بعضاً ـ الحديث.

وفي الصحيح عنه ﷺ قال لأصحابه : اتقوا الله ، وكونوا إخوة بررة متحابين في الله متواصلين متراحمين ، تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا أمرنا.

الثاني : أن لا يؤذي أحداً من المسلمين بقول أو فعل . قال النبي ﷺ : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

وقال ﷺ : أتدرون من المسلم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . فقال : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده . قالوا : فمن المؤمن ؟ قال :

من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم . قالوا : فمن المهاجر ؟ قال : من هجر الشر واجتنبه .

وعن الباقر عليه السلام قال : ألا أنبئكم بالمؤمن ؟ من ائتمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم . ألا أنبئكم بالمسلم ؟ من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر السيئات وترك ما حرم الله ، والمؤمن حرام على المؤمن أن يظلمه أو يخذله أو يغتابه أو يدفعه دفعة .

الثالث : أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه ، فإن الله لا يحب كل مختال فخور . وقال صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله أوحى إلي : أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ثم إن تفاخر عليه غيره فليحتمل ، فقد قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ .

وقال الصادق عليه السلام : إن في السماء ملكين موكلين بالعباد ، فمن تواضع لله رفعاه ، ومن تكبر وضعاه .

وفي حديث حسن أن علي بن الحسين عليه السلام مرَّ على المجذومين وهو راكب حماره وهم يتغدون ، فدعوه إلى الغداء فقال : أما لولا أني صائم لفعلت ، فلما صار إلى منزله أمر بطعام فصنع وأمر أن يتنوقوا فيه ، ثم دعاهم فتغدوا عنده وتغدى معهم .

الرابع : أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ، ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض . قال صلى الله عليه وآله وسلم : لا يدخل الجنة قتات[1] .

وفي الصحيح عن الباقر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا معشر من أسلم بلسانه ولم يسلم بقلبه لا تتبعوا عثرات المسلمين ، فمن تتبع عثرات المسلمين تتبع الله عثراته ، ومن تتبع الله عثراته يفضحه .

وفي الموثق عنه عليه السلام قال : أقرب ما يكون العبد إلى الكفر أن يؤاخي الرجل الرجل على الدين فيحصي عليه زلاته ليعيره بها يوماً .

---

(١) هو النمام : من قتّ الحديث أشاعه بين الناس.

وعنه عليه السلام قال : من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروته ليسقط من أعين الناس أخرجه الله تعالى من ولايته إلى ولاية الشيطان ، فلا يقبله الشيطان.

الخامس : أن لا يزيد في الهجرة لمن يعرفه أكثر من ثلاثة أيام مهما غضب عليه . قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهم الذي يبدأ بالسلام.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : من أقال مسلماً عثرته أقاله الله يوم القيامة.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : أيما مسلمين تهاجرا فمكثا ثلاثاً لا يصطلحان إلا كانا خارجين من الإسلام ولم يكن بينهما ولاية ، وأيهما سبق إلى كلام صاحبه كان السابق إلى الجنة يوم الحساب.

وعنه عليه السلام قال : لا يزال إبليس فرحاً ما تهاجر المسلمان ، فإذا التقيا اصطكت ركبتاه وتخلعت أوصاله ونادى يا ويله ما لقي من الثبور.

السادس : أن يحسن إلى كل من قدر منهم إن استطاع ، فعن السجاد عن آبائه عن جده عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إصنع المعروف إلى أهله فإن لم تصب أهله فأنت أهله .

وفي رواية عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس ، واصطناع المعروف الى كل بر وفاجر.

وقال الباقر عليه السلام من خالطت فإن استطعت أن تكون يدك العليا عليهم فافعل.

السابع : أن لا يدخل على أحد إلا بإذنه ، بل يستأذن ثلاثاً فإن أذن له وإلا انصرف ، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يسلم ثلاثاً فإن أذن له وإلا انصرف.

الثامن : أن يخالط الجميع بخلق حسن ويعاملهم بحسن طريقته ، فإنه إذا أراد لقاء الجاهل بالعلم واللاهي بالفقه والغبي بالبيان أذى وتأذى .

قال الصادق عليه السلام: خالقوا الناس بأخلاقهم.

التاسع: أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان. قال النبي صلى الله عليه وآله: ليس منا من لم يوقر كبيرنا ولم يرحم صغيرنا.

وقال صلى الله عليه وآله: من تمام إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم.

وقال الصادق عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من عرف فضل كبير لسنه فوقره آمنه الله من فزع يوم القيامة.

وفي رواية: من وقر ذا شيبة في الإسلام آمنه الله من فزع يوم القيامة.

العاشر: أن يكون مع كافة الخلق مستبشراً طلق الوجه رقيقاً. قال صلى الله عليه وآله: أتدرون على من حرمت النار؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال على اللين الهين السهل القريب. وقال عليه السلام إن الله يحب السهل الطلق.

وقال الصادق عليه السلام: من أخذ من وجه أخيه المؤمن قذاة كتب الله له عشر حسنات، ومن تبسم في وجه أخيه كانت له حسنة.

وقال عليه السلام: من قال لأخيه مرحباً كتب الله له مرحباً إلى يوم القيامة.

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله من أكرم أخاه المسلم بكلمة يلطفه بها وفرج عنه كربته لم يزل في ظل الله الممدود عليه الرحمة ما كان في ذلك.

وعنه عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: المؤمن إلف مألوف، ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف.

الحادي عشر: أن لا يعد مسلماً بوعد إلا ويفي به. قال السجاد عليه السلام في صفة المنافق: وإذا وعدك أخلفك.

وقال الصادق عليه السلام: عدة المؤمن أخاه نذر لا كفارة له، فمن أخلف فبخلف الله بدا ولمقته تعرض، وذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم

تقولون ما لا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾.

وعنه ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليف إذا وعد.

وعنه ﷺ قال : إنما سمي إسماعيل صادق الوعد لأنه وعد رجلاً في مكان فانتظره في ذلك المكان سنة ، فسماه الله تعالى صادق الوعد ، ثم إن الرجل أتاه بعد ذلك فقال إسماعيل : مازلت منتظراً لك.

الثاني عشر : أن ينصف الناس من نفسه ، ولا يأتي إليهم إلا ما يحب أن يؤتى إليه . قال أمير المؤمنين ﷺ: من ينصف الناس من نفسه لم يزده الله إلا عزاً.

وقال الصادق ﷺ لرجل : ألا أخبرك بأشد ما فرض الله على خلقه؟ قال : بلى . قال : إنصاف الناس من نفسك ، ومواساتك أخاك ، وذكر الله في كل موطن، أما إني لا أقول «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» وإن كان هذا من ذلك ، ولكن ذكر الله في كل موطن إذا هممت على طاعة أو معصية.

وروي أن أعرابياً أتى النبي ﷺ وهو في بعض غزواته فأخذ بغرز راحلته فقال : يا رسول الله علمني عملاً أدخل به الجنة . فقال ﷺ : ما أحببت أن يأتيه الناس إليك فأته إليهم ، وما كرهت أن يأتيه الناس إليك فلا تأته إليهم . خل سبيل الراحلة.

الثالث عشر : أن يزيد في توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته ، وينزل الناس منازلهم . روي أن النبي ﷺ دخل بعض بيوته ، فدخل عليه أصحابه حتى دحس وامتلأ ، فجاء جرير بن عبد الله البجلي فلم يجد مكاناً فقعد على الباب ، فلف رسول الله ﷺ رداءه فألقاه عليه ، فقال له : إجلس على هذا . فأخذه جرير ووضعه على وجهه وجعل يقبله ويبكي ، ثم لفه فرمى به إلى رسول الله ﷺ وقال : ما كنت لأجلس على

ثوبك أكرمك الله كما أكرمتني ، فنظر النبي ﷺ يميناً وشمالاً ثم قال : إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : لما قدم عدي بن حاتم إلى النبي ﷺ أدخله النبي ﷺ بيته - ولم يكن في البيت غير حصفة ووسادة من أدم - فطرحها رسول الله ﷺ لعدي.

الرابع عشر : أن يصلح ذات البين من المسلمين مهما وجد إليه سبيلا.

قال ﷺ : أفضل الصدقة إصلاح ذات البين.

وفي الصحيح عن الصادق عليه السلام قال : لأن أصلح بين اثنين أحب إلي من أن أتصدق بدينارين.

وعن المفضل قال : قال أبو عبد الله عليه السلام : إذا رأيت بين اثنين من شيعتنا منازعة فافتدها من مالي.

وعن أبي حنيفة (سائق الحاج) قال : مرَّ بنا المفضل وأنا وختني نتشاجر في ميراث فوقف علينا ساعة ثم قال لنا : تعالوا إلى المنزل ، فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائة درهم فدفعها إلينا من عنده حتى إذا استوثق كل منا من صاحبه قال : أما إنها ليست من مالي ولكن أبو عبد الله أمرني إذا تنازع رجلان من أصحابنا في شيء أن أصلح بينهما وأفتديها من ماله ، فهذا مال أبي عبد الله عليه السلام.

وفي الحسن عنه عليه السلام قال : المصلح ليس بكاذب.

الخامس عشر : أن يستر عورات المسلمين كلهن . قال ﷺ : من ستر على مسلم ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة.

وعن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ من أذاع فاحشة كان كمبتديها ، ومن عيَّر مؤمناً بشيء لم يمت حتى يركبه.

وعنه ﷺ قال : من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته أذناه فهو من الذين قال الله تعالى : ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾.

السادس عشر : أن يتقي مواضع التهم صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ، ولألسنتهم عن الغيبة ، فإنهم إذا عصوا الله بذكره وكان هو السبب فيه كان شريكاً.

قال ﷺ : كيف ترون من يسب أبويه ؟ فقالوا : وهل من أحد يسب أبويه . فقال : نعم يسب أبوي غيره فيسبون أبويه.

السابع عشر : أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى كل من له عنده منزلة ، ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر عليه ، ففي الكافي عن المفضل بن عمر عن الصادق ؑ قال : إن الله تعالى خلق خلقاً من خلقه انتجبهم لقضاء حوائج فقراء شيعتنا ليثيبهم على ذلك الجنة ، فإن استطعت أن تكون منهم فكن.

وعنه ؑ قال : قضاء حاجة المؤمن خير من عتق ألف رقبة ، وخير من حملان ألف فرس في سبيل الله.

وعنه ؑ : لقضاء حاجة امرىء مؤمن أحب إلى الله من عشرين حجة ، كل حجة ينفق فيها صاحبها مائة ألف .

وعن أبان بن تغلب قال : سمعت الصادق ؑ يقول : من طاف بالبيت أسبوعاً كتب الله تعالى له ستة آلاف حسنة، ومحا عنه ستة آلاف سيئة، ورفع له ستة آلاف درجة ـ وفي رواية وقضى له ستة آلاف حاجة ـ قال : ثم قال : وقضاء حاجة المؤمن أفضل من طواف وطواف ـ حتى عدَّ عشراً .

وعنه ؑ قال : إن المؤمن لترد عليه الحاجة لأخيه فلا يكون عنده فيهتم بها قلبه ، فيدخله الله بهمه الجنة.

وعنه ؑ قال : من بخل بمعونة أخيه المسلم والقيام له في حاجته

ابتلي بالقيام بمعونة من يأثم عليه ولا يؤجر.

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من أعان مؤمناً نفس الله عنه ثلاثاً وسبعين كربة واحدة في الدنيا واثنتين وسبعين كربة عند كربته العظمى حيث يتشاغل الناس بأنفسهم.

الثامن عشر: أن يبدأ كل مسلم بالسلام قبل الكلام ويصافحه عند السلام، فعن الصادق عليه السلام قال: من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه.

وقال عليه السلام: ابدأوا بالسلام قبل الكلام، فمن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه.

وقال عليه السلام: إن الله عز وجل قال: «البخيل من بخل بالسلام».

وعنه عليه السلام قال: إذا سلم أحدكم فليجهر بسلامه، ولا يقول «سلّمتُ فلم يردوا علي» ولعله يكون قد سلم ولم يسمعهم، وإذا ردَّ أحدكم فليجهر برده ولا يقول المسلم «سلمت فلم يردوا علي».

وعنه عليه السلام قال: يسلم الصغير على الكبير، والمار على القاعد، والقليل على الكثير.

وعنه عليه السلام قال: القليل يبدأون الكثير بالسلام، والراكب يبدأ الماشي، وأصحاب البغال يبدأون بأصحاب الحمير، وأصحاب الخيل يبدأون أصحاب البغال.

وعنه عليه السلام قال: يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، وإذا لقيت جماعة جماعة سلم الأقل على الأكثر، وإذا لقي واحد جماعة سلم الواحد على الجماعة.

وعنه عليه السلام قال: لا تبدأوا أهل الكتاب بالتسليم، وإذا سلموا عليكم فقولوا: وعليكم.

وعن أبي عبيدة قال: كنت زميل أبي جعفر عليه السلام، وكنت أبدأ

بالركوب ثم يركب هو ، فإذا استوينا سلم وساءل مساءلة رجل لا عهد له بصاحبه وصافح . قال : وكان إذا نزل نزل قبلي فإذا استويت أنا وهو على الأرض سلم وساءل مساءلة من لا عهد له بصاحبه . فقلت : يابن رسول الله إنك لتفعل شيئاً ما يفعله من قبلنا وإن فعل مرة فكثير ؟ فقال : أما علمت ما في المصافحة ، إن المؤمنين يلتقيان فيصافح أحدهما صاحبه فما تزال الذنوب تنحات عنهما كما ينحات الورق[1] عن الشجر والله ينظر إليهما حتى يفترقا .

وعنه عليه السلام قال : ما صافح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً قط فنزع يده حتى يكون هو الذي نزع يده منه .

وعنه عليه السلام قال : تصافحوا فإنه يذهب بالسخيمة .

وعنه عليه السلام قال : مصافحة المؤمن أفضل من مصافحة الملائكة .

وعنه عليه السلام قال : إن لكم لنوراً تعرفون به في الدنيا ، حتى إن أحدكم إذا لقي أخاه قبله في موضع النور من جبهته .

وعنه عليه السلام قال : لا تقبل رأس أحد ولا يده إلا رسول الله أو من أريد به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي رواية أخرى : إن تقبيل اليد لا يصلح إلا لنبي أو وصي نبي .

وينبغي تعظيم المؤمن بالقيام ، لعمومات ما دل على الحث على التعظيم. قال تعالى : ﴿ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ وقال تعالى : ﴿ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه﴾ .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا ، وكونوا عباد الله إخواناً .

وربما يؤدي ترك القيام إلى التباغض والتقاطع والإهانة ، وقد روي أن

---

(١) الحت : نثر الورق من الغصن ، وانحات أي تناثر.

النبي ﷺ قام إلى فاطمة ، وقام إلى جعفر لما قدم من الحبشة ، وقال للأنصار : قوموا إلى سيدكم.

وفي المحاسن عن الصادق عليه السلام أنه سئل عمن قام من مجلسه يعظم الرجل ؟ قال : مكروه إلا لرجل في الدين.

وعنه عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : إن من حق الداخل على أهل البيت أن يمشوا معه هنيهة إذا دخل وإذا خرج.

وأما ما روي عن النبي ﷺ أنه قال : من أحب أن يتمثل له النساء والرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار ، فهو محمول على ما يصنعه الجبابرة من إلزامهم الناس بالقيام في حال قعودهم إلى أن ينقضي مجلسهم ، لا هذا القيام المخصوص القصير زمانه ، ولو سلم فهو محمول على من أحب ذلك تجبراً وعلواً على الناس.

وأما ما روي عن النبي ﷺ أنه كان يكره أن يقام له ، وكان إذا قام لا يقومون له لعلمهم بكراهة ذلك ، فهو منه ﷺ تواضع وتخفيف على أصحابه ، وينبغي للمؤمن أن لا يحب ذلك.

التاسع عشر : أن يصون عرض أخيه ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر ، ويرد عنه ويناضل دونه وينصره ، فقد قال ﷺ : من تطول على أخيه في غيبة سمعها منه في مجلس فردها عنه رد الله عنه ألف باب من الشر في الدنيا والآخرة ، وإن لم يردها وهو قادر على ردها كان عليه كوزر من اغتابه سبعين مرة.

العشرون : تسميت العاطس. قال الصادق عليه السلام : قال رسول الله ﷺ : إذا عطس الرجل فسمتوه ولو من وراء جزيرة . وفي رواية : ولو من وراء البحر.

وعنه عليه السلام قال : من سمع عطسة فحمد الله تعالى وصلى على النبي

وأهل بيته لم يشتك عينه ولا ضرسه . ثم قال عليه السلام: إن سمعتها فقلها وإن كان بينك وبينه البحر.

وعنه عليه السلام قال : من عطس ثم وضع يده على قصبة أنفه ثم قال : «الحمد لله رب العالمين كثيراً كما هو أهله وصلى الله على محمد النبي وآله» خرج من منخره الأيسر طائر أصغر من الجراد وأكبر من الذباب حتى يصير تحت العرش يستغفر الله له إلى يوم القيامة.

وعنه عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : العطاس للمريض دليل العافية وراحة البدن.

وفي رواية : إنه ينفع البدن كله ما لم يزد على الثلاث ، فإن زاد على الثلاث فهو داء وسقم.

وسئل الصادق عن قوله تعالى : ﴿إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ ؟ فقال : العطسة القبيحة.

وعنه عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : تصديق الحديث عند العطاس .

وفي رواية أخرى : إذا كان الرجل يتحدث بحديث فعطس عاطس فهو شاهد حق.

الحادي والعشرون : التقية والمداراة مع الأشرار . عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ ؟ قال : بما صبروا على التقية . ﴿ويدرأون بالحسنة السيئة﴾ ؟ قال : الحسنة التقية والسيئة الإذاعة.

وعنه عليه السلام قال : إن تسعة أعشار الدين التقية ، ولا دين لمن لا تقية له.

وعنه عليه السلام قال : التقية من دين الله.

وعن الباقر عليه السلام قال : التقية ديني ودين آبائي ، ولا إيمان لمن لا تقية له .

وعنه عليه السلام قال : التقية في كل ضرورة ، وصاحبها أعلم بها حين تنزل به .

وعنه عليه السلام : التقية في كل شيء يضطر إليه ابن آدم فقد أحله الله .

وعنه عليه السلام: إنما جعلت التقية ليحقن بها الدم ، فإذا بلغ الدم فليس تقية .

الثاني والعشرون : أن يتجنب مخالطة الأغنياء ويختلط بالمساكين ، ويحسن إلى الأيتام ، فقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : إياكم ومجالسة الموتى . قيل : ومن الموتى ؟ قال : الأغنياء .

وقال الصادق عليه السلام : ما من عبد مسح يده على رأس يتيم ترحماً له إلا أعطاه الله عز وجل بكل شعرة نوراً يوم القيامة .

وروي أنه يكتب الله تعالى له بعدد كل شعرة مرت عليها يده حسنة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من أنكر منكم قساوة قلبه فليدن يتيماً فيلاطفه وليمسح رأسه يلن قلبه بإذن الله ، فإن لليتيم حقاً.

الثالث والعشرون : النصيحة لكل مسلم والجهد في إدخال السرور في قلبه ، ففي الصحيح عن الصادق عليه السلام قال : يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة له في المشهد والمغيب.

وقال الباقر عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لينصح الرجل منكم أخاه كنصيحته لنفسه.

وقال الصادق عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله وأدخل على أهل بيته سروراً.

وعن الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من سر مؤمناً فقد سرني، ومن سرني فقد سر الله.

وعنه عليه السلام قال: تبسم الرجل في وجه أخيه حسنة، وصرفه القذى عنه حسنة، وما عبد الله بشيء أحب إلى الله من إدخال السرور على المؤمن.

وقال الصادق عليه السلام: لا يرى أحدكم إذا أدخل على مؤمن سروراً أنه عليه أدخله فقط، بل والله علينا، بل والله على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابع والعشرون: أن يعود مرضاهم. قال الصادق عليه السلام: من عاد مريضاً من المسلمين وكّل الله به سبعين ألفاً من الملائكة يغشون رحله يسبحون فيه ويقدسون ويهللون ويكبرون إلى يوم القيامة نصف صلواتهم لعائد المريض.

وعنه عليه السلام قال: أيما مؤمن عاد مؤمناً حتى يصبح شيعه سبعين ألف ملك، فإذا قعد غمرته الرحمة واستغفروا له حتى يمسي، وإن عاده مساءً كان له مثل ذلك حتى يصبح.

وعن الصادق عليه السلام قال: إذا دخل أحدكم على أخيه عائداً له فليدع له، فإن دعاءه مثل دعاء الملائكة.

وقال عليه السلام: من عاد مريضاً في الله لم يسأل المريض للعائد شيئاً إلا استجاب الله له.

وعنه عليه السلام قال: تمام العيادة للمريض أن تدع يدك على ذراعه وتعجل القيام من عنده، فإن عيادة النوكي أشد على المريض من وجعه.

وعنه عليه السلام : العيادة قدر فواق الناقة أو حلب ناقة.

وعنه عليه السلام: إن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إن من أعظم العواد أجراً عند الله لمن إذا عاد أخاه خفف الجلوس ، إلا أن يكون المريض يحب ذلك ويريده ويسأله ذلك.

وعنه عليه السلام: لا عيادة في وجع العين ، ولا تكون عيادة في أقل من ثلاثة أيام ، فإذا وجبت فيوم ويوم لا ، فإذا طالت العلة ترك المريض وعياله .

الخامس والعشرون : تشييع جنائزهم وحمل السرير والتعزية . قال الباقر عليه السلام: من مشى مع جنازة حتى يصلي عليها ثم رجع كان له قيراط ، وإذا مشى معه حتى يدفن كان قيراطان . والقيراط مثل أحد.

وقال عليه السلام: من تبع جنازة امرىء مسلم أعطي يوم القيامة أربع شفاعات ولم يقل شيئاً إلا قال الملك : ولك مثل ذلك.

وقال الصادق عليه السلام : من أخذ بقائمة السرير غفر الله له خمساً وعشرين كبيرة ، وإذا ربّع خرج من الذنوب.

وقال عليه السلام لإسحاق بن عمار : إذا حملت جوانب السرير سرير الميت خرجت من الذنوب كما ولدتك أمك.

وقال الباقر عليه السلام: إن المشي خلف الجنازة أفضل من بين يديها ، ولا بأس إن مشيت بين يديها.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من عزّى حزيناً كسي في الموقف حلة يحبر بها .

وقال الكاظم عليه السلام: يعزي قبل الدفن وبعده.

وقال الصادق عليه السلام: التعزية الواجبة بعد الدفن.

وقال : كفاك من التعزية بأن يراك صاحب المصيبة.

وعـزى ﷺ قـومـاً فقـال : جبـر الله وهنكم وأحسن عـزاكم ورحم متوفاكم ، ثم انصرف.

السادس والعشرون : زيارة قبورهم وعمل البر لأمواتهم.

روى الصدوق عن الصـادق ﷺ : إنـه سئـل عن زيـارة القبـور وبنـاء المساجد فيها ؟ فقال : أما زيارة القبور فلا بأس ، ولا يبنى عندها مساجد.

وكـانت فاطمـة ﷺ تأتي قبـور الشهـداء كـل غـداة سبت ، فتـأتي قبـر حمزة فتترحم عليه وتستغفر له.

وقـال الكاظم ﷺ : إذا دخلت المقـابر فـطأ القبـور ، فمن كـان مؤمنـاً استراح إلى ذلك ، ومن كان منافقاً وجد ألمه.

وعن محمـد بن مـسلم قـال : قـلت لأبي عـبـد الله ﷺ : لمـوتـى نـزورهم ؟ فقال : نعم . قلت : فيعلمـون بنـا إذا أتينـاهم ؟ فقـال : أي والله إنهم ليعلمـون بكم ويفـرحـون بكم ويستـأنســون إليكم . قلت : فـأي شيء نقول إذا أتيناهم ؟ قال : قل «اللهم جـاف الأرض عن جنوبهم وصـاعد إليـك أرواحهم ولقّهم منـك رضوانـاً وأسكن إليهم من رحمتك مـا تصل بـه وحدتهم وتؤنس به وحشتهم إنك على كل شيء قدير».

وقال الرضا ﷺ : ما من عبد زار قبر مؤمن فقرأ عليه «إنـا أنزلنـاه» سبع مرات إلا غفر الله له ولصاحب القبر.

وقـال الصادق ﷺ: ست تلحق المؤمن بعـد وفاتـه: ولـد يستغفـر لـه، ومصحف يخلفـه ، وغرس يغـرسه ، وصـدقة مـاء يجريـه ، وقليب يحفـره ، وسنة يؤخذ بها من بعده.

وقـال ﷺ : من عمل من المسلمين عن ميت عمـلاً صالحـاً أضعف له ونفع الله به الميت.

وقال ﷺ : يدخـل على الميت في قبره الصـلاة والحج والصدقـة والبـر والدعاء ، ويكتب أجره للذي يفعله وللميت.

الباب السابع
في بيان بعض الحقوق إجمالاً

إعلم أن الجملة الجامعة: أن لا تستصغر أحداً من إخوان الدين حياً كان أو ميتاً فتهلك ، لأنك لا تدري لعله خير منك ، فإنه - وإن كان فاسقاً - فلعله يختم له بالصلاح ويختم لك بمثل حاله . ولا تنظر إليهم بعين التعظيم لهم في حال دنياهم، فإن الدنيا صغيرة عند الله صغير ما فيها، ومهما عظم أهل الدنيا في نفسك فقد عظمت الدنيا ، فتسقط من عين الله .

ولا تبذل لهم دينك لتنال من دنياهم فتصغر في أعينهم وتحرم دنياهم ، فإن لم تحرم كنت قد استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ولا تعادِهم بحيث تظهر العداوة فيطول الأمر عليك في المعاداة ويذهب به دينك ودنياك فيهم ويذهب دينهم فيك ، إلا إذا رأيت منكراً في الدين فتعادي أفعالهم القبيحة.

وتنظر إليهم بعين الرحمة لهم لتعرضهم لمقت الله وعقوبته بعصيانه ، فحسبهم جهنم يصلونها ، ولا تحقد عليهم ولا تسكن إليهم في مودتهم لك وثنائهم في وجهك وحسن بشرهم لك ، فإنك إذا طلبت حقيقة ذلك لم تجد في المائة إلا واحداً وربما لا تجده.

ولا تشك إليهم أحوالك فيكلك الله إليهم ، ولا تطمع أن يكونوا لك

في الغيب والسر كما في العلانية ، فذلك طمع كاذب . ولا تطمع بما في أيديهم فتستعجل الذل ولا تنال الغرض . ولا تظهر عليهم تكبراً لاستغنائك عنهم فإن الله يلجئك إليهم عقوبة على التكبر بإظهار الاستغناء.

وإذا سألت أخاً منهم حاجة فقضاها فهو أخ مستفاد ، وإن لم يقضها فلا تعاتبه فيصير عدواً تطول عليك مقاساته.

ولا تشتغل بوعظ من لا ترى فيه مخايل القبول ، فلا يسمع منك ويعاديك وليكن وعظك عاماً من غير تنصيص على شخص.

ومهما رأيت منهم كرامة وخيراً فاشكر الله الذي سخرهم لك ، واستعذ بالله أن يكلك إليهم.

وإذا بلغك عنهم غيبة أو رأيت منهم شراً أو أصابك منهم ما يسوؤك فكل أمرهم إلى الله ، واستعذ بالله من شرهم ، ولا تشغل نفسك بالمكافاة فيزيد الضرر ويضيع العمر بذلك ، ولا تقل لهم «لم تعرفوا موضعي» ، واعتقد أنك لو استحققت ذلك لجعل الله لك موضعاً في قلوبهم ، فالله المحبب والمبغض الى القلوب.

وكن فيهم سميعاً لحقهم أصم عن باطلهم : نطوقاً بحقهم صموتاً عن باطلهم . واحذر صحبة أكثر الناس ، فإنهم لا يقيلون عثرة ولا يغفرون زلة ولا يسترون عورة ، ويحاسبون على النقير والقطمير ويحسدون على القليل والكثير ، يستنصفون ولا ينصفون ويؤاخذون على الخطأ والنسيان ، ويغيرون الإخوان بالنميمة والبهتان ، فصحبة أكثرهم خسران وقطيعتهم رجحان ، إن رضوا فظاهرهم الملق وإن سخطوا فباطنهم الحنق ، لا يؤمنون في حنقهم ولا يرجون في ملقهم ، ظاهرهم ثياب وباطنهم ذئاب ، ينطلقون بالظنون ويتغامزون وراءك بالعيون ، ويتربصون بصديقهم من الحسد ريب المنون ، يحصون عليك العثرات في صحبتهم ليجبهوك بها في غضبهم ووحشتهم.

ولا تعول على مودة من لم تختبره حق الخبرة ، بأن تصحبه مدة في

دار وموضع واحد ، فتجربه في عزلـه وولايته وغنـاه وفقره ، أو تسـافر معـه أو تعـامله في الدينـار والدرهم ، أو تقـع في شدة فتحتـاج إليه ، فـإن رضيته في هذه الأحوال فاتخذه أبـاً لك إن كـان كبيراً وابنـاً إن كان صغيـراً وأخاً إن كـان مثلك.

الباب الثامن
في حقوق الجوار

إعلم أن الجوار يقتضي حقاً وراء ما يقتضيه أخوة الإسلام، فيستحق الجار من الحقوق ما يستحق كل مسلم وزيادة لما روي عنه ﷺ قال : الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق . فالجار الذي له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم ، فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم ، وأما الذي له حقان فالجار المسلم ، له حق الجوار وحق الإسلام وأما الذي له حق واحد فالجار المشرك.

وجملة حق الجار أن يبدأه بالسلام ، ولا يطيل معه الكلام ، ولا يكثر عن حاله السؤال ، ويعوده في المرض ، ويعزيه في المصيبة ، ويقوم معه في العزاء ، ويهنئه في الفرح ، ويظهر الشركة في السرور معه ، ويصفح عن زلاته ، ولا يتطلع من السطح على عوراته ، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره ، ولا في صب الماء من ميزابه ، ولا في مطرح التراب من فنائه ، ولا يضيق طريقه إلى الدار ، ولا يتبعه النظر في ما يحمله إلى داره ، ويستر ما ينكشف له من عوراته ، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة ، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته ، ولا يتسمع عليه كلامه ، ويغض بصره عن حرمته ، ولا يديم النظر إلى خادمته ، ويتلطف لولده في كلمته ، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه.

هذا كله مضافاً إلى حقوق الإسلام المتقدمة ، ففي الحديث النبوي : أتدرون ما حق الجار ؟ إن استعان بك أعنته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقد عدت إليه ، وإن مرض عدته ، وإن مات اتبعت جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، ولا تستطيل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فاهد منها له، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها.

وفي الصادقي : حسن الجوار يزيد في الرزق.

وعنه عليه السلام: إن يعقوب لما ذهب منه بنيامين نادى : يا رب أما ترحمني أذهبت عيني وأذهبت ابني ؟! فأوحى الله تعالى : لو أمتّهما لأحييتهما لك حتى أجمع بينك وبينهما ، ولكن تذكر الشاة التي ذبحتها وشويتها وأكلت وفلان إلى جانبك صائم لم تنله منها شيئاً.

وفي رواية أخرى : وكان بعد ذلك يعقوب ينادي مناديه كل غداة من منزله على فرسخ : ألا من أراد الغداة فليأت إلى يعقوب ، وإذا أمسى نادى : ألا من أراد العشاء فليأت إلى يعقوب.

وعنه عليه السلام: حسن الجوار زيادة في الأعمار وعمارة في الديار.

وعنه عليه السلام : ليس منا من لم يحسن مجاورة من جاوره.

وعن الباقر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع قال : وما من أهل قرية يبيت فيهم جائع ينظر الله إليهم يوم القيامة.

وقال عليه السلام : من القواصم الفواقر التي تقصم الظهر جار السوء ، إن أى حسنة أخفاها ، وإن رأى سيئة أفشاها.

وفي الحسن عن الباقر عليه السلام: كل أربعين داراً جيران من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله.

الباب التاسع
في حقوق الأقارب والرحم

قال الله تعالى : ﴿واتقوا الله الذي تسائلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾ . ففي الحسن عن الصادق قال : هي أرحام الناس ، إن الله تعالى أمر بصلتها وعظمها ، ألا ترى أنه جعلها منه .

وفي الموثق عنه عليه السلام أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله أهل بيتي أبوا إلا توثباً علي وقطيعة لي وشتيمة ، فأرفضهم . فقال : إذاً يرفضكم الله جميعاً . قال : كيف أصنع ؟ قال : تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك ، فإنك إذا فعلت ذلك كان لك من الله عليهم ظهير .

وعنه عليه السلام قال : ما نعلم شيئاً يزيد في العمر إلا صلة الرحم ، حتى إن الرجل يكون أجله ثلاث سنين فيكون وصولاً للرحم فيزيد الله في عمره ثلاثين سنة فيجعلها ثلاثاً وثلاثين سنة ، ويكون أجله ثلاثاً وثلاثين سنة فيكون قاطعاً لرحمه فينقصه الله ثلاثين سنة ويجعل أجله إلى ثلاث سنين.

وعن الباقر عليه السلام قال : صلة الأرحام تزكي الأعمال وتنمي الأموال وتدفع البلوى وتيسر الحساب وتنسىء في الأجل.

وعنه عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أوصي الشاهد من أمتي

والغائب منهم ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة أن يصل الرحم ، وإن كان منه على مسيرة سنة ، فإن ذلك من الدين.

وعنه ﷺ قال : إن الرحم متعلقة يوم القيامة بالعرش تقول : صل من وصلني واقطع من قطعني.

قال الشهيد الثاني (ره) : الرحم هو القريب المعروف بالنسب وإن بعدت لحمته وجاز نكاحه بالنص والإجماع.

الباب العاشر
في حقوق الوالدين والولد

قال الله تعالى : ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ وقال : ﴿أما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾.

وفي الصحيح عن أبي ولاد الحناط قال : سألت أبا عبد الله ﵇عن قول الله تعالى ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ ما هذا الإحسان ؟ فقال الإحسان أن تحسن صحبتهما ، وأن لا تكلفهما أن يسألاك مما يحتاجان إليه وإن كانا مستغنيين ، أليس يقول الله تعالى : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ . قال : ثم قال ﵇: وأما قول الله تعالى : ﴿أما يبلغن عندك الكبر أحدهما﴾ ـ الآية . قال : إن أضجراك فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما إن ضرباك . قال : ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ إن ضرباك فقل لهما «غفر الله لكما» فذلك منك قول كريم . قال : ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ قال : لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلا برحمة ورقة ، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما ولا يدك فوق أيديهما ولا تقدم قدامهما.

وعنه ﵇: إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أوصني . فقال : لا تشرك بالله شيئاً وإن حرقت وعذبت إلا وقلبك مطمئن بالإيمان ، ووالديك فأطعهما وبرهما حيين كانا أو ميتين ، وإن أمراك أن تخرج من

أهلك ومالك فافعل فإن ذلك من الإيمان.

وعنه عليه السلام أنه سئل أي الأعمال أفضل؟ فقال: الصلاة لوقتها، وبر الوالدين، والجهاد في سبيل الله.

وعنه عليه السلام قال: أتى رجل رسول الله فقال: يا رسول الله إني راغب في الجهاد نشيط. قال: فقال له النبي: فجاهد في سبيل الله فإنك إن تقتل تكن حياً عند الله ترزق، وإن مت فقد وقع أجرك على الله، وإن رجعت رجعت من الذنوب كما ولدت. قال: يا رسول الله إن لي والدين كبيرين يزعمان أنهما يأنسان بي ويكرهان خروجي. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: فقر مع والديك، فوالذي نفسي بيده لأنسهما بك يوماً وليلة خير من جهاد سنة.

وعنه عليه السلام قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: يا رسول الله من أبر؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أباك.

وعن جابر قال: سمعت رجلاً يقول لأبي عبد الله عليه السلام: إن لي أبوين مخالفين فقال: برهما كما تبر المسلمين بمن يتولانا.

وعن سدير قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: هل يجزي الولد والده؟ فقال: ليس له جزاء إلا في خصلتين: أن يكون الوالد مملوكاً فيشتريه ابنه فيعتقه، أو يكون عليه دين فيقضيه عنه.

وعنه عليه السلام قال: إن العبد ليكون باراً بوالديه في حياتهما ثم يموتان فلا يقضي عنهما دينهما ولا يستغفر لهما فيكتبه الله عاقاً، وإنه ليكون لهما عاقاً في حياتهما غير بار بهما فإذا ماتا قضى دينهما واستغفر لهما فيكتبه الله تعالى باراً.

وعن الكاظم عليه السلام قال: سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما حق الوالد

على ولده ؟ قال : أن لا يسميه باسمه ولا يمشي بين يديه ولا يجلس قبله ولا يستسب له .

وعن الباقر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إياكم وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة توجد من مسيرة ألف سنة ولا يجدها عاق ، ولا قاطع رحم ، ولا شيخ زان ، ولا جار إزاره خيلاء . إنما الكبر رداء الله تعالى .

وعن زيد بن علي عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يلزم الوالدين من العقوق لولدهما ما يلزم الولد لهما من عقوقهما .

وعن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : رحم الله والدين أعانا ولدهما على برهما .

وفي رواية أخرى : قلت : كيف يعينه على بره ؟ قال : يقبل ميسوره ويتجاوز عن معسوره ، ولا يرهقه ولا يخرق به ، وليس بينه وبين أن يصير في حد من حدود الكفر إلا أن يدخل في عقوق أو قطيعة رحم .

وعن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : حق الولد على والده إذا كان ذكراً أن يستفره أمه ويستحسن اسمه ويعلمه كتاب الله ويطهره ويعلمه السباحة ، وإن كانت أنثى يستفره أمها ويستحسن اسمها ويعلمها سورة النور ولا يعلمها سورة يوسف ولا ينزلها الغرف ويعجل سراحها إلى بيت زوجها .

الباب الحادي عشر
في حقوق المملوك

روي أنه كان من آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ أن قال : اتقوا الله في ما ملكت أيمانكم ، أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فما أحببتم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا ولا تعذبوا خلق الله فإن الله تعالى ملككم إياهم ولو شاء لملكهم إياكم.

وروي أنه جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كم نعفو عن الخادم ؟ فصمت عنه رسول الله ﷺ ثم قال : أعف عنه كل يوم سبعين مرة.

وقال الصادق عليه السلام: إذا اشتريت رأساً فلا ترينه ثمنه في كفة الميزان ، فما من رأس رأى ثمنه في كفة الميزان فأفلح ، فإذا اشتريت رأساً فغير اسمه وأطعمه شيئاً حلواً إذا ملكته وتصدق بأربعة دراهم.

وعنه عليه السلام أنه سئل عن أخوين مملوكين هل يفرق بينهما وعن المرأة وولدها ؟ قال : لا هو حرام إلا أن يريدوا ذلك.

وعنه عليه السلام عن أبيه قال : قال علي بن أبي طالب : من اتخذ من الإماء أكثر مما ينكح أو ينكح فالإثم عليه إن بغين.

وعنه عليه السلام أنه بعث غلاماً له في حاجة فأبطأ ، فخرج عليه السلام على أثره

فوجده نائماً فجلس عند رأسه يروحه حتى انتبه ، فلما انتبه قال له ﷺ: يا فلان والله ما ذلك لك تنام الليل والنهار ، لك الليل ولنا منك النهار.

وعن السجاد عليه السلام أنه سكبت عليه الماء الجارية ليتوضأ للصلاة فنعست فسقط الإبريق من يدها فشجه عليه السلام فرفع رأسه إليها فقالت الجارية : إن الله عز وجل يقول : ﴿والكاظمين الغيظ﴾ قال : كظمت غيظي . قالت : ﴿والعافين عن الناس﴾ . قال لها : عفا الله عنك . قالت : ﴿والله يحب المحسنين﴾ . قال : اذهبي فأنت حرة لوجه الله تعالى .

وروي أنه عليه السلام دعا مملوكه مرتين فلم يجبه وأجابه في المرة الثالثة،فقال له : يا بني أما سمعت صوتي ؟ قال : بلى . قال : فما لك لم تجبني . قال : أمنتك . قال : الحمد لله الذي جعل مملوكي يأمنني .

الباب الثاني عشر
في حقوق الزوجين

لكل من الزوجين حق يجب على صاحبه القيام به ، بالكتاب والسنة والإجماع ، ولا بد من الإتيان به من دون طلب ولا استعانة بالغير ولا إظهار كراهة في تأديته بل باستبشار وانطلاق وجه .

أما حقه عليها : فأن تطيعه ولا تعصيه ، ولا تتصدق من بيته إلا بإذنه ، ولا تصوم تطوعاً إلا بإذنه ، ولا تمنعه نفسها وإن كانت على ظهر قتب ، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه ، وإن خرجت بغير إذنه لعنتها ملائكة السماء وملائكة الأرض وملائكة الغضب وملائكة الرحمة حتى ترجع إلى بيتها ، كما في الأخبار .

وأما حقها عليه : فأن يسدَّ جوعتها ، ويستر عورتها ، ولا يقبح لها وجهاً . وقال رسول الله ﷺ : خياركم خياركم لنسائكم . وفي رواية : خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائي .

وقال ﷺ : عيال الرجل أُسراؤه، وأحب العباد إلى الله تعالى أحسنهم صنيعاً إلى أُسرائه .

وقال ﷺ : إنما مثل المرأة مثل الضلع المعوج ، إن تركته انتفعت به وإن أقمته كسرته .

وقال ﷺ : من صبر على خلق امرأة سيئة الخلق واحتسب في ذلك الأجر أعطاه الله تعالى ثواب الشاكرين .

الباب الثالث عشر
في العزلة والمخالطة

قد اختلف الناس في الترجيح بينهما فذهب إلى كل فريق ، فذهب قوم إلى ترجيح المخالطة لقوله تعالى : ﴿ألّف بين قلوبهم﴾ وقوله تعالى : ﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا﴾ وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : المؤمن إلف مألوف ولا خير في من لا يألف ولا يؤلف ، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية ، وللأخبار الدالة على استحباب التزاور والتصافح والمعانقة وعيادة المرضى وتشييع الجنائز وقضاء الحوائج والاهتمام بأمور المسلمين وإصلاح ذات البين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر والتقوى وحضور الجمعة والجماعة ، وما دل على الأمر بالتعليم والتعلم ، وما دل على الأمر بالنفع والانتفاع بالكسب والمعاملة ، وما دل على التأديب والتأدب ومداراة الناس وتحمل أذاهم والاستئناس والإيناس وحضور الولائم وإجابة الدعوة ومدح التواضع والأمر به والتجربة والتجارب ، ونحو ذلك مما لا يتم إلا بالمعاشرة.

وذهب قوم إلى ترجيح العزلة ، وقد ألف المحقق العارف ابن فهد رسالة في ذلك ، واستشهد بأخبار وآثار كثيرة ، منها :

عن الصادق عليه السلام قال : لولا الموضع الذي وضعني الله فيه لسرني أن أكون على رأس جبل لا أعرف الناس ولا يعرفوني حتى يأتيني الموت.

وعن الباقر عليه السلام أنه قال لعبد الواحد الأنصاري : ما يضرك - أو ما يضر رجلاً - إذا كان على الحق ما قاله له الناس ولو قالوا له مجنون ، وما يضره ولو كان على رأس جبل يعبد الله تعالى حتى يجيئه الموت.

وعن الصادق عليه السلام قال : ما يضر المؤمن أن يكون منفرداً عن الناس ولو على قلة جبل - فأعادها ثلاث مرات.

وعن الباقر عليه السلام قال : ما يضر من عرَّفه الله الحق أن يكون على قلة جبل يأكل من نبات الأرض حتى يجيئه الموت.

وعن الصادق عليه السلام قال : ما يضر من كان على هذا الأمر أن لا يكون ما يستظل به إلا الشجر فلا يأكل إلا من ورقه.

وعنه عليه السلام قال : لا عليك أن لا يعرفك الناس - ثلاثاً .

وعنه عليه السلام قال : قال الله تبارك وتعالى : إنّ أعبد أوليائي عبد مؤمن ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه ، وعبد الله في السريرة ، وكان غائصاً في الناس ، فلم يشر إليه بالأصابع ، وكان رزقه كفافاً ، فصبر عليه فعجلت به المنية فقلَّ تراثه وقلَّت بواكيه.

وعن الباقر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قال الله تبارك وتعالى : إن أعبد أوليائي عندي رجل خفيف ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه في الغيب وكان غامضاً في الناس جعل رزقه كفافاً فصبر عليه حتى مات فقلَّ تراثه وقلَّت بواكيه.

وقال الصادق عليه السلام : إن ما يحتج الله تبارك وتعالى به على عبده أن يقول : لم أخمل ذكرك.

وقال عليه السلام لحفص بن غياث : يا حفص كن ذنباً ولا تكن رأساً .

وعنه عليه السلام أنه قال له معروف الكرخي : أوصني يا بن رسول الله . قال : أقلل معارفك . قال زدني . قال : أنكر من عرفت منهم . قال : زدني . قال : حسبك.

ولأن فيها فوائد كثيرة : منها التفرغ للعبادة والفكر والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق.

ولأن فيها التخلص من المهلكات والأخلاق الرذيلة كالغيبة وسماعها والرياء والتكبر والحقد والحسد والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتخلص من الفتن والخصومات ، وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها ، والخلاص من شر الناس ، ومن انقطاع طمع الناس عنه وانقطاع طمعه عنهم ، والخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقاء وأخلاقهم الرديئة وغير ذلك.

وتحقيق المقام على وجه أنيق وطرز رشيق تلتئم عليه الأخبار الواردة في هذا المضمار بوجوه:

الأول : أن يقال : إن العزلة الممدوحة إنما هي العزلة بالقلب دون البدن كما يرشد إلى ذلك ما رواه عبد الله بن سنان عن الصادق عليه السلام قال : طوبى لعبد عرف الناس ، فصاحبهم ببدنه ولم يصاحبهم بقلبه فعرفوه في الظاهر وعرفهم في الباطن.

الثاني : أن يراد بالعزلة العزلة عن أهل الدنيا الذين يشغلون الإنسان عن ذكر الله ، لا أهل الآخرة من العلماء والعقلاء والعرفاء الذين يكتسب من أخلاقهم ويستفيد من علومهم وأحوالهم ويتوصل إلى الأجر والثواب بمخالطتهم ويشهد لذلك قول الكاظم عليه السلام: يا هشام الصبر على الوحدة علامة قوة العقل ، فمن عقل عن الله اعتزل الدنيا والراغبين فيها ورغب في ما عند الله ، ومن رغب في ما عند الله كان أنيسه في الوحشة وصاحبه في الوحدة وغناه في العيلة ومعزه من غير عشيرة.

الثالث : أن يقال : إن العزلة لا بد فيها من العلم والزهد ، كما تنبىء عنه عينها وزاؤها ، فالعزلة بدون عين العلم ذلة ، وبدون زاء الزهد علة ، وبدون لام الجهل عزة، فالجاهل لا يليق له العزلة ، ففي الكافي عن الصادق عليه السلام أنه قيل له : رجل عرف هذا الأمر ـ أي الإمامة ـ لزم بيته ولم يتعرف

إلى أحد من إخوانه. قال : فقال : كيف يتفقه هذا في دينه؟ .

ثم هذا العالم إن كـان ذا نفس قدسيـة وقوة ملكـوتية خشن في ذات الله قادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإرشاد الضـال ومعاونـة الضعيف وإدراك اللهيف ونصـرة المظلوم ونحـو ذلك ، ولا تـأخذه في الله لـومة لائم ، فالأولى بحاله المخالطة وإلا فالعزلة.

الرابع : أن يقـال : إن الانقباض عن النـاس مكسبة للعـداوة والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء ، فليكن الإنسـان بين المنقبض والمنبسـط ، وكذلك يجب الاعتـدال في المخـالـطة والعـزلـة ، ويختلف ذلـك بحسب الأحـوال وبملاحظة الفوائد والآفات ، فليلاحظ كل ما يصلحه وما يليق بحاله.

الركن الثالث

في المهلكات من الأخلاق الردية التي هي السموم القاتلة المهلكة للدين ، وفيه أبواب :

الباب الأول
في شهوة البطن

إعلم أن البطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومنبت الأدواء والآفات ، إذ يتبعها شهوة الفرج وشدة الشبق إلى المنكوحات ، ثم يتبع شهوة المطعم والمنكح شدة الرغبة في المال والجاه اللذين هما الوسيلة إلى التوسع في المطعومات والمنكوحات ، ويتبع استكثار المال والجاه أنواع الرعونات وضروب المنافسات والمحاسدات، ويتولد من ذلك آفة الرياء وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء ، ثم يتداعى ذلك إلى الحسد والحقد والعداوة والبغضاء ، ثم يفضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء ، وكل ذلك ثمرة إهمال المعدة وما يتولد من بطر الشبع والإمتلاء.

ولو ذلل العبد نفسه بالجوع وضيق مجاري الشيطان لأذعنت نفسه لطاعة الله ولم تسلك سبيل البطر والطغيان ، ولم ينجر به ذلك إلى الانهماك في الدنيا وإيثار العاجلة على العقبى ، ولم يتكالب هذا التكالب على الدنيا . قال رسول الله ﷺ : لا يدخل ملكوت السماوات قلب من ملأ بطنه.

وقال ﷺ : الفكر نصف العبادة ، وقلة الطعام هي العبادة.

وقال ﷺ : لا تميتوا القلوب بكثرة الطعام والشراب ، فإن القلب كالزرع يموت إذا كثر عليه الماء.

وقال ﷺ : ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان هو فاعلاً لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه .

وعنه ﷺ : إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم ، فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش.

وقال الصادق عليه السلام : إن البطن ليطغى من أكلة ، وإن أقرب ما يكون العبد إلى الله تعالى إذا خف بطنه ، وأبغض ما يكون العبد إلى الله تعالى إذا امتلأ بطنه.

وعنه عليه السلام قال : ليس لابن آدم بد من أكلة يقيم بها صلبه ، فإذا أكل أحدكم طعاماً فليجعل ثلث بطنه للطعام وثلث بطنه للشراب وثلثه للنفس ، ولا تسمنوا سمن الخنازير للذبح .

وقال الباقر عليه السلام : ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من بطن مملوء .

وقال لقمان لابنه : يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة.

وفوائد الجوع كثيرة :

الأولى : صفاء القلب واتقاد القريحة ونفاذ البصيرة ، فإن الشبع يورث البلادة ويعمي القلب ويكثر البخار في الدماغ كشبه السكر.

الثانية : رقّة القلب وصفاؤه الذي به يتهيأ لإدراك لذة المناجاة والتأثر بالذكر .

الثالثة : الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأشر الذي هو مبدأ الطغيان والغفلة عن الله .

الرابعة : أن لا ينسى بلاء الله وعذابه ، ولا ينسى أهل البلاء ، فإن الشبعان ينسى الجائعين وينسى الجوع ، والفطن لا يشاهد بلاءً إلا ويتذكر

بلاء الآخرة ، فيتذكر بالجوع جوع أهل النار وأن ليس لهم طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ، وبالعطش عطشهم وعطش أهل المحشر في عرصات القيامة.

الخامسة : كسر شهوات المعاصي كلها والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء ، فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى ، ومادة الشهوات والقوى الأطعمة والأشربة.

السادسة : دفع النوم ودوام السهر ، فإن من شبع شرب كثيراً ، ومن كثر شربه كثر نومه ، وفي كثرة النوم ضياع العمر وفوت التهجد وبلادة الطبع وقساوة القلب.

السابعة : تيسير المواظبة على العبادة ، لأن كثرة الأكل تحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل وتحصيله وتحصيل الآلة وأسبابه ، والاشتغال بإدخاله وإخراجه.

الثامنة : صحة البدن ودفع الأمراض ، فإن سببها كثرة الأكل وحصول فضول الأخلاط في المعدة والعروق ، ثم المرض يمنع العبادات ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر ويحوج إلى الفصد والحجامة والدواء والطبيب ، وإلى مؤن وتبعات لا يخلو الإنسان فيها بعد التعب من أنواع المعاصي.

قال ﷺ: المعدة بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء ، وأعط كل بدن ما عودته.

التاسعة : خفة المؤونة.

العاشرة : التمكن من الإيثار والتصدق بالفاضل عن الضروري.

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام: قلة الأكل محمودة على كل حال وعند كل قوم ، لأن فيها المصلحة للظاهر والباطن ، والمحمود من المأكول أربعة : ضرورة ، وعدة ، وفتوح ، وقوت . فالضرورة للأصفياء ،

والعدة لقوم الأتقياء ، والفتوح للمتوكلين ، والقوت للمؤمنين.

وليس شيء أضر لقلب المؤمن من كثرة الأكل ، وهي مورثة شيئين : قسوة القلب ، وهيجان الشهوة . والجوع أدام للمؤمن ، وغذاء للروح ، وطعام للقلب ، وصحة للبدن ـ الحديث.

واعلم أنه حيث كان طبع الإنسان طالباً لغاية الشبع جاء الشرع في المبالغة في الجوع ، حتى يكون الطبع باعثاً والشرع مانعاً ، فيتقاومان ويحصل الاعتدال والوسط المطلوب في جميع الأخلاق والأحوال ، فالأفضل حينئذ بالإضافة الى الطبع المعتدل أن يأكل بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا بألم الجوع ، فإن المقصود من الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة ، وثقل الطعام يمنع العبادة وألم الجوع أيضاً يشغل القلب ويمنع منها ، فالمقصود أن يأكل أكلاً معتدلاً بحيث لا يبقى للأكل فيه أثر ، ليكون متشبهاً بالملائكة ، فإنهم مقدسون عن ثقل الطعام وألم الجوع . وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾.

والقوام فيه أن لا يأكل طعاماً ولا يشرب شراباً حتى يشتهيه ، ويكف نفسه عنهما وهي تشتهيه.

الباب الثاني
في شهوة الفرج

إعلم أن هـذه الشهـوة من أعـظم المهلكـات لابن آدم إن لم تضبط وتقهر وترد إلى حد الاعتدال ، ولها طرفـان : إفراط بـأن تقهر العقـل فتصرف همة الرجل إلى التمتع بالنساء والجواري فتحرمه عن سلوك طـريق الآخرة وقـد تقهـر الدين وتجـر إلى اقتحام الفـواحش ، وقـد تنتهي بـه إلى الفسق البهيمي الـذي ينشأ عن استيـلاء الشهوة فيسخـر الوهـم العقـل لخدمـة الشهـوة . وقـد خلق العقل ليكون مطاعاً لا ليكون خادماً للشهوة محتـالاً لأجلها ، وهـو مرض قلب فـارغ لا همـة لـه ، ولـذا قيـل : إن الشيـطان قـال للمـرأة : أنت نصف جندي وأنت سهمي الذي أرمي بـه فلا أخـطىء، وأنت موضـع سري ، وأنت رسولي في حاجتي . فنصف جنده الشهوة ونصفـه الغضب.

وأعظم الشهوة شهوة النساء ، ويجب الاحتراز منها في مبـدأ الأمر بتـرك معـاداة النظر والفكـر ، وإلا فإذا استحكم عسـر دفعه ، ولهـذا قيـل : إذا قـام ذكر الرجل ذهب ثلثا عقله.

وقـال الله تعـالى : ﴿قـل للمؤمنين يغضـوا من أبصـارهم ويحفـظوا فروجهم﴾.

وقـال النبي ﷺ : النظرة سهم مسمـوم من سهام إبليس ، فمن تـركها خوفاً من الله أعطاه الله إيماناً يجد حلاوته في قلبه.

وقال ﷺ : إتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء.

وتفريط هذه الشهوة إما بالعفة الخارجة من الاعتدال أو بالضعف عن امتناع المنكوحة ، وهو أيضاً مذموم ، والمحمود أن تكون هذه الشهوة معتدلة منقادة للعقل والشرع في الانبساط والانقباض ، ومهما أفرطت فكسرها يكون بالجوع والصوم وبالتزويج . قال النبي ﷺ : معاشر الشباب عليكم بالباءة ، فمن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإن الصوم له وجاء.

والحكمة في إيجاد هذه الشهوة مع كثرة غوائلها وآفاتها بقاء النسل ودوام الوجود ، وأن يقيس بلذتها لذات الآخرة ، فإن لذة الوقاع لو دامت لكانت أقوى لذات الأجساد ، كما أن ألم النار أعظم آلام الجسد ، والترهيب والترغيب يسوقان الخلق إلى سعاداتهم وثوابهم.

الباب الثالث
في اللسان

وهو من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة ومننه الجسيمة، فإنه صغير جرمه عظيم طاعته وجُرمه ، ولا يعلم الكفر والإيمان اللذان هما غاية الطاعة والطغيان إلا بشهادة اللسان ، وما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق متخيل أو معلوم مظنون أو موهوم إلا واللسان يتناوله ويتعرض له بإثبات أو نفي بحق أو باطل .

وهذه الخاصية لا توجد في غيره من الأعضاء ، فإن العين لا تصل إلى غير الألوان والصور ، والأذن لا تصل إلى غير الأصوات ، واليد لا تصل إلى غير الأجسام ، وكذا سائر الأعضاء .

واللسان رحب الميدان ، له في الخير والشر مجال واسع ، فمن أهمله فرخى العنان سلك به طرق الهلكة والخسران ، إذ لا تعب في تحريكه ولا مؤونة في إطلاقه ، فينبغي ضبطه تحت حكم العقل والشرع .

وحيث كان الطبع مائلاً إلى إطلاقه وإرخاء عنانه جاء الشرع بالبحث على إمساكه حتى يحصل التعادل، كما تقدم في الجوع .

وتحقيق الكلام فيه يتم في فصول :

الفصل الأول : في خطر إطلاقه وفضيلة صمته :

قال النبي ﷺ : من صمت نجا.

وقال ﷺ : الصمت حكمة ، وقليل فاعله.

وقال ﷺ : من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة .

وقال ﷺ : من وقى شر قبقبه وذبذبه ولقلقه فقد وقي ، والقبقب : البطن . والذبذب : الفرج . واللقلق : اللسان.

وقال ﷺ : هل يكبُّ الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم.

وقال ﷺ :من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت .

وقال ﷺ : إن لسان المؤمن وراء قلبه ، فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه ، وإن لسان المنافق أمام قلبه فإذا همّ بشيء أمضاه بلسانه ولم يتدبره بقلبه.

وقال ﷺ : من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به.

وقال ﷺ : أمسك لسانك فإنها صدقة تتصدق بها على نفسك . ثم قال ﷺ : ولا يعرف عبد حقيقة الإيمان حتى يخزن لسانه.

ومر أمير المؤمنين عليه السلام برجل يتكلم بفضول الكلام ، فوقف عليه فقال : يا هذا إنك تملي على حافظيك كتاباً إلى ربك فتكلم بما يعنيك ودع ما لا يعنيك .

وعن السجاد عليه السلام قال : إن لسان ابن آدم يشرف على جميع جوارحه كل صباح فيقول : كيف أصبحتم ؟ فيقولون : بخير إن تركتنا ، ويقولون : الله الله فينا ، ويناشدونه ويقولون : إنما نثاب ونعاقب بك.

وقال الباقر عليه السلام: إن شيعتنا الخرس.

وقال الصادق عليه السلام: النوم راحة للجسد ، والنطق راحة للروح ، والسكوت راحة للعقل.

وقال : في حكمة آل داود : على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه ، مقبلاً على شأنه ، حافظاً للسانه.

وقال عليه السلام: قال لقمان لابنه : يا بني إن كنت زعمت أن الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: المرء مخبوء تحت لسانه ، فزن كلامك واعرضه على العقل والمعرفة ، فإن كان لله وفي الله فتكلم وإن كان غير ذلك فالسكوت خير منه.

وسئل السجاد عليه السلام عن الكلام والسكوت أيهما أفضل ؟ فقال عليه السلام: لكل واحد منهما آفات ، فإذا سلما من الآفات فالكلام أفضل من السكوت . قيل : وكيف ذاك يابن رسول الله ؟ قال : لأن الله عز وجل ما بعث الأنبياء والأوصياء بالسكوت ، إنما بعثهم بالكلام ، ولا استحقت الجنة بالسكوت ، ولا استوجبت ولاية الله بالسكوت ، ولا توقيت النار بالسكوت ، ولا تجنب سخط الله بالسكوت ، إنما ذلك كله بالكلام ، ما كنت لأعدل القمر بالشمس إنك تصف فضل السكوت بالكلام ولست تصف فضل الكلام بالسكوت.

الفصل الثاني : في آفات اللسان ، وهي أمور :

الأول : وهو أهونها وأحسنها ـ التكلم في المباح ، وهو تضييع للعمر الشريف ويحاسب عليه ويكون قد استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

روي أن لقمان دخل على داود عليه السلام وهو يسرد الدرع ولم يكن رآها قبل ذلك ، فجعل يتعجب مما يرى ، فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته الحكمة فأمسك نفسه ولم يسأله ، فلما فرغ قام داود ولبسها فقال : نعم الدرع للحرب . فقال لقمان : الصمت حكم وقليل فاعله ـ أي حصل العلم

بـه من غير سؤال . وقيـل : كان يتـردد إليه سنـة وهو يـريد أن يعلم ذلـك ولم يسأل.

وعـلاج هـذا أن يعلم أن المـوت بين يـديـه ، وأنـه مسؤول عن كـل كلمـة ، وأن انفاسـه رأس مالـه ، وأن لسانـه شبكة يقـدر على أن يقتنص بهـا الحور العين ، فإهمـاله وتضييعـه خسران . والعـلاج من حيث العمل أن يلزم نفسه السكوت عن بعض ما يعنيه ليتعود اللسان ترك ما لا يعنيه.

الثاني : الخوض في الباطل ، وهـو الكلام في المعـاصي ، كحكايـات أحوال النساء ومجـالس الخمر ومقـامات الفسـاق وتنعم الأغنياء وتجبـر الملوك وأحوالهم.

قال النبي ﷺ : إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بهـا جلساءه يهـوى بها أبعد من الثريا.

وقال النبي ﷺ : أعظم الناس خطايـا يوم القيـامة هـو أكثرهم خـوضاً في الباطل.

وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿وكنا نخـوض مع الخـائضين﴾ . ويدخـل في هذا الخوض حكايات البدع والمذاهـب الفـاسدة ، فـإن الحديث في ذلـك كله خوض في الباطل .

الثالث : المراء والمجادلة . قال ﷺ : لا تمار أخـاك ولا تمازحـه ولا تعده موعداً فتخلفه.

وقـال ﷺ : من ترك المـراء وهو محق بني لـه في أعلى الجنة ، ومن ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في مربض الجنة .

وقال ﷺ : لا يستكمل عبد حقيقة الإيمـان حتى يدع المـراء والجدال وإن كان محقاً.

وقال لقمان لابنه : يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك.

واعلم أن المراء عبارة عن الطعن في كلام الغير لإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير وإظهار مزيد الكياسة . والجدال عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها .

الرابع : الخصومة ، وهي لجاج في الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود ، وذلك تارة يكون ابتداءً وتارة يكون اعتراضاً ، والمراء لا يكون إلا اعتراضاً على كلام سبق .

قال رسول الله ﷺ : إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم .

وقال ﷺ : من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع .

الخامس : الفحش والسب وبذاءة اللسان ، مصدره الخبث واللؤم .

قال رسول ﷺ : إياكم والفحش ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش .

وقال ﷺ : ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولاالفحاش ولا البذي .

وقال ﷺ : الجنة حرام على كل فاحش أن يدخلها .

وقال ﷺ : يا عائشة لو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء .

وقال ﷺ : إن الله لا يحب الفاحش المتفحش الصياح في الأسواق .

وقال ﷺ : سباب المسلم فسوق وقتاله كفر .

السادس : اللعن لإنسان أو حيوان أو جماد . قال النبي ﷺ : المؤمن ليس بلعان .

وقال ﷺ : لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ، ومن كان يستحق اللعن لإبداعه في الدين جاز لعنه بل وجب . قال تعالى : ﴿أولئك عليهم لعنة الله

والملائكة والناس أجمعين﴾ . وقال تعالى : ﴿أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ .

وقال ﷺ : لعن الله الكاذب ولو كان مازحاً.

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يقنت في بعض نوافله بلعن صنمي قريش.

السابع : الغناء والشعر . قال الله تعالى : ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾ . قال الصادق عليه السلام : هو الغناء .

وقال عليه السلام في قوله تعالى : ﴿لا يشهدون الزور﴾ قال : الغناء .

وقال عليه السلام : الغناء عشر النفاق.

وقال الباقر عليه السلام الغناء مما وعد الله عز وجل عليه النار ، وتلا هذه الآية : ﴿ومن الناس من يشري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله﴾ .

وأما الشعر فيطلق على معنيين:

أحدهما : الكلام الموزون المقفى ، سواء كان حقاً أو باطلاً ، وعلى حقه يحمل حديث : «إن من الشعر لحكمة» وما ورد في مدح الشعر ، فإن المراد به ما كان حقاً من الموزون المقفى الذي ليس فيه تمويه ولا كذب.

والثاني : الكلام المشتمل على التخيلات الكاذبة والتمويهات المزخرفة التي لا أصل ولا حقيقة لها ، سواء كان لها وزن وقافية أم لا ، وعليه يحمل ما ورد في ذمه ، وهو المراد من نسبة قريش القرآن إلى الشعر ، وقولهم للنبي ﷺ : إنه شاعر . وقال تعالى : ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ ، فإن القرآن ليس بموزون.

وقال الباقر عليه السلام في قوله تعالى : ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون﴾ هل رأيت شاعراً يتبعه أحد ، إنما هم قوم تفقهوا لغير الله فضلوا وأضلوا .

الثامن : المزاح ، وأصله مذموم منهي عنه إلا القدر اليسير في غير معصية الله .

قال ﷺ : لا تمار أخاك ولا تمازحه . والمراد النهي عن الإفراط

منه ، لقوله ﷺ : «إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً».

وروي أنه ﷺ أتت عجوز إليه فقال لها : لا تدخل الجنة عجوز. فبكت فقال ﷺ : إنك لست يومئذ بعجوز ، قال الله تعالى : ﴿إنا أنشأناهن إنشاءاً . فجعلناهن أبكاراً . عرباً أترابا﴾.

وروي أنه جاءت إليه ﷺ امرأة يقال لها أم أيمن فقالت : إن زوجي يدعوك . فقال : ومن هذا هو الذي بعينه بياض ؟ فقالت : لا والله ما بعينه بياض . فقال ﷺ : بلى إن بعينه بياضاً . قالت : لا والله . فقال : ما من أحد إلا بعينه بياض.

وجاءته امرأة أخرى فقالت : يا رسول الله احملني على بعير . فقال ﷺ : نحملك على ابن بعير . فقالت : ما أصنع به لا يحملني . فقال ﷺ : هل من بعير إلا وهو ابن بعير.

وروي أنه ﷺ كان يأكل رطباً مع ابن عمه وأخيه أمير المؤمنين، وكان يأكل ويضع النوى أمامه ، فلما فرغا كان النوى كله مجتمعاً عند علي عليه السلام، فقال له : يا علي إنك لأكول . فقال له : يا رسول الله الأكول من يأكل الرطب ونواه.

التاسع : السخرية والاستهزاء ، وهما حرام مهما كانا مؤذيين . قال تعالى : ﴿لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم﴾.

ومعنى السخرية الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة بالقول والفعل ، وقد يكون بالإشارة والإيماء .

وروي عنه ﷺ أنه قال : إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال : هلم هلم ، فيجيء بكربه وغمه ، فإذا أتى أغلق دونه ، ثم يفتح له باب آخر فيقال : هلم هلم فما يأتيه.

العاشر : إفشاء السر ، وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون .

قال ﷺ : إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة . وقال ﷺ : الحديث بينكم أمانة.

الحادي عشر : الوعد الكاذب . قال ﷺ : العدة دين . وقال ﷺ: ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان.

الثاني عشر : الكذب في القول واليمين ، وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب . قال ﷺ : كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت له فيه كاذب.

وقال ﷺ : الكذب ينقص الرزق.

وقال ﷺ : على كل خصلة يطبع أو يطوى عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب.

وقال أمير المؤمنين ؑ: أعظم الخطايا عند الله اللسان الكذوب.

وقال ﷺ : ثلاث نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم : المنان بعطية ، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر ، والمسبل إزاره.

وقال ﷺ : ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة.

وقال ﷺ : ما لي أراكم تتهافتون في الكذب تهافت الفراش في النار ، كل الكذب مكتوب كذباً لا محالة إلا أن يكذب الرجل في الحرب فإن الحرب خدعة ، أو يكون بين رجلين شحناء فيصلح بينهما ، أو يحدث امرأته يرضيها .

الثالث عشر : الغيبة ، وتحقيق الكلام فيها يتم بأمور :

الأول : في ذمها ، قال تعالى : ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾.

وقال ﷺ : من مشى في غيبة أخيه وكشف عورته كانت أول خطوة خطاها وصفها في جهنم وكشف الله عورته على رؤوس الخلائق ، ومن اغتاب مسلماً بطل صومه ونقض وضوؤه ، فإن مات وهو كذلك مات وهو مستحل لما حرم الله.

وعن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الآكلة في جوفه.

وقال عليه السلام: من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته أذناه فهو من الذين قال الله عز وجل : ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾.

وقال عليه السلام : من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه وهدم مروته ليسقط عن أعين الناس أخرجه الله من ولايته إلى ولاية الشيطان فلا يقبله الشيطان.

وقال عليه السلام: الغيبة حرام على كل مسلم ، وإنها لتأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

الثاني : في بيان معناها . قال النبي ﷺ : هل تدرون ما الغيبة قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ذكرك أخاك بما يكره . قيل : أرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : إن كان له ما تقول فقد اغتبته ، فإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته.

وعن الصادق عليه السلام : هو أن تقول لأخيك في دينه ما لم يفعل ، وتبثّ عليه أمراً قد ستره الله عليه.

وفي رواية أخرى : الغيبة أن تقول في أخيك ما ستر الله عليه ، وأما الأمر الظاهر فيه ـ مثل الحدة والعجلة ـ فلا.

واعلم أن الغيبة غير مقصورة على اللسان ، بل تكون بالقول والكتابة

والإشارة والإيماء والغمز والحركة وكل ما يفهم المقصود . وقد قيل : إن القلم أحد اللسانين.

وروي عن عائشة قالت : دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدي (أي قصيرة) فقال ﷺ : قد اغتبتيها.

ومن أقسامها أن يذكر عنده إنسان فيقول : الحمد لله الذي لم يبتلنا بطلب الدنيا وحب الجاه ونحو ذلك ، فهو جمع بين رياء وغيبة.

الثالث : في الأسباب الباعثة على الغيبة ، وهي أمور : منها تشفي الغيظ بذكر مساوىء عدوه ، ومنها موافقة الأقران ومساعدتهم في التفكه في أعراض الناس حتى لا يستثقلوه ولا ينفروا عنه ، ومنها العدد كقوله إن أكلت حراماً ففلان وفلان يأكله وإن فعلت كذا ففلان فعل ونحوه ، ومنها الاستشعار من إنسان أنه سيقصده بطول لسانه فيه فيقدح في حاله حتى يسقط أثر شهادته ، ومنها أن ينسب إلى شيء فيريد أن يبرأ منه بذكر الذي فعله ، ومنها إرادة أن يرفع نفسه بنقص غيره بأن يقول فلان جاهل وفهمه ركيك وغرضه أنه أفضل منه ، ومنها الحسد له بأن يريد زوال نعمة إكرام الناس له والثناء عليه بذكر عيوبه ، ومنها اللعب والهزل والمطايبة فيذكر غيره حتى يضحك الناس ، ومنها السخرية والاستهزاء استحقاراً له فإن ذلك قد يجري في الحضور فيجري أيضاً في الغيبة ، ومنها التعجب من المنكر كأن يقول ما أعجب ما رأيت من فلان كذا وكذا ، ومنها الرحمة وهو أن يغتم بسبب ما ابتلي به ، ومنها الغضب لله على منكر فعله فيذكره في غيابه ، وكان ينبغي له في الثلاثة الأخيرة لو كان مخلصاً فيها أن لا يذكر الاسم.

الرابع : في العلاج ، وهو قسمان إجمالي وتفصيلي :

أما الإجمالي فهو أن يعلم أنه معرض لسخط الله ، وأنه أحبط حسنات نفسه واستحق دخول النار وكفى بذلك رادعاً عنها ، وحكي أن رجلاً قال لآخر : بلغني أنك تغتابني . فقال : ما بلغ من قدرك عندي أن أحكمك في حسناتي.

وأما التفصيلي فلينظر إلى السبب ويعالجه بضده ، فإن كان هو الغضب فيعالجه بما يأتي فيه ويقول إن أمضيت غضبي فيه فلعل الله يمضي غضبه عليَّ وقد قال ﷺ : إن لجهنم باباً لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله .

وإن كان هو الموافقة فليعلم أنه تعرض لسخط الخالق في رضاء المخلوق.

وأما تنزيه النفس فأن يعلم أنَّ التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت الخلق وسخط الله عليه متيقن ورضاء الناس مشكوك فيه.

وأما العدد فهو جهل ، لأنه تعذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به ، وكان كمن يلقي نفسه من شاهق اقتداءً بغيره .

وأما قصد المباهاة وتزكية النفس فليعلم أنه أبطل فضله ضد الله وهو من الناس في خطر ، فربما نال اعتقادهم فيه بخبث فعله فيكون قد خسر الدنيا والآخرة.

وأما الحسد فهو جمع بين عذابين دنيوي وأخروي، لأن الحاسد في عذاب كما يأتي.

وأما الاستهزاء فمقصوده إخزاء غيره عند الناس ، وهو قد أخزى نفسه عند الله والملائكة والأنبياء والأوصياء ، فهو بالاستهزاء على نفسه.

وأما الترحم فهو وإن كان حسناً ولكن قد حسدك إبليس بأن نقل من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك.

وأما التعجب المخرج للغيبة فينبغي أن يتعجب بنفسه ، حيث أهلك دينه بدين غيره أو بدنياه وهو مع ذلك لا يأمن عقوبة الدنيا.

الخامس : في بيان الأعذار المسوغة للغيبة ، وهي أمور :

الأول : التظلم عند من يرجو زوال ظلمه ، قال تعالى : ﴿لا يحب

الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم﴾ . وقال ﷺ : لصاحب الحق مقال. وقال ﷺ : مطل الغنى ظلم . وقال ليُّ الواجد ظلم يحل عرضه وعقوبته .

الثاني : الاستفتاء ، كأن يقول للمفتي : قد ظلمني أبي أو أخي فكيف طريقي في الخلاص والأسلم التعريض وعدم ذكر الاسم.

الثالث : تحذير المؤمن من الوقوع في الخطر ونصح المستشير ، فإذا رأى متفقهاً يتلبس بما ليس من أهله فلك أن تنبه الناس على نقصه وقصوره . وكذلك إذا استشير في شراء مملوك أو تزويج امرأة وكان مستحضراً للعيوب فليذكرها ، لما ورد من جواز الوقيعة في أصحاب البدع ، وأن المستشار مؤتمن.

الرابع : الجرح للشاهد والراوي ، صيانة لحقوق المسلمين وحفظاً للأحكام الشرعية.

الخامس : أن يكون المقول فيه ذلك متظاهراً به كالفاسق المتظاهر بفسقه . قال الصادق عليه السلام: إذا جاهر الفاسق بفسقه فلا حرمة له ولا غيبة له . وعن الباقر عليه السلام قال: ثلاثة ليس لهم حرمة : صاحب هوى مبتدع ، والإمام الجائر ، والفاسق المعلن بالفسق . وعن النبي ﷺ : من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له . وعنه ﷺ : ليس لفاسق غيبة . وظاهر هذه الأخبار جواز غيبته وإن استنكف عن ذلك.

السادس : أن يكون الإنسان معروفاً باسم أو لقب يعرب عن غيبته ، كالأعرج والأعمش والأشتر ونحوها إذا لم يمكن التعريف بدون ذلك . قال الصادق عليه السلام: جاءت زينب العطارة الحولاء إلى نساء النبي ﷺ - الحديث.

السابع : إذا علم اثنان أو جماعة معصية من آخر فذكرها بعضهم لبعض جاز ذلك ، لأنها لا تؤثر عند السامع ، وفيه أشكال.

الثامن: في كفارة الغيبة . يجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويأسف على ما فعله ليخرج عن حق الله . وهل يكفي الاستغفار أم لا بد من الاستحلال ؟ وجهان بل قولان لتعارض الأخبار ظاهراً :

فعن الصادق قال : سئل النبي ﷺ : ما كفارة الاغتياب ؟ قال : تستغفر الله لمن اغتبته كلما ذكرته.

وفي العلل عنه ﷺ قال : الغيبة أشد من الزنا . فقيل : يا رسول الله ولِمَ ذلك ؟ قال : أما صاحب الزنا يتوب فيتوب الله عليه ، وأما صاحب الغيبة يتوب فلا يتوب الله عليه حتى يكون صاحبه الذي يحله.

وقد روي عن الصادق عليه السلام ما يصلح للجمع بين الأقوال والأخبار . قال عليه السلام: إن اغتبت فبلغ المغتاب فاستحل منه ، وإن لم يلحقه فاستغفر الله : وذلك لأن في الاستحلال مع عدم البلوغ إليه إثارة للغيبة وجلباً للضغائن ، وفي حكم من لم يبلغه من لم يقدر على الوصول إليه بموت أو غيبة.

الرابع عشر : النميمة :

قال تعالى : ﴿همَّاز مشاء بنميم . مناع للخير معتدٍ أثيم . عتلٍّ بعد ذلك زنيم﴾ وقال تعالى : ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ . قيل الهمزة : النمام ، واللمزة : المغتاب.

وقال النبي ﷺ : لا يدخل الجنة نمام.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: شراركم المشاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة ، المبتغون للبراء المعايب.

وقال الباقر عليه السلام: الجنة محرمة على المغتابين والمشائين بالنميمة.

والنمام هو من ينم قول الغير إلى المقول فيه ويكشف ما يكره كشفه ، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه : أو كرهه ثالث ، وسواء كان

الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو الإيماء ، وسواء كان المنقول من الأعمال أو الأقوال ، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاناً على المنقول عنه أو لا . فحقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر وكشفه.

ومن حملت إليه النميمة فعليه بأمور ستة.

الأول : عدم تصديقه لأنه فاسق وقد قال تعالى : **﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾**.

الثاني : أن ينهره عن ذلك لقوله تعالى : **﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر﴾** .

الثالث : أن يبغضه لأنه بغيض الله .

الرابع : أن لا يظن المنقول عنه السوء ، لقوله تعالى : **﴿اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم﴾**.

الخامس : أن لا يحمله ذلك على التجسس والبحث ليتحقق حقيقة الحال ، قال تعالى : **﴿ولا تجسسوا﴾**.

السادس : أن لا يرضى لنفسه ما نهي عنه النمام فلا يحكي نميمته ويقول قال فلان فيك كذا . وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أن رجلاً أتاه يسعى إليه برجل فقال : يا هذا نحن نسأل عما قلت فإن كنت صادقاً مقتناك وإن كنت كاذباً عاقبناك . وإن شئت أن نقيلك أقلناك . قال : أقلني يا أمير المؤمنين.

الخامس عشر : كلام ذي اللسانين :

وهو الذي يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد بكلام يوافقه وذلك عين النفاق . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يجيء يوم القيامة ذو الوجهين دالعاً لسانه في قفاه وآخر من قدامه يلتهبان ناراً حتى يلتهبا خده ، ثم يقال : هذا الذي كان في الدنيا ذا وجهين وذا لسانين يعرف بذلك يوم القيامة.

وقال الباقر عليه السلام: بئس العبد عبداً يكون ذا وجهين وذا لسانين يطري أخاه شاهداً ويأكله غائباً ، إن أعطي حسده وإن ابتلي خذله.

السادس عشر : المدح :

وفيه ست آفات أربع في المادح:

الأولى : إنه قد يفرط فينتهي به الإفراط إلى الكذب.

الثانية : إنه قد يدخله الرياء ، فإنه بالمدح مظهر للحب وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقداً لما يقوله ، فيكون مرائياً منافقاً.

الثالثة : إنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له للاطلاع عليه.

الرابعة : إنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم فاسق وذلك غير جائز. قال صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق.

واثنتان في الممدوح : إحداهما أنه قد يحدث فيه كبر أو إعجاب وهما مهلكان . الثانية أنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضي عن نفسه.

فإذا سلم المدح من هذه الآفات فلا بأس به . وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : أحثوا التراب في وجوه المداحين . وقال أمير المؤمنين عليه السلام لما أثني عليه : اللهم اغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤخذني بما يقولون واجعلني خيراً مما يظنون.

الباب الرابع
في الغضب

وهو شعلة من نار اقتبست من نار الله الموقدة إلا أنها لا تطلع على الأفئدة وإنها لمستكنة في طي الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد ، ويستخرجها الكبر الدفين من قلب كل جبار عنيد ، كما يستخرج الحجر النار من الحديد ، وتستخرجها حمية الدين من قلوب المؤمنين.

وسببه ثوران نار الغضب ، وهي الحرارة المودعة في الإنسان واشتعالها ، فيغلي بها دم القلب وينتشر في العروق ويرتفع إلى أعالي البدن كما ترتفع النار وكما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر ، ولذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين والبشرة لصفائها تحكي ما وراءها من حمرة الدم كما تحكي الزجاجة لون ما فيها.

وإنما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه ، فإن صدر الغضب على من هو فوقه وكان معه يأس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب وصار حزناً ، ولذلك يصفر اللون ، وإن كان الغضب على نظير يشك فيه تولد منه تردد بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر ويضطرب.

وقوة الغضب محلها القلب ، ومعناها غليان دم القلب لطلب الانتقام ، وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانها الى دفع المؤذيات قبل وقوعها، وإلى

التشفي والانتقام بعد وقوعها ، والانتقام فوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ولا تسكن إلا به.

والناس في هذه القوة على درجات ثلاث في أول الفطرة من التفريط والإفراط والاعتدال :

أما التفريط : فبفقد هذه القوة أو ضعفها ، وذلك مذموم ، وهو الذي يقال فيه إنه لا حمية له ، ومن ثمرته عدم الغيرة على الحرام ، واحتمال الذل وصغر النفس والخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات . وقد وصف الله تعالى خيار الصحابة بالشدة والحمية فقال : ﴿أشداء على الكفار﴾ وقال تعالى : ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم﴾ والشدة والغلظة من آثار قوة الغضب.

والإفراط : هو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج من سياسة العقل والدين وطاعتهما فلا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكر واختيار ، ويعمى ويصم عن كل موعظة ، ومن آثاره تغير اللون وشدة الرعدة في الأطراف وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام واضطراب الحركة والكلام وانطلاق اللسان بالفحش والشتم وقبح الكلام والضرب والتهجم ، ولذلك قال ﷺ : الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل.

وعن ميسر قال : ذكر الغضب عند أبي جعفر عليه السلام فقال : إن الرجل ليغضب فما يرضى أبداً حتى يدخل النار ، فأيما رجل غضب على قوم وهو قائم فليجلس من فوره ذلك ، فإنه سيذهب عنه رجز الشيطان ، وأيما رجل غضب على ذي رحم فليدن منه فليمسه ، فإن الرحم إذا مست سكنت.

وعن أبي حمزة الثمالي عنه عليه السلام قال : إن الغضب جمرة من الشيطان توقد في جوف ابن آدم ، وإن أحدكم إذا غضب احمرت عيناه وانتفخت أوداجه ودخل الشيطان فيه ، فإذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليلزم الأرض ، فإن رجز الشيطان يذهب عنه عند ذلك.

وعن الصادق عليه السلام : الغضب مفتاح كل شر.

وعنه ﷺ قال : من كف غضبه ستر الله عورته .

وعنه ﷺ قال : إن في التوراة مكتوب : ابن آدم اذكرني حين تغضب أذكرك عند غضبي فلا أمحقك في ما أمحق ، وإذا ظلمت بمظلمة فارض بانتصاري لك فإن انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك .

وقال ﷺ : من لم يملك غضبه لم يملك عقله .

وعنه ﷺ في ما ناجى الله به موسى : يا موسى أمسك غضبك عمن ملكتك عليه أكف عنك غضبي .

واعلم أن قمع أصل الغيظ من القلب غير ممكن ، بل التكليف إنما هو بكسر سورته وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن ، وينتهي ضعفه إلى أن يظهر أثره في الوجه ، بل ينبغي للإنسان أن يكون غضبه تحت إشارة العقل والشرع ، فيغضب في محل الغضب ويحلم في محل التحلم ، ولا يخرجه غضبه عن الاختيار . قال تعالى : ﴿والكاظمين الغيظ﴾ ولم يقل : والفاقدين الغيظ .

والأسباب المهيجة للغضب : الزهو ، والعجب ، والهزل ، والهزء ، والذل والتعيير ، والمماراة والمضادة ، والغدر ، وشدة الحرص على فضول المال والجاه . وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعاً .

ولا خلاص عن الغضب مع بقاء هذه الأسباب ، فلا بد من إزالتها بأضدادها ، فينبغي أن يميت الزهو بالتواضع ، والعجب بالمعرفة بنفسك ، والفخر بمعرفة أنه من الرذائل وإنما الفخر بالفضائل ، وأما الهزل فيزيله بالجد في طلب الفضائل والأخلاق الحسنة ، وأما الهزء فيزيله بالتكرم عن إيذاء الناس وبصيانة النفس عن أن يُستهزأ بك ، وأما التعيير فبالحذر عن قول القبيح وصيانة النفس عن مرِّ الجواب ، وأما شدة الحرص على مزايا العيش فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلباً لعز الاستغناء وترفعاً عن ذل الحاجة .

وكل خلق من هذه الأخلاق يفتقر في علاجه إلى رياضة وتحمل

مشقة ، وأصل الرياضة في إزالة هذه الأخلاق يرجع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها وتنفر عن قبحها . ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس ، فإذا انمحت عن النفس فقد زكت وطهرت عن هذه الرذائل وتخلصت عن الغضب الذي يتولد منها.

وعلاجه عند هيجانه ـ كما أشير إليه في الأخبار المتقدمة ـ الاستعاذة من الشيطان ، والجلوس إن كان قائماً ، والاضطجاع إن كان جالساً ، والوضوء أو الغسل بالماء البارد . قال ﷺ : إذا غضب أحدكم فليتوضأ وليغتسل فإن الغضب من النار . وأمر ﷺ بالاستعاذة من الشيطان ، وأن يتفكر في ما ورد في فضائل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال . قال الله في معرض المدح : ﴿والكاظمين الغيظ﴾ وقال ﷺ : من كف غضبه كف الله عنه عذابه ، ومن اعتذر إلى ربه قبل الله عذره ، ومن خزن لسانه ستر الله عورته.

وقال ﷺ : أشدكم من ملك نفسه عند الغضب ، وأحلمكم من عفا عند القدرة.

وقال ﷺ : من أحب السبيل إلى الله تعالى جرعتان : جرعة غيظ تردها بحلم ، وجرعة مصيبة تردها بصبر.

وعن السجاد عليه السلام قال : ما أحب أن لي بذل نفسي حمر النعم ، وما تجرعت جرعة أحب إلي من جرعة غيظ لا أكافي بها صاحبها.

وعن الباقر عليه السلام قال : من كظم غيظاً وهو يقدر على إمضائه حشا الله قلبه أمناً وإيماناً يوم القيامة.

وعن الصادق عليه السلام قال : نعم الجرعة الغيظ لمن صبر عليها ، فإن عظيم الأجر لمن عظم البلاء ، وما أحب الله قوماً إلا ابتلاهم.

وعنه عليه السلام : ما من عبد كظم غيظاً إلا زاده الله تعالى عزاً في الدنيا وعزاً في الآخرة.

وعنه ﵇ : من كظم غيظاً ولو شـاء أن يمضيه أمضـاه ملأ الله قلبـه يوم القيامة رضاه.

وعن الصـادق ﵇ قـال : قـال رسـول الله ﷺ : مـا أعـز الله بجهـل قط ، ولا أذل بحلم قط.

وعن حفص قـال : بعث الصادق ﵇ غـلامـاً لـه في حـاجـة فـأبـطأ ، فخرج ﵇ في أثره فوجده نائماً ، فجلس عند رأسه يـروحه حتى انتبـه فقال له أبـو عبد الله ﵇ : يـا فلان والله مـا ذلك لـك تنام الليـل والنهار ، لـك الليل ولنا منك النهار.

الباب الخامس
في الحقد

إعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً ، ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والتنفر عنه ، وأن يدوم على ذلك ويبقى ، وقد قال رسول الله ﷺ : المؤمن ليس بحقود . والحقد ثمرة الغضب ، والحقد يثمر ثمانية أمور :

الأول : الحسد ، وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة منه .

الثاني : أن تزيد على إضمار الحسد في الباطن فتشمت بما يصيبه من البلاء .

الثالث : أن تهجره وتقطعه وإن أقبل عليك .

الرابع : أن تعرض عنه استصغاراً له .

الخامس : أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر وغيره .

السادس : أن تحاكيه استهزاءً وسخرية منه .

السابع : إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه .

الثامن : أن تمنعه حقه من صلة رحم أو قضاء دين أو رد مظلمة وكل ذلك حرام.

وأقل درجات الحقد أن يحترز من الآفات الثمانية ، ولكن تستثقله وتبغضه في الباطن وتمتنع من البشاشة والرفق والعناية.

والأولى أن يبقى على حالته السابقة معه ، وإن أمكنه أن يزيد في الإحسان على العفو مجاهدة للنفس وإرغاماً للشيطان فذلك مقام الصديقين ، وهو من أفضل أعمال المقربين ، فللحقود ثلاثة أحوال عند القدرة.

أحدها : أن يستوفي حقه الذي يستحقه من غير زيادة ونقصان ، وهو العدل.

والثاني : أن يحسن إليه بالعفو والصلة ، وذلك هو الفضل .

والثالث : أن يطلبه بما لا يستحقه ، وذلك هو الجور.

وعلاج الحقد أن يعلم أنه مهما كان في قلبه حقد فلا يزال مغموماً مهموماً مبتلى معذباً في الدنيا والآخرة ، وأن ينظر في فضيلة العفو والرفق . قال تعالى : ﴿خذ العفو وأمر بالعرف﴾ . وقال تعالى : ﴿وإن تعفو أقرب للتقوى﴾.

وعن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ألا أخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة ؟ العفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك ، والإحسان إلى من أساء إليك ، وإعطاء من حرمك.

وعنه عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : عليكم بالعفو ، فإن العفو لا يزيد العبد إلا عزاً ، فتعافوا يعزكم الله .

وعن معتب قال : كان أبو الحسن موسى عليه السلام في حائط له يصرم ، فنظرت إلى غلام له قد أخذ كارة من تمر فرمى بها وراء الحائط ، فأتيته

وأخـذته وذهبت بـه إليـه ، فقلت لـه : جعلت فـداك إني وجـدت هـذا وهـذه الكـارة . فقال للغـلام : فلان . قـال : لبيك . قـال : أتجوع؟ قـال : لا يـا سيـدي . قال : فتعـرى ؟ قـال : لا يـا سيـدي . قـال : فـلأي شيء أخـذت هذا ؟ قال : اشتهيت ذلك قال : إذهب فهي لك ، وقال : خلوا عنه.

وعن الكاظم عليه السلام قال : الرفق نصف العيش.

الباب السادس
في الحسد

وهو من نتائج الحقد كما سبق ، والحقد من نتائج الغضب ، فهو فرع فرع الغضب . وللحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى . قال الباقر عليه السلام : إن الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب.

وقال الصادق عليه السلام : آفة الدين الحسد والعجب والفخر.

وعنه عليه السلام قال : قال الله تعالى لموسى : يابن عمران لا تحسدن الناس على ما آتيتهم من فضلي ، ولا تمدن عينيك إلى ذلك ولا تتبعه نفسك ، فإن الحاسد ساخط لنعمي صادٌ لقسمي الذي قسمت بين عبادي ، ومن يك كذلك فلست منه وليس مني.

وعنه عليه السلام قال : اتقوا الله ولا يحسد بعضكم بعضاً ـ الحديث.

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : الحاسد مضر بنفسه قبل أن يضر بالمحسود ، كإبليس أورث بحسده لنفسه اللعنة ولآدم الاجتباء والهدى والرفع إلى محل حقائق العهد والاصطفاء ، فكن محسوداً ولا تكن حاسداً ، فإن ميزان الحاسد أبداً خفيف يثقل ميزان المحسود والرزق مقسوم فماذا ينفع الحسد الحاسد وما يضر المحسود الحسد ، والحسد أصله من عمى القلب وجحود فضل الله وهما جناحان للكفر ، وبالحسد وقع ابن آدم في

حسرة الأبد وهلك مهلكاً لا ينجو منه أبداً ، ولا توبة للحاسد لأنه مصر عليه معتقد به مطبوع فيه ، يبدو بلا معارض به ولا سبب ، والطبع لا يتغير عن الأصل وإن عولج .

ثم اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة ، فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان :

إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها ، وهذه الحالة تسمى حسداً .

والثانية : أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ولكنك تشتهي لنفسك مثلها ، وهذه تسمى غبطة ومنافسة ، وقد يوضع أحد اللفظين بدل الآخر ، ولا حجر في الأسامي بعد فهم المعاني .

قال ﷺ : إن المؤمن يغبط والكافر يحسد . وقال تعالى : ﴿وفي ذلك فليتنافس المتنافسون﴾ .

وقال ﷺ : لا حسد إلا في اثنين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه الله على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله علماً فهو يعمل به ويعلمه الناس . فسمى الغبطة حسداً كما قد يسمى الحسد منافسة .

والحسد حرام على كل حال إلا في نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على تهيج الفتنة وإفساد ذات البين وإيذاء الخلق ، فلا يضر كراهتها ومحبة زوالها من حيث هي آلة الفساد لا من حيث إنها نعمة ، بحيث لو أمن فسادها لم يغمه تنعمه .

والحسد إنما يكثر بين أقوام تجمعهم روابط تتوارد على أغراضهم ، فإذا خالف واحد صاحبه في غرض من أغراضه نفر طبعه وأبغضه وثبت الحقد فيه ، وحيث لا رابطة بين شخصين فلا تحاسد بينهما ، فلذلك يحسد العالم العالم دون العابد ، والتاجر يحسد مثله ولا يحسد العالم ، ويحسد الرجل أخاه وابن عمه أكثر مما يحسد الأجانب ، والمرأة تحسد ضرتها

وسرية زوجها أكثر مما تحسد أمّ الزوج وابنته ، وذلك للتزاحم على المقاصد .

وأسباب الحسد المذموم :

العداوة : بأن يكره النعمة على المحسود لأنه عدوه ، فلا يريد له الخير .

أو التعزز : وهو أن يعلم أن المحسود يتكبر بالنعمة عليه وهو لا يطيق احتمال كبره وتفاخره لعزة نفسه .

أو الكبر : وهو أن يكون في طبع الحاسد أن يتكبر على المحسود ويمتنع ذلك عليه بنعمة .

أو التعجب : وهو أن تكون النعمة عظيمة والمنصب كبيراً ، فيتعجب من فوز مثله بمثل تلك النعمة .

أو الخوف : من فوت المقاصد المحبوبة ، وهو أن يخاف من فوت مقاصده بسبب نعمته ، بأن يتوصل بها إلى مزاحمته في أغراضه .

أو حب الرياسة : التي تبتنى على الاختصاص بنعمة لا يساوى فيها ، أو خبث نفس وبخلها وشحها بالخير لعباد الله وإن كانت النعمة لا تثقل .

وقد تجتمع هذه الأسباب أو أكثرها في شخص واحد فيعظم الحسد لذلك .

وعلاج الحسد علمي وعملي :

ما العلمي : فهو أن يعلم الحاسد أن للحسد ضرراً عليه في الدنيا والدين ، لأنه بالحسد سخط قضاء الله تعالى وكره نعمته التي قسمها لعباده وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته . وهذه جناية عظيمة على العدل الحكيم . على أن الحاسد فارق أولياء الله في حبهم الخير لعباد الله ، وشارك إبليس وسائر الكفار في حبهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم . قال تعالى : ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها﴾ وقال

تعالى : ﴿ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم﴾ .

وأما ضرره في الدنيا فهو أن الحاسد لا يزال متألماً بالحسد مهموماً مغموماً معذباً ، لأن أعداءه لا تزال نعم الله تتجدد عليهم يوماً فيوماً وساعة فساعة ولا تزول النعمة عن المحسود بالحسد ، ولو كان كذلك لما بقيت نعمة على المؤمنين لحسد الكفار إياهم ، ولا ضرر على المحسود أصلاً ، لأن ما قدره الله تعالى له من النعم فلا حيلة في دفعه ، بل الضرر على الحاسد كما عرفت.

والحسد ينفع المحسود في الدنيا والآخرة:

أما في الدنيا فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء وغمهم وشقاوتهم وكونهم معذبين مغمومين ، ولا عذاب أعظم مما في الحاسد من ألم الحسد ، وقد فعل الحاسد بنفسه ما هو مراد أعدائه.

وأما في الدين فلأن المحسود مظلوم من جهة الحاسد ، لا سيما إذا أخرجه الحسد إلى القول أو الفعل بالغيبة أو القدح فيه وهتك ستره وذكر مساوئه ، فهذه هدايا يهديها الحاسد إلى المحسود بانتقال حسناته الى ديوانه ، حتى يلقاه مفلساً محروماً من الحسنات ، كما حرم من الراحة في الدنيا فقد أضيف للمحسود نعمة الى نعمة وإلى الحاسد شقاوة إلى شقاوة.

وأما العلاج العملي : فهو أن يحكم الحسد وكل ما يتقاضاه من قول أو فعل ، فينبغي أن يكلف نفسه بنقيضها ، فإن بعثه الحسد على القدح فيه كلف لسانه المدح له والثناء عليه ، وإن حمله على التكبر ألزم نفسه التواضع والاعتذار إليه ، وإن بعثه على كف الأنعام عنه ألزم نفسه الزيادة . ومهما فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه ، ومهما أحبه عاد الحاسد وأحبه وتولدت بينهما الموافقة التي تقطع مادة الحسد ، ويصير ما تكلفه أولاً طبعاً آخر.

والأصل في العلاج قمع أسباب الحسد من الكبر وعزة النفس وشدة

الحرص كما يأتي إن شاء الله تعالى.

واعلم أن الحاسد له في أعدائه ثلاثة أحوال:

الأولى : أن يحب مساءتهم بطبعه ولكنه يكره حبه لذلك وميل قلبه إليه بعقله، ويمقت نفسه عليه ويودُّ أن يكون له حيلة في إزالة ذلك الميل، وهذا القسم معفو عنه قطعاً لأنه غير داخل تحت الاختيار.

الثانية : أن يحب ذلك ويظهر الفرح بمساءته إما بلسانه أو بجوارحه، وهذا هو الحسد المحظور قطعاً.

الثالثة : وهي بين الطرفين أن يحسد بالقلب من غير مقته لنفسه على حسده ومن غير إنكار منه على قلبه، لكن يحفظ جوارحه من طاعة الحسد في مقتضاها، وهذا محل خلاف بين العارفين : فقيل إنه لا يخلو عن إثم بقدر قوة ذلك الحب وضعفه، لأنك وإن كفيت ظاهرك بالكلية إلا أنك بباطنك تحب زوال النعمة، وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة، فأنت أيضاً حسود عاصٍ لأن الحسد صفة القلب لا صفة الفعل، قال تعالى : ﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ وقال : ﴿ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾، والفعل ـ كالغيبة والوقيعة في المحسود ـ إنما هو عمل صادر عن الحسد لا عين الحسد.

وذهب ذاهبون إلى أنه لا يأثم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه، ويرشد إليه كثير من الأخبار : فروي من طرق العامة بأسانيد عديدة عن النبي ﷺ قال : وضع عن أمتي تسع خصال : الخطأ، والنسيان، وما لا يعلمون، وما لا يطيقون، وما اضطروا إليه، وما استكرهوا عليه، والطيرة، والوسوسة في التفكير في الخلق، والحسد ما لم يظهر بلسان أو يد.

وعنه ﷺ قال : ثلاث لا ينجو منهن أحد : الظن، والطيرة، والحسد. وسأحدثكم بالمخرج من ذلك : إذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض، وإذا حسدت فلا تبغ.

وفي رواية أخرى : ثلاث لا ينجو منهن أحـد وقلَّ من ينجـو منهن . . . إلى آخرها.

وفي روايـة أخرى : ثـلاثة في المؤمن لـه منهن مخرج ، ومخـرجـه من الحسد أن لا يبغى.

الباب السابع
في الرياء

وتحقيق الكلام فيه في فصول

الفصل الأول : في ذمه وحرمته :

قال الله تعالى : ﴿ويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون﴾ وقال تعالى : ﴿يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾ وقال تعالى : ﴿كالذي ينفق ماله رآء الناس﴾ وقال تعالى : ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾.

وقال رسول الله ﷺ : إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون لهم في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء ! ! .

وقال ﷺ : يقول الله تعالى : من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو له كله وأنا منه بريء ، وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك.

وقال ﷺ : لا يقبل الله عملاً فيه مقدار ذرة من رياء.

وقال ﷺ : إن أدنى الرياء شرك.

وعن الصادق عليه السلام قال : قال الله تعالى : أنا خير شريك ، من أشرك

معي غيري في عمل عمله لم أقبله إلا ما كان لي خالصاً.

وعنه ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: سيأتي على الناس زمان تخبث فيه سرائرهم وتحسن فيه علانيتهم طمعاً في الدنيا، لا يريدون به ما عند ربهم، يكون دينهم رياء، لا يخالطهم خوف، يعمهم الله بعقاب فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجاب لهم.

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: إن الملك يصعد بعمل العبد مبتهجاً به، فإذا صعد بحسناته يقول الله: «اجعلوها في سجين، إنه ليس إياي أراد به».

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: ثلاث علامات للمرائي: ينشط إذا رأى الناس، ويكسل إذا كان وحده، ويحب أن يحمد في كل أموره.

وقال عليه السلام: أخشوا الله خشية ليست بتقدير، واعملوا في غير رياء ولا سمعة، فإنه من عمل لغير الله وكّله الله إلى عمله.

وقال الصادق عليه السلام: اجعلوا أمركم هذا لله ولا تجعلوه للناس، فإنه ما كان لله فهو لله وما كان للناس فلا يصعد إلى الله.

وعنه عليه السلام: كل رياء شرك، إنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس، ومن عمل لله كان ثوابه على الله.

وعنه عليه السلام في قول الله عز وجل ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ قال: الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله، إنما يطلب تزكية الناس يشتهي أن يسمع به الناس، فهذا الذي أشرك بعبادة ربه. ثم قال: ما من عبد سرّ خيراً فذهبت الأيام أبداً حتى يظهر الله له خيراً، وما من عبد يسر شراً فذهبت الأيام حتى يظهر الله له شراً.

وعنه عليه السلام: ما يصنع أحدكم إن يظهر حسناً ويسر سيئاً، أليس يرجع الى نفسه فيعلم أن ذلك ليس كذلك، والله تعالى يقول: ﴿بل الإنسان

على نفسه بصيرة﴾ إن السريرة إذا صحت قويت العلانية.

الفصل الثاني:

في حقيقة الرياء والفرق بينه وبين السمعة وأقسام الرياء

أصل الرياء من الرؤية: وهي طلب المنزلة في قلوب الناس بإراءتهم خصال الخير. والسمعة من السماع: وهي طلب المنزلة في قلوب الناس بإسماعهم ما يوجب ذلك.

وحدُّ الرياء: هو إرادة المنزلة بطاعة الله تعالى. والمرائي هو العابد. والرائي هو الناس المطلوب رؤيتهم لطلب المنزلة في قلوبهم. والمراءى به هي الخصال التي قصد المرائي إظهارها. والرياء هو قصده إظهار ذلك.

والمراءى به كثير وتجمعه خمسة أقسام، وهي: مجامع ما يتزين به العبد للناس البدن والزي، والقول، والعمل، والأتباع، والأشياء الخارجة.

وأهل الدنيا يراؤون بهذه الأسباب الخمسة، إلا أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال ليست من جملة الطاعات أهون الرياء بالطاعات.

القسم الأول: الرياء في الدين بالبدن بإظهار النحول والصفار، ليوهم بذلك شدة الاجتهاد وعظم الحزن على أمر الدين وغلبة خوف الآخرة وقلة الأكل وسهر الليل، ويقرب منه خفض الصوت وإغارة العينين وذبول الشفتين ليوهم أنه مواظب على الصوم، ولهذا قال عيسى ﷺ: إذا صام أحدكم فليدهن رأسه ويرجل شعره ويكحل عينيه، وذلك لخوف الرياء.

القسم الثاني: الرياء بالزي والهيئة، كتشعث شعر الرأس وحلق الشارب وإطراق الرأس في المشي والهدوء في الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه وغلظ الثياب وتشميرها وترقيع الثوب لإظهار أنه متابع للسنة غير مقبل على الدنيا.

القسم الثالث : الرياء بالقول ، كالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار وتحريك الشفتين بمحضر الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق ونحو ذلك.

الرابع : الرياء بالأعمال ، كمراءاة المصلي بطول القيام والركوع والسجود وإطراق الرأس وترك الالتفات ونحو ذلك.

الخامس : المراءاة بالأصحاب والزائرين والمخالطين ، بأن يكثر التردد إلى العلماء والعباد والزهاد والفقراء والمساكين ، أو يصير سبباً لكثرة ترددهم إليه ليقال إنه عظيم الرتبة في الدين.

الفصل الثالث : في درجات الرياء :

إعلم أن الرياء يتفاوت فبعضه أشد وأغلظ من بعض ، ويختلف باختلاف أركانه ، وأركانه ثلاثة : المراءى به ، والمراءى لأجله ، ونفس قصد الرياء :

الركن الأول ـ نفس قصد الرياء :

وله درجات أربع : «الأولى» ـ وهي أغلظها ـ أن لا يكون مراده الثواب أصلاً ، كالذي يصلي بين أظهر الناس الفرض أو النفل ولو انفرد لم يصلِ . «الثانية» أن يكون له قصد الثواب أيضاً قصداً ضعيفاً . «الثالثة» أن يكون قصد الثواب وقصد الرياء متساويين ، بحيث لو كان كل منهما خالياً من الآخر لم يبعثه على العمل . «الرابعة» أن يكون اطلاع الناس مرجحاً ومقوياً لنشاطه ، ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة . والكل حرام ومبطل للعمل لما تقدم من قوله تعالى في الحديث القدسي : أنا أغنى الأغنياء عن الشرك ، وقوله تعالى : ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ . وقوله ﷺ في علامة المرائي : يكسل في الخلوة وينشط عند الناس.

الركن الثاني ـ المراءى به:

وهو الطاعات ، وهو ينقسم إلى : الرياء بأصول العبادات ، وإلى الرياء بأوصافها:

القسم الأول : له درجات ثلاث : «الأولى» الرياء بأصل الإيمان ، وهو أغلظ أبواب الرياء ، وأصحابه من المنافقين المخلدين في النار ، وربما كان حال هذا أشد من الكافر حيث جمع بين كفر الباطن ونفاق الظاهر. «الثانية» الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصول الدين . كالرياء بالصلاة والزكاة والحج والجهاد ، وهذا أهون من الأول . «الثالثة» الرياء بالنوافل والسنن التي لو تركها لا يعصي ولكن يكسل عنها في الخلوة وينشط عند الناس.

القسم الثاني : الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها ، وهي أيضاً على ثلاث درجات :

الأولى : أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة ، كالذي يكون غرضه تخفيف القراءة والركوع والسجود فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود والقيام.

الثانية : أن يرائي بفعل ما لا نقصان في تركه ولكن فعله في حكم التتمة والتكملة للعبادة ، كالتطويل في الركوع والسجود ومدّ القيام وتحسين الاعتدال وطول القراءة والتأني فيها وفي الأذكار .

الثالثة : أن يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل ، كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده الصف الأول ويمين الإمام ونحو ذلك.

الركن الثالث - المراءى لأجله:

وله درجات ثلاث :

الأولى : وهي أشدها - أن يكون مقصده التمكن من معصية ، كالذي يرائي بعباداته ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل والامتناع من أكل الشبهات ، وغرضه أن يعرف بالأمانة فيولى القضاء والأوقاف والوصايا أو مال الأيتام فيأخذها أو يودع الودائع فيجحدها.

الثانية : أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة.

الثالثة : ان يكون غرضه أن لا ينظر إليه بعين النقص وأن يعدَّ من الخاصة والزهاد ، كالذي يمشي مستعجلاً فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة كي لا يقال إنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار ، أو يبدر منه المزاح فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء وإظهار الحزن.

تقسيم آخر :

الرياء منه : جلي ، وخفي ، وأجلى ، وأخفى :

فالجلي الذي يبعث على العمل ويحمل عليه.

وأخفى منه ما لا يحمل على العمل بمجرده إلا أنه يخفف العمل ، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه، فإذا دخل عليه الضيوف نشط.

وأخفى من ذلك أن يعرض بإظهار العمل بالشمائل ، كإظهار النحول والصفار وخفض الصوت وجفاف الريق وآثار الدموع وغلبة النعاس الدال على طول التهجد.

وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الإطلاع ولا يسر بظهور طاعته ، ولكنه إذا رأى الناس أحب أن يبدأوه بالسلام ، وأن يقابلوه بالبشاشة والتوقير ، وأن يثنوا عليه وينبسطوا في قضاء حوائجه ، ويوسعوا له في المكان ، وإن قصر فيه مقصر ثقل على قلبه ، ولو لم تسبق منه تلك الطاعات والعبادات لما توقع ذلك.

وقد يكون العمل مخفياً قد قصد به وجه الله تعالى ولكن لما اتفق اطلاع غيره عليه استرَّ بذلك ، فإن كان قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أطلعهم عليه وأظهر الجميل من أحواله فيستدل به على حسن صنيع الله به ونظره له وإلطافه به ، فيكون فرحه بجميل نظر الله لا بحمد الناس وقيام المنزلة في قلوبهم ، ولا بأس بذلك ، قال تعالى : ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾، وكذا إذا

استدل بإظهار الله الجميل وستره القبيح عليه في الدنيا أنه كذلك يفعل به في الآخرة ، إذ قال ﷺ : ما ستر الله على عبد في الدنيا إلا ستر عليه في الآخرة ، فيكون الأول فرحاً بالقبول في الحال.

وهذا التفات إلى المستقبل ، وكذا إذا كان سروره من حيث رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره ، فيكون له أجر العلانية بما أظهر آخراً وأجر السر بما قصده أولاً ، ومن اقتدى به في طاعة فله أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

وكذا إذا فرح بطاعتهم لله في مدحهم إياه وبحبهم للمطيع وبميل قلوبهم إلى الطاعة ، كما روي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : يا رسول الله أسرُّ العمل لا أحب أن يطلع عليه أحد ، فيطلع عليه فيسرني ؟ قال : لك أجران أجر السر وأجر العلانية.

وعن الباقر عليه السلام أنه سئل عن الرجل يعمل الشيء من الخير فيراه إنسان فيسره ذلك ؟ قال : لا بأس ، ما من أحد إلا وهو يحب أن يظهر الله له في الناس الخير إذا لم يكن صنع ذلك لذلك.

وأما إذا كان فرحه وسروره من حيث قيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويقابلوه بالإكرام في مصادره وموارده فهو رياء مذموم.

ومن جملة أقسام الرياء ترجيحه العمل في الملأ على الخلاء ، وعدُّ بعضهم عكسه أيضاً رياء ، لأنه لو كان عمله خالصاً لله لما تفاوت عنده الخلاء والملاء .

ومن جملة أقسامه ترك العمل خوفاً من الوقوع في الرياء ، فإنه قد أراح الشيطان من الإفساد .

تقسيم آخر :

قد يكون الرياء بغير العبادات ، وهو قد يكون مستحباً وقد يكون

واجباً ، إذ يجب على المؤمن صيانة عرضه وأن لا يفعل ما يعاب عليه ، فلا يليق بذوي المروءات أن يرتكبوا الأمور الخسيسة بأنفسهم عند مشاهدة الناس وإن جاز لهم في الخلوة ، ولهذا ورد الأمر بالتزين وإظهار النعمة وإظهار الغنى وكتم الفقر ونحو ذلك من الشريعة المقدسة.

وروي أن رسول الله ﷺ أراد يوماً أن يخرج على أصحابه وكان ينظر في جب من الماء ويسوي عمامته وشعره ، فقيل له ، أو تفعل ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم إن الله يحب من العبد أن يتزين لإخوانه إذا خرج إليهم.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: ليتزين أحدكم لأخيه المسلم كما يتزين للغريب الذي يحب أن يراه في أحسن الهيئة.

وقال الصادق عليه السلام: الثوب النقي يكبت العدو. . . وكل ذلك رياء محبوب.

الفصل الرابع : في سبب الرياء وعلاجه :

إعلم أن الرياء بالعبادة إنما ينشأ من حب لذة الحمد ، والفرار من ألم المذمة ، والطمع مما في أيدي الناس ، فالعلاج أن يعرف العبد مضرة الرياء ، وما يفوته من صلاح قلبه ، وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله ، وما يتعرض له من العقاب والمقت والخزي ، وما يفوته من ثواب الآخرة ورضاء الله وأنه قد أتعب بدنه وأحبط أجره ، وقد خسر الدنيا والآخرة لما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق ، فإن رضاء الناس غاية لا تدرك ، وكلما يرضى به فريق يسخط به فريق ، ورضاء بعضهم في سخط بعض ، ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليهم وأسخطهم عليه.

والأمور كلها والقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء ، ومن أصلح في ما بينه وبين الله أصلح الله في ما بينه وبين الناس، ومن أسخط الله الذي بيده جميع الأمور برضاء الناس الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا

حياة ولا نشوراً فهو أحمق سفيه ، وكيف يبعثه على العمل الطمع بما في أيدي الناس وهو يعلم أن الله هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء .

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

وربما كشف الله للناس خبث سره فيمقتوه ويكرهوه ويخسر الدنيا والآخرة ، ولا بد من كشف سره على رؤوس الأشهاد يوم حشر العباد ، ولو أخلص لله عمله لكشف الله لهم إخلاصه وحببه إليهم وسخرهم له ، وأطلق ألسنتهم بحمده والثناء عليه . هذا كله مع أنه لا كمال في مدحهم ولا نقص في ذمهم ، ولو كان راغباً في المدح وخائفاً من الذم فليرغب في مدح الملائكة المقربين ، بل في مدح رب العالمين ، وليخش من ذمه وذمهم .

ثم ينبغي أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش ، ويجعل قلبه قانعاً بعلم الله واطلاعه على عبادته، ولا تنازعه نفسه إلى طلب علم غير الله به ، وإذا واظب على ذلك مدة سقط عنه ثقله .

وليستعن بالله ويجاهد ، فمن العبد المجاهدة ومن الله الهداية ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا والله لا يضيع أجر المحسنين﴾ .

الباب الثامن
في العجب

وهو غالباً إنما يقع بعد تصفية العمل من شوائب الرياء ، والكلام فيه يقع في فصول :

الفصل الأول : في حقيقته وأقسامه والفرق بينه وبين الإدلال :

العجب هو إعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم . وفي الكافي عن علي بن سويد عن أبي الحسن عليه السلام قال : سألته عن العجب الذي يفسد العمل ؟ فقال : للعجب درجات : منها أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً ويحسب أنه يحسن صنعاً ، ومنها أن يؤمن العبد بربه فيمنُّ على الله ولله عليه فيه المنّة .

ثم إذا كان خائفاً على زوال تلك النعمة مشفقاً على تكدرها أو يكون فرحه بها من حيث إنها من الله فليس بمعجب ، بل هو إعظام النعمة مع نسيان إضافتها إلى المنعم ، وإذا انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقاً وأنه منه بمكان حتى توقع بعمله كرامة له في الدنيا ، واستبعد أن يجري عليه مكروه استبعاداً يزيد على استبعاده في ما يجري على الفساق سمي هذا الإدلال بالعمل ، فكأنه يرى لنفسه على الله دالة . وكذلك قد يعطي لغيره شيئاً فيستعظمه ويمن عليه فيكون معجباً ، فإن

استخدمه واقترح عليه الاقتراحات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلاً عليه.

وآفات العجب كثيرة ، فإنه يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه ، ويتولد من الكبر الآفات الكثيرة ، ويدعو الى نسيان الذنوب وإهمالها لظنه أنه مستغنٍ عن تفقدها ، ويدعو إلى استعظام العبادات والطاعات والمنة بها على الله ، وكفى بذلك نقصاً . ويدعو إعجابه بها الى التعامي عن آفاتها ، والمعجب يغتر بنفسه وبربه ويأمن مكر الله ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

ويمنعه العجب عن الاستشارة والاستفادة والتعلم ، فيبقى في ذل الجهل.

وربما يعجب برأيه الخطأ في الأصول والفروع فيهلك.

الفصل الثاني : في ما ورد في ذمه :

قال الله تعالى في معرض الإنكار : ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم﴾ وقال تعالى : ﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا﴾ فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم . وقال تعالى : ﴿الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ وقال تعالى : ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ وهو يرجع إلى العجب بالعمل .

وقال النبي ﷺ : ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه.

وقال ﷺ : لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك: العجب العجب.

وقال الصادق عليه السلام: إن الله تعالى علم أن الذنب خير للمؤمن من العجب ، ولولا ذلك ما ابتلى مؤمناً بذنب أبداً.

وقال عليه السلام: من دخله العجب هلك.

وقال عليه السلام: إن الرجل ليذنب الذنب فيندم عليه ويعمل العمل فيسره ذلك فيتراخى عن حاله تلك ، فلئن يكون على حاله تلك خير له مما دخل فيه.

وعنه عليه السلام قال : أتى عالم عابداً فقال له : كيف صلواتك ؟ فقال : مثلي يسأل عن صلواته وأنا أعبد الله منذ كذا وكذا . قال : فكيف بكاؤك ؟ قال : أبكي حتى تجري دموعي . فقال العالم : إن ضحكك وأنت خائف أفضل من بكائك وأنت مدلّ إن المدل لا يصعد من عمله شيء .

وعنه عليه السلام قال: دخل رجلان المسجد أحدهما عابد والآخر فاسق فخرجا من المسجد والفاسق صدّيق والعابد فاسق ، وذلك أنه يدخل العابد المسجد مدلاً بعبادته يدل بها فتكون فكرته في ذلك ، وتكون فكرة الفاسق في الندم على نفسه ويستغفر الله مما صنع من الذنوب.

وعنه عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : بينما موسى عليه السلام جالس إذ أقبل إبليس وعليه برنس ذو ألوان ، فلما دنا منه خلع البرنس وقام إلى موسى عليه السلام فسلم عليه . فقال له موسى : من أنت ؟ فقال أنا إبليس . قال : أنت فلا أقرب الله دارك . قال : إني إنما جئت لأسلم عليك لمكانك من الله تعالى . قال : فقال له موسى عليه السلام: فما هذا البرنس ؟ قال : أختطف به قلوب بني آدم . فقال له موسى : فأخبرني بالذنب الذي إذا أذنبه ابن آدم استحوذت عليه ؟ فقال : إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه.

وعنه عليه السلام قال : قال الله تعالى لداود عليه السلام : يا داود بشر المذنبين أني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب وأنذر الصديقين أن لا يعجبوا بأعمالهم ، فإنه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك.

وقال الصادق عليه السلام في مصباح الشريعة : العجب كل العجب ممن يعجب بعمله وهو لا يدري بم يختم له ، فمن أعجب بنفسه وفعله فقد ضل

عن نهج الرشـاد وادعى ما ليس لـه ، والمدعي من غير حق كاذب وإن خفيت دعواه وطـال دهره ، فإنه أول ما يفعـل بالمعجب نـزع ما أعجب بـه ليعلم أنه عاجز فقير ، ويشهد على نفسه لتكون الحجة عليه أوكد ـ كما فعل بإبليس.

والعجب نبـات حبها الكفـر وأرضهـا النفـاق ومـاؤهـا البغي وأغصـانهـا الجهل وورقها الضلالة وثمرها اللعنـة والخلود في النار ، فمن اختـار العجب فقد بذر الكفر وزرع النفاق ، ولا بد من أن يثمر.

الفصل الثالث : في علاج العجب إجمالاً :

فحيث كانت علة العجب الجهل المحض فـالعلاج هـو العلم والمعرفـة المضـادة لذلـك الجهل ، فليفـرض العجب بفعل داخـل تحت اختيـار العبـد كالعبادات ، فإن العجب بها أبلغ من العجب بـالجمال والقـوة والنسب مما لا يدخل تحت الاختيار ، فيقال له الورع والتقوى والعبادة.

والعمل الذي بـه يعجب إما أن يكـون يعجب به من حيث إنـه فيه وهـو محله ومجـراه ، أو من حيث إنه منـه وبسببه وقـدرته وقـوته ، فـإن كـان الأول فهو جهل ، لأن المحل مستخر وإنمـا يجري فيـه وعليه من جهـة غيره ، وهـو لا مدخل له في الإيجاد والتحصيـل ، فكيف يعجب بما ليس إليـه . وإن كان الثـاني فينبغي أن يتأمـل في قدرتـه وإرادته وأعضـائه وسـائر الأسبـاب التي بها يتم عمله أنهـا من أين كانت لـه ، فإن كـان علم أن جميع ذلـك نعمة من الله إليـه من غير حق سبق لـه فينبغي أن يكون إعجـابـه بجـود الله تعـالى وكـرمـه وفضله ، إذ تفضّل عليه بما لا يستحقه.

وإن قـال : وفقني للعبادة لحبي لـه ، فيقـال لـه : ومن خلق الحب في قلبك ؟ فسيقول : هو ، فيقال له : فالحب والعبـادة كلاهمـا نعمتان من عنـده ابتـدأك بهمـا من غيـر استحقـاق من جهتـك ، إذ لا وسيلة لـك ولا عـلاقـة ، فيكـون الإعجاب بجـوده تعالى إذ أنعم بـوجودك ووجـود صفـاتـك وأعمـالـك وأسباب أعمالـك ، فلا معنى لعجب العـالم بعلمه والعابـد بعبادتـه والجميل بجماله والغني بغنائه ، لأن كل ذلك من فضل الله.

ومن العجائب أن تعجب بنفسك ولا تعجب بمن إليه الأمر كله وبجوده وفضله وكرمه وإنعامه.

الفصل الرابع : في أقسام العجب وتفصيل علاجه :

إعلم أن الإنسان قد يعجب بالأسباب التي بها يتكبر وعلاجه ما يأتي في التكبر ، وقد يعجب بما لا يتكبر به كعجبه بالرأي الخطأ الذي تزين له بجهله وفي ما به العجب ثمانية أقسام :

الأول : أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته وصحته وقوته وتناسب أشكاله وحسن صورته ، وعلاجه التفكر في أقذار باطنه وفي أول أمره وما إليه يكون ، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة كيف تمزقت في التراب واستقذرها طباع أولي الألباب.

الثاني : القوة والبطش ، كما حكى الله عن قوم قالوا ﴿**من أشد منا قوة**﴾ وعلاجه أن يعلم أن حمى يوم تضعف قوته ، وأن البقة والذباب والشوكة تعجزه.

الثالث : العجب بالعقل والفطنة لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا وعلاجه أن يشكر الله على ما رزقه من العقل ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يختل عقله بحيث يصير مضحكة للناس.

الرابع : العجب بالنسب الشريف كالهاشمي ، وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه لحق بهم قد جهل ، ويحق أن يقال له :

لئن فخرت بآباء ذوي نسب لقد صدقت ولكن بئسما ولدوا

الخامس : العجب بنسب السلاطين والظلمة وأعوانهم دون نسب العلم والدين ، وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم ومساوئهم وأنهم ممقوتون عند الله وقد استحقوا النار وبئس القرار.

السادس : العجب بكثرة العدد من الخدم والغلمان والولد والأقارب

والعشائر والأنصار ، كما قال الكافرون : «نحن أكثر أموالاً وأولاداً» والعلاج أن يتفكر في ضعفه وضعفهم ، وأنهم كلهم عبيد وعجزة لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، وكيف يعجب بهم وسيدفن في قبره بعد نزول هادم اللذات ذليلاً مهيناً لا ينفعه ولد ولا أهل ولا صاحب ولا حميم ، ويهربون منه يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه.

السابع : العجب بالمال ، كما قال من قال : «أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً» وعلاجه التفكر في آفات المال وغوائله وأنه غادٍ ورائح لا أصل له ، .

وما المال والأهلون إلا وديعة ولا بد يوماً أن ترد الودائع

وإلى أن في اليهود والكفار من هو أكثر منه مالاً ، فينبغي أن يكونوا أحسن منه.

الثامن : العجب بالرأي الخطأ ، كما قال تعالى ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ وقال تعالى : ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾ وعلاجه أن يكون متهماً لرأيه أبداً لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وعرض ذلك على العلماء والعرفاء والصلحاء الماهرين.

الباب التاسع
في التكبر

وهو الاستروواح والركون الى رؤية النفس فوق المتكبر عليه ، وهو من نتائج العجب وبذلك يفترق عنه ، فإن العجب لا يستدعي معجباً عليه والتكبر يستدعي متكبراً عليه ، والكلام فيه في فصول:

الفصل الأول : في ما ورد في ذمه:

قال الله تعالى : ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ وقال تعالى : ﴿كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار﴾ وقال تعالى : ﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد﴾ وقال تعالى : ﴿إن الله لا يحب المتكبرين﴾.

وقال رسول الله ﷺ : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ، ولا يدخل النار رجل في قلبه مثقال حبة من إيمان.

وقال ﷺ يقول الله تعالى : ﴿الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم﴾.

وفي الكافي عن الباقر ؑ قال : الكبر رداء الله ، والمتكبر ينازع الله رداءه.

وعنه عليه السلام: العز رداء الله ، والكبر رداؤه فمن تناول شيئاً منهما أكبه الله في جهنم.

وعنه عن الصادق عليه السلام قال : لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر.

وعن محمد بن مسلم عن أحدهما قال : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من الكبر . قال : فاسترجعت . فقال : ما لك تسترجع ؟ قلت : لما سمعت منك . فقال : ليس حيث تذهب ، إنما أعني الجحود ، إنما هو الجحود.

وعن الصادق عليه السلام قال : الكبر أن تغمص الناس وتسفه الحق.

وعنه عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن أعظم الكبر غمص الخلق[1] وسفه الحق . قال : قلت ما غمص الخلق وسفه الحق ؟ قال : يجهل الحق ويطعن على أهله ، فمن فعل ذلك فقد نازع الله رداءه.

وعنه عليه السلام قال : إن في جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له (سقَر) شكا إلى الله شدة حره وسأله أن يأذن له أن يتنفس ، فتنفس فأحرق جهنم.

وعنه عليه السلام قال : إن المتكبرين يجعلون في صور الذر يتواطؤهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب.

وعن عمر بن يزيد قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام إنني آكل الطعام الطيب وأشم الرائحة الطيبة وأركب الدابة الفارهة ويتبعني الغلام ، فترى في هذا شيئاً من التجبر فلا أفعله ؟ فأطرق أبو عبد الله عليه السلام ثم قال : إنما الجبار الملعون من غمص الناس وجهل الحق . قال : فقلت له : أما الحق فلا أجهله والغمص لا أدري ما هو . قال : من حقر الناس وتجبر عليهم فذلك الجبار.

وعنه عليه السلام قال : ما من أحد يتيه إلا من ذلة يجدها في نفسه . وفي

(١) غمص الناس: استحقرهم.

رواية أخرى : ما من أحد تكبر أو تجبر إلا لذلة وجدها في نفسه.

وقال النبي ﷺ : لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطراً.

وقال ﷺ : ما زاد الله عبداً يعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله.

وعنه ﷺ : إنه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيء في يده فيكون مهنة لأهله يدفع به الكبر عن نفسه .

وعنه ﷺ أنه قال لأصحابه : ما لي لا أرى عليكم حلاوة العبادة . قالوا : وما حلاوة العبادة ؟ قال : التواضع.

وعنه ﷺ قال : إذا رأيتم المتواضعين من أمتي فتواضعوا لهم ، وإذا رأيتم المتكبرين فتكبروا عليهم ، فإن ذلك لهم مذلة وصغار.

وعن الكاظم عليه السلام قال : التواضع أن تعطي الناس ما تحب أن تعطاه.

الفصل الثاني : في أقسام التكبر :

للتكبر أقسام تنطبق عليه الأخبار السابقة ، لأنه تارة يكون على الحق ، كما كان لنمرود ، فإنه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء ، وكما كان لمن يدعي الربوبية مثل فرعون حيث قال : **﴿أنا ربكم الأعلى﴾** ، إذ تكبر عن العبودية لله ، قال تعالى : **﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾** . ومن هذا القسم التكبر عن الدعاء والتضرع إلى الله تعالى.

وقد يكون على الخلق: إما على الأنبياء والرسل والأئمة من حيث تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس ، كما حكى الله عن قوم قالوا : **﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾** ، **﴿وإن أنتم إلا بشر مثلنا﴾** ، **﴿ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون﴾** ، وكما تكبر أئمة الجور عن الانقياد والإطاعة لأئمة الحق.

وإما أن يكون على سائر الناس ، بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره ؛ فإذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف عن قبوله واشمأز وجحده.

ومن استعظم نفسه فقد اعتقد لها صفة من صفات الكمال ، وذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي ، والديني هو العلم والعمل ، والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار.

فإن كان تكبره بالعلم فعلاجه التفكر في أنَّ العلم قد دله على أن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى ، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله تعالى ، وقد أحب الله منه أن يتواضع ، فلا بد أن يكلف نفسه ما يحبه مولاه ، وليعلم أن حجة الله على أهل العلم أوكد . وقال الصادق عليه السلام: يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد . فإن رأى أعلم منه فلا معنى للتكبر عليه ، وإن رأى مساويه فكذلك ، وإن رأى أدون منه فليعلم أن الحجة عليه أتم ، وأن المدار على الخاتمة.

وكذلك الكلام في العمل ، فإذا رأى أنه أصلح وأورع وأتقى من غيره تيقَّن أن المدار ليس على الأعمال بل على الخاتمة ، فيقول : لعل هذا ينجو وأهلك أنا ، ولعل لهذا خلق كريم في ما بينه وبين الله أستحق به النجاة وأنا بالعكس . ومن جوز أن يكون عند الله شقياً فهو في شغل شاغل عن التكبر.

ومن لم ينظر بعين الرضا إلى أعماله ويعتقد أن الله لو عامله بالعدل لاستحق العقاب على حسناته بزعمه فضلاً عن سيئاته ، فما له سبيل إلى التكبر ، كما قال سيد العابدين : إلهي من كانت محاسنه مساوىء كيف لا تكون مساوئه مساوىء.

وقال تعالى : ﴿والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة﴾ أي يؤتون الطاعات وهم على وجل عظيم من قبولها.

وإن كان تكبره بالنسب فهو تكبر بكمال غيره ، ولو كان المنتسب إليه حياً لكان له أن يقول : الفضل لي وإنما أنت دودة خلقت من فضل فضلتي .

وليعلم نسبه الحقيقي ، فإن أباه القريب نطفة قذرة ، وجده البعيد تراب ذليل . وجعل بدء خلق الإنسان من طين .ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين .

وإن كان كبره بالجمال فعلاجه النظر إلى باطنه بعقله وفكره ليرى من الفضائح ما يكدر عليه التعزز بجماله ، فإن الأقذار في جميع أجزائه والرجيع في أمعائه والبول في مثانته والمخاط في أنفه والبصاق في فيه والوسخ في أذنه والدم في عروقه والصديد تحت بشرته والصنان تحت إبطه يغسل الغائط كل يوم دفعة أو دفعتين بيده ويتردد إلى الخلاء كل يوم مرة أو مرتين ليخرج من باطنه ما لو رآه بعينه لاستقذره فضلاً أن يمسه أو يشمه .

وفي أول أمره خلق من الأقذار الشنيعة وتصور من النطفة وتغذى من دم الحيض وخرج من مجرى البول إلى الرحم مفيض دم الحيض ثم مجرى القذر . ولو ترك نفسه في حياته يوماً لم يتعهده بالتنظيف والغسل لثارت منه الأنتان والأقذار ، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار .

وإن كان تكبره بالقوة فعلاجه التفكر في ما سلط عليه من العلل والأمراض وأنه لو توجع عرق واحد من بدنه لصار أعجز من كل عاجز وأذل من كل ذليل ، وأنه لو سلبه الذباب شيئاً لم يستنقذه منه ، ولو دخلت بقة في أنفه أو نملة في أذنه لقتلته ، ولو دخلت شوكة في رجله لأعجزته ، وأن حمى يوم تحلل من قوته ما لا ينجبر في مدة . ثم إن اشتدت قوته فلا تزيد على قوة الحمار والفيل والجمل والبقر ، وأي افتخار في صفة تشركه البهائم فيها .

وأما التكبر بالغنى وكثرة المال والأتباع فذلك تكبر بمعنى خارج من ذات الإنسان لا كالجمال والقوة والعمل ، وهذا أقبح أنواع التكبر ، فأف لشرف تسبقه اليهود والنصارى وسائر الكفار ، وتف لشرف يأخذه السارق والسلطان .

هذا كله مضافاً إلى ما سلط عليه من الأمراض العظيمة والأسقام

الجسيمة والآفات المختلفة والطبائع المتضادة من المرة والبلغم والريح والدم ، ليهدم البعض من أجزائه البعض ، شاء أم أبى ، رضي أم سخط ، فيجوع كرهاً ويعطش كرهاً ويمرض كرهاً ويموت كرهاً ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا خيراً ولا شراً ، يريد أن يعلم الشيء فيجهله ويريد أن يذكر الشيء فينساه ويريد أن ينسى الشيء ويغفل عنه فلا ينساه ، ويريد أن ينصرف قلبه إلى ما يهمه فيجول في غيره فلا يملك قلبه ولا نفسه ، يشتهي الشيء وربما يكون هلاكه فيه ويكره الشيء وتكون حياته فيه ، يستلذ الأطعمة فتهلكه وترديه ، ويستبشع الأدوية وهي تنفعه وتحييه ، لا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وعلمه وقدرته ، وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله وتختطف روحه ويسلب جميع ما يهواه في دنياه، وهو مضطر ذليل ، إن ترك لم يبق وإن اختطف يفنى ، عبد مملوك لا يقدر على شيء.

فأين هو من التكبر والتجبر وهذا حاله بالفعل ، وقد كان نطفة قذرة وسيكون جيفة منتنة يستقذره كل إنسان ويعود إلى ما كان ، وليته ترك تراباً ، بل يحيا ويعاد ليقاسي الشدائد والآلام ، ويحاسب ويعاقب على ما سلف من الأيام ، ويخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ، ويخرج إلى أهوال القيامة فينظر إلى قيامة قائمة وسماء ممزقة مشققة وأرض مبدلة وجبال مسيرة ونجوم منكدرة وشمس منكسفة وأحوال مظلمة وملائكة غلاظ شداد وجحيم تزفر وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر ، ويرى صحائف منشورة كتب فيها ما نطق به وعمل من قليل وكثير ونقير وقطمير ، وقد أشار الله تعالى إلى مبدأ أمر الإنسان ومنتهاه وأواسط أحواله بقوله : ﴿قتل الإنسان ما أكفره . من أي شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره . ثم أماته فأقبره﴾.

هذا كله العلاج العلمي وأما العملي فهو التواضع بالفعل لله تعالى ولسائر الخلق بالمواظبة على أفعال المتواضعين وأخلاقهم ، فقد روي عن النبي ﷺ أنه كان يأكل على الأرض ويقول : إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد.

وقيل لسلمان : لِمَ لا تلبس ثوباً جديداً ؟ فقال : إنما أنا عبد فإذا أعتقت يوماً لبست . أشار به إلى العتق في الآخرة.

ولا يتم التواضع - بعد المعرفة - إلا بالعمل ، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان والصلاة معاً . وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عمود الدين ، ومن جملة أسرارها المثول قائماً وراكعاً وساجداً ، وقد كانت العرب قديماً يأنفون من الانحناء ، فكان ربما يسقط من يد أحد سوطه فلا ينحني لأخذه ، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه ، فلذلك أمروا بالركوع والسجود.

الفصل الثالث : في الميزان والمعيار الذي يعرف به الإنسان نفسه هل هو متواضع أو متكبر :

وإلا فقد يزعم الإنسان أنه متواضع وليس فيه كبر مع أنه متكبر عند الله وقد ضل سعيه ، والامتحانات لذلك في الموازين ، وهي خمسة :

الأول : أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه ، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه فذلك يدل على أن فيه كبراً وترفعاً ، فليتق الله وليشتغل بعلاجه بالعلم بخبث نفسه وخطر عاقبته ، والعمل بأن يكلف نفسه ما يثقل عليه من الاعتراف بالحق وإطلاق اللسان بالحمد والثناء ، ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الاستفادة.

الثاني : أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ويقدمهم على نفسه ويجلس في الصدر تحتهم ، فإن ثقل ذلك عليه فهو متكبر ، فليواظب عليه تكلفاً حتى يسقط عنه ثقله ، وههنا للشيطان مكيدة ، وهي أن يجلس في صف النعال أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأرذال ، فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر ، فإن ذلك يخف على نفوس المتكبرين ، إذ يوهمون أنهم إنما تركوا مكانهم بالاستحقار والتفضيل ، فيكون قد تكبر وتكبر بإظهار التواضع أيضاً .

الثالث : أن يجيب دعوة الفقير ويمر الى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب ، فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر.

الرابع : أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت ، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر ورياء.

الخامس : أن لا يبالي بلبس الثياب البذلة ، فإن نفور النفس من ذلك في الملأ رياء وفي الخلوة كبر . وفي هذه الثلاثة يشترط الاعتياد في الأزمنة والأمكنة والأشخاص.

واعلم أن المحمود من التواضع أن يتواضع في غير مذلة ومن غير تخاسس فإن كلا الطرفين مذموم وخير الأمور أوسطها ، فمن تقدم على أمثاله فهو متكبر ومن تأخر عنهم فهو متواضع ، وأما إذا تواضع العالم للإسكاف وأجلسه مكانه وسوى نعله فهو ملق وتذلل وتخاسس.

الباب العاشر
في الدنيا والآخرة

وفيه فصول

الفصل الأول : في معرفة الدنيا والآخرة :

إعلم أن معرفة الدنيا والآخرة صعب شديد قد تحيّر فيه الفحول وتاه فيه أولو العقول : زعم قوم أن الدنيا عبارة عن المال ، والحال أنه قد ورد مدحه في الكتاب والسنة كثيراً ، وقال ﷺ : نعم العون على طاعة الله المال .

وزعم قوم أن الدنيا هي الحياة الدنيا ، مع أنه بها يتوصل إلى السعادات الأبدية ويتخلص من الشقاوة السرمدية ، وقد قال ﷺ : نعم العون على الآخرة الدنيا .

وزعم آخرون أن الدنيا المذمومة عبارة عن المآكل اللذيذة والمطاعم الجيدة والثياب الفاخرة والديار العامرة والخدم والحشم والأصحاب والأعوان مع أن بعض الأنبياء والأولياء كانوا كذلك ـ كيوسف وسليمان ـ.

والتحقيق أن من كان مشغولاً بالعلم والعبادة والحج والجهاد والصدقات وأداء الزكوات وقضاء الحوائج وزيارة الإخوان وعيادة المرضى وتشييع الجنائز وحضور الجمعة والجماعة والمواظبة على النوافل وسائر الطاعات قد يكون في بحبحة الدنيا ، ويصدق عليه أنه طالب الدنيا وأنه

ملعون وأعماله ملعونة مردودة غير مقبولة ، حيث لم يقصد بها وجه الله تعالى ، ورب رجل كثير المال والخدم والحشم حسن المطعم والمشرب جيد الزي والملبس ذي ديار وسيعة وعمارات عالية ونساء جميلة ومراكب حسنة وسرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ، وهو من أهل الآخرة وأعماله مقبولة وسعيه مشكور ، حيث قصد بجميع ذلك التوصل إلى رضاء الله تعالى .

فحينئذ الدنيا عبارة عن كل شيء يوجب البعد عن الله وإن كان صلاة وصوماً وحجاً وجهاداً وإنفاقاً وزهداً وقناعة ، والآخرة كل شيء يوجب القرب من الله تعالى وإن كان مالاً ونساءً وخدماً وحشماً .

نعم في أغلب الأوقات وأكثر الأشخاص لا يتمكن الإنسان من التقرب إلى الله تعالى والإخلاص له إلاّ بترك المباحات فضلاً عن الشبهات والمحرمات ، ولذلك حث الأنبياء الناس على ترك ما يوجب الميل إلى الدنيا وإن كان يمكن أن يتوصل به إلى الآخرة ، لأن النفوس ضعيفة والشيطان قوي .

وبتقرير آخر نقول : الدنيا والآخرة عبارتان عن حالتين من أحوال قلبك ، والقريب الداني منهما يسمى دنياً لدنوه ، وهو كل ما قبل الموت ، والمتراخي المتأخر يسمى آخرة ، وهو ما بعد الموت ، فكل ما لك فيه حظ وغرض ونصيب وشهوة ولذة في عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك ، إلا أن جميع ما لك إليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم ، بل هو على ثلاثة أقسام :

الأول : ما يصحبك في الدنيا وتبقى معك ثمرته بعد الموت ، وهو العلم بالله وصفاته وأفعاله ، وملائكته وكتبه ورسله وشرائعه وأحكامه والعمل الخالص لوجه الله ، وقد يلتذ الإنسان في الدنيا بالعلم والعبادة ويكونان عنده ألذ الأشياء ، ولذلك قال ﷺ : حبب إلي من دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء وقرة عيني في الصلاة . فجعل الصلاة من جملة الدنيا

لدخولها في عالم الحس والشهادة مع أنها من أفضل القربات ، وهذا ونحوه وإن أطلق عليه لفظ الدنيا لدنوه ولكنه من الدنيا الممدوحة التي هي العون على الآخرة لا المذمومة.

الثاني : نقيض الأول ، وهو كل ما فيه حظ عاجل وليس له ثمرة في الآخرة ، كالتلذذ بالمعاصي بل المباحات الزائدة على قدر الضرورة والتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة ، وهذه هي الدنيا المذمومة.

الثالث : وهو متوسط بين الطرفين ، وهو كل حظ عاجل معين على أعمال الآخرة ، وهو ما لابد منه للإنسان بحسب زيه وزمانه ومكانه من المأكول والملبوس والمشروب ، فإذا تناوله الإنسان بقصد الاستعانة على العلم والعمل والطاعات والعبادات وحفظ الحياة وصيانة العرض ونحو ذلك مما أمر الشارع به في الشريعة المقدسة ، فليس من الدنيا المذمومة في شيء وإن قصد به الترفه والتلذذ والتنعم ، أو استعان به على المعاصي فهو من الدنيا ، ولهذا ورد الحث على طلب الحلال وتحصيل المال للكفاف ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : ملعون من ألقى كله على الناس.

وقال السجاد عليه السلام : الدنيا دنياءان : دنيا بلاغ ، ودنيا ملعونة.

وقال الباقر عليه السلام : من طلب الرزق في الدنيا استعفافاً عن الناس وسعياً على أهله وتعطفاً على جاره لقي الله عز وجل ووجهه مثل القمر ليلة البدر.

وقال الصادق عليه السلام : الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله.

وقال عليه السلام في رجل قال : لأقعدن في بيتي ولأصلين ولأصومنّ ولأعبدن ربي فأما رزقي فسيأتي قال : هذا أحد الثلاثة الذين لا يستجاب لهم.

وقال ﷺ : إن الله ليحب الاغتراب في طلب الرزق.

وقال له رجل : والله إنّا لنطلب الدنيا ونحب أن نؤتاها . فقال : تحب أن تصنع بها ماذا ؟ قال : أعود بها على نفسي وعيالي وأصل بها وأتصدق بها وأحج وأعتمر . فقال ﷺ: ليس هذا طلب الدنيا هذا طلب الآخرة.

وقال ﷺ : ليس منا من ترك دنياه لآخرته.

الفصل الثاني : في ما ورد في ذم الدنيا :

قال رسول الله ﷺ : الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر.

وقال ﷺ : لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء.

وقال ﷺ : الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها.

وقال ﷺ : من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى.

وقال ﷺ : حب الدنيا رأس كل خطيئة.

وقال ﷺ : يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور.

وقال ﷺ : من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء ، وألزم الله قلبه أربع خصال : هماً لا ينقطع عنه أبداً ، وشغلاً لا يتفرغ منه أبداً ، وفقراً لا ينال غناه أبداً ، وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً.

وروي أن عيسى ﷺ اشتد به المطر والرعد والبرق يوماً ، فجعل يطلب بيتاً يلجأ إليه ، فرفعت إليه خيمة من بعيد فأتاها فإذا فيها امرأة فحاد عنها ، فإذا هو بكهف في جبل فأتاه فإذا فيه أسد فوضع يده على رأسه وقال : إلهي جعلت لكل شيء مأوى ولم تجعل لي مأوى . فأوحى الله إليه : مأواك في مستقر من رحمتي لأزوجنك يوم القيامة ألف حوراء خلقتها

بيدي ، ولأطعمن في عرسك أربعة آلاف عام يوم منها كعمر الدنيا ، ولآمرن منادياً ينادي : أين الزهاد في الدنيا زوروا عرس الزاهد عيسى بن مريم.

وقال رسول الله ﷺ : الدنيا دار من لا دار له ، ولها يجمع من لا عقل له.

وقال ﷺ : ما لي والدنيا، إنما مثلي ومثلها كمثل راكب رفعت له شجرة في يوم صائف فقال تحتها ثم راح وتركها.

وقيل لأمير المؤمنين عليه السلام: صف لنا الدنيا . فقال : وما أصف لك من دار من صح فيها ما أمن ، ومن سقم فيها ندم ، ومن افتقر فيها حزن ، ومن استغنى فيها فتن ، في حلالها الحساب وفي حرامها العقاب .

وقال عليه السلام: إنما هي ستة أشياء مطعوم ومشروب وملبوس ومركوب ومنكوح ومشموم : فأشرف المطعومات العسل وهو مذقة ذباب ، وأشرف المشروبات الماء يستوي فيه البر والفاجر ، وأشرف الملبوسات الحرير وهو نسج دودة ، وأشرف المركوبات الفرس وعليه يقتل الرجال ، وأشرف المنكوحات المرأة وهي مبال في مبال ، والله إن المرأة لتزين أحسن شيء منها ويراد أقبح شيء منها ، وأشرف المشمومات المسك وهو دم حيوان.

وقال الصادق عليه السلام: ما أعجب رسول الله لشيء من الدنيا إلا أن يكون فيها جائعاً خائفاً.

وقال لقمان لابنه : يا بني بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً.

الفصل الثالث : في ما ورد عن الأنبياء والأوصياء والحكماء في أمثلة الدنيا :

كان الحسن بن علي عليه السلام يقول :

يا أهل لذات دنيا لا بقاء لها   إن اغتراراً بظل زائل حمق

مثلها بالـظِلّ من حيث إنه متحـرك في الحقيقة سـاكن في الظاهـر ، ولا تدرك.

ومثلهـا النبي ﷺ من حيث الاغترار بخيـالاتها والإفـلاس منهـا بقـولـه ﷺ : «الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون معاقبـون» ومن حيث تلطفها لأهلهـا أولاً وإهلاكهم آخراً.

روي أن عيسى ؑ كـوشف بالـدنيا فـرآها في صـورة عجوز هتمـاء[1] عليهـا من كـل زينـة، فقـال لهـا : كم تـزوجت؟ قـالت: لا أحصيهم. قـال: فكلهم مـات عنك أو كلهم طلقـك ؟ قـالت : بـل كلهم قتلت . فقـال ؑ : بؤسـاً لأزواجك البـاقين كيف لا يعتبرون بـالمـاضين ، كيف تهلكينهم واحـداً بعد واحد ولا يكونون منك على حذر .

ومن حيث إنها خلقت للاعتبار لا للعمار ورد فيهـا «إنها جسـر فاعبـروها ولا تعمروها».

وقال عيسى ؑ الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروهـا . وذلك لأن الميـل الأول الـذي هو على رأس القنـطرة المهد ، والميـل الثاني اللحـد ، وبينهمـا مسـافة محـدودة ، منهم من قطع ثلثهـا ونصفها وثلثيهـا ، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة ، وهذا محتمل لكل أحد.

ومن زينها بأنواع الزينة واتخذها مـوطناً وهو عـابر عليهـا بسرعـة فهو في غاية من الحمق والجهل.

ومن حيث حسن منظرها وقبح مخبرها قال فيهـا أمير المؤمنين ؑ في ما كتب إلى سلمان : مثل الـدنيا مثـل الحية لين مسهـا ويقتل سمهـا ، فأعـرض عما يعجبك منها لقلة ما يصحبـك منها ، وضـع عنك همـومها لمـا أيقنت من فـراقها ، وكن أسـر ما تكـون منها أحذر ما تكون منها ، فـإن صـاحبهـا كلمـا اطمأن بها إلى سرور أشخصته عنه مكرهاً ـ والسلام.

---

(١) هي التي تكسرت ثناياها من أصلها وانقلعت.

ومن حيث تعذر الخلاص عن تبعاتها بعد الخوض فيها قال فيها النبي ﷺ: إنما مثل صاحب الدنيا كمثل الماشي في الماء، هل يستطيع الذي يمشي في الماء أن لا تبتل قدماه.

ومن حيث قلة الباقي منها بالإضافة إلى الماضي قال ﷺ: مثل هذه الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخرة فبقي متعلقاً بخيط في آخره، فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع.

ومن حيث أدائها إلى إهلاك طالبها قال فيها عيسى عليه السلام: مثل طالب الدنيا مثل شارب البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى تقتله.

ومن حيث نسبتها إلى الآخرة قال فيها النبي ﷺ: ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بم يرجع إليه من الأصل.

وقال الكاظم عليه السلام: إن لقمان قال لابنه: يا بني إن الدنيا بحر عميق قد غرق فيه عالم كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله وحشوها الإيمان وشراعها التوكل وقيمتها العقل ودليلها العلم وسكانها الصبر.

وقال الباقر عليه السلام: مثل الحريص على الدنيا كمثل دودة القز كلما ازدادت على نفسها لفاً كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غماً.

ومن أحسن ما يمثل به حال الإنسان في الدنيا بحال رجل يمشي في صحراء وسيعة، فإذا بأسد عظيم ذي خلق جسيم مقبل عليه ليفترسه، فبقي هذا الضعيف المهان متحيراً مدهوشاً لا يدري ما الحيلة وليس له سلاح يدفعه به ولا ملجأ يتحصن به، فنظر إلى بئر هناك فولج فيها خائفاً يترقب، فمنذ وصل إلى وسطها رأى حشيشاً نابتاً في وسطها على الحائط، فتشبث به وهو يعلم أنه لا يفيده ولكن الغريق يتشبث بالحشيش، فنظر إلى فوقه فرأى الأسد منتظراً لخروجه حتى يفترسه، فنظر إلى قعر البئر فرأى أفاعي أربعاً فاتحة فاها لالتقامه بعد السقوط، فبينما هو في هذه الأهوال الجسيمة والأحوال العظيمة لا يمكنه الصعود من الأسد والهبوط من الأفاعي والحشيش

لا يحتمله إذ قد خرج من الحائط جرذان أسود وأبيض وشرعا يقترضان ذلك الحشيش آناً فآناً ، فبينما هو في هذه الأحوال إذ رأى قليلاً من العسل ممزوجاً ببعض التراب القذر قد اجتمع عليه الزنابير والذباب ، فشرع في مخاصمتهم والأكل معهم وقد صرف جميع باله وخاطره إلى ذلك العسل ونسي ما هو فيه من البلاء ، فهذا مثل الإنسان في انهماكه بلذات الدنيا.

فالأسد هو الموت الذي لا محيص منه ولا مفر عنه ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ والأفاعي الأربع هي الأخلاط الأربعة أيها غلب قتل الإنسان والبئر هو الدنيا.، والحبل هو العمر ، والجرذان الليل والنهار يقرضان العمر ، والعسل المخلوط بقذر التراب لذات الدنيا الممزوجة بالكدورات ، والزنابير والذباب هم أبناء الدنيا المتزاحمون عليها.

الباب الحادي عشر
في المال

إعلم أنه قد ورد من الشرع مدح المال وذمه ، وقد تقدم من الأخبار ما يدل على مدحه ، وجميع ما دل على الحث على الحج والزكاة والخمس والتصدق والهبة والعطية والإحسان والإنعام والإطعام مما لا يتم إلا بالمال فهو مدح له ، وقد سماه الله تعالى خيراً في مواضع ، فقال تعالى : ﴿إن ترك خيراً الوصية للوالدين﴾ . وقال ﷺ : نعم المال الصالح للرجل الصالح .

وورد ذمه أيضاً فقال تعالى : ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ وقال تعالى : ﴿لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ . وقال ﷺ : حب المال والشرف ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل . ونحوه كثير.

والسر في ذلك أن المال ذو وجهتين : نافعة ، ومضرة ، ومثاله مثال الحية فيها سم وترياق ، ففوائدها ترياقها وغوائلها سمومها . والمال إن صرف في طاعة الله ومرضاته كان من الآخرة ، وإلا كان من الدنيا.

والمال فيه فوائد وغوائل ، من عرفها وأخذ الفوائد واجتنب عن الغوائل نجا .

وفوائد المال الدنيوية معلومة ولهذا تهالك أهل الدنيا عليها ، وأما الدينية فهي ثلاثة أنواع :

الأول : ما ينفقه على نفسه في عبادة أو الاستعانة عليها.

والثاني : ما يصرفه إلى الناس ، وهو أربعة أقسام : الصدقة ، والمروة ، ووقاية العرض ، وأجرة الإستخدام :

أما الصدقة فقد حث الشارع عليها ورغب فيها بالثواب وقال إنها تطفىء غضب الرب.

وأما المروة وهي صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة وإطعام الطعام ، وهذا أيضاً مما رغب الشارع فيه ووعد عليه الثواب.

وأما وقاية العرض وهو بذل المال لدفع هجو الشعراء وثلب السفهاء ودفع شر الأشرار، فمع تنجز فائدته في الدنيا حث الشارع عليه أيضاً ، قال النبي ﷺ : ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة.

وأما الاستخدام في الأعمال التي اضطر إليها الإنسان من المأكول والمشروب والملبس ونحوها فهو ضروري لولاه لتعذر عليه سبيل الآخرة ، ولو تولاها بنفسه لضاعت أوقاته وتعذر عليه الفكر والذكر.

النوع الثالث : ما لا يصرفه الإنسان إلى إنسان معين ولكن يحصل به خير عام ، كبناء المساجد والقناطر والرباطات ودار المرضى ونصب الحباب في الطرق وغير ذلك . هذا كله مضافاً إلى ما يتعلق بالحظوظ العاجلة من الخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر ، ولكثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء.

وأما الآفات فدينية ودنيوية ، أما الدينية فثلاثة أنواع :

الأول : إنه يجر إلى المعاصي ، فإن الشهوات متقاضية والعجز يحول بين المرء والمعصية ، ومن العصمة أن لا تقدر.

الثاني : أن يجر إلى التنعم في المباحات ، وربما لا يقدر على

التوصل إليه بالكسب الحلال فيقتحم الشبهات ويخوض في المراء والمداهنة والكذب والنفاق وسائر الأخلاق المردية لتحصيل مطلوبه ليتيسر له التنعم.

الثالث : وهو الذي لا ينفك عنه أحد ، وهو أنه يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى ، وكل ما يشغل العبد عن الله فهو خسران ، ولذلك قال عيسى ﵇: في المال ثلاث آفات إن يأخذه من غير حله . فقيل : إن أخذه من حله ؟ قال : يضعه في غير حقه . فقيل له : إن وضعه في حقه ؟ فقال : يشغله إصلاحه عن الله .

ومن أراد أن ينجو من غائلة المال فعليه بأمور:

الأول : أن يعرف المقصود من المال ، وأنه لماذا خلق ، وأنه لِمَ يحتاج إليه حتى لا يكتسب ولا يحفظ إلا قدر حاجته.

الثاني : أن يراعي جهة دخل المال ، ، فيجتنب الحرام المحض وما الغالب عليه الحرام ، ويجتنب الجهات المكروهة القادحة في المروة.

الثالث : أن يراعي جهة الخرج ويقتصد في الإنفاق غير مبذر ولا مقتر ، قال تعالى : **﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾** .

الرابع : أن يضع ما اكتسبه من حله في حقه ولا يضعه في غير حقه ، فإن الإثم في الأخذ من غير حقه والوضع في غير حقه سواء.

والخامس : أن يصلح نيته في الأخذ والترك والإنفاق والإمساك فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادات والطاعات ، ويترك ما يترك زهداً فيه واستحقاراً له ، وإذا فعل ذلك لم يضره وجود المال.

وقال أمير المؤمنين ﵇: لو أن رجلاً أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله فهو زاهد ، ولو أنه ترك الجميع ولم يرد وجه الله فليس بزاهد.

وقال ﵇: الزهد كله بين كلمتين من القرآن : **﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾** ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه.

الباب الثاني عشر
في الفقر

وقد ورد مدحه وذمه أيضاً ، وخلاصة الكلام فيه أن الفقر إما أن يكون إلى الله فقط لا إلى سواه ـ بأن يكون متعففاً عن الناس غني النفس ـ هذا في أعلى مراتب الكمال ، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ : الفقر فخري . ومدح الله أهله بقوله : ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ .

وإما أن يكون إلى الناس ، بأن يكون دائماً مظهراً للشكوى والحاجة متحملاً لذل السؤال والطمع بما في أيدي الناس فهو في أدنى مراتب النقص ، وهو الذي قال فيه ﷺ : الفقر سواد الوجه في الدارين . لأن صاحبه يكون ممقوتاً عند الله وعند الناس ، وصاحبه يخسر الدنيا والآخرة .

وإما أن يكون إلى الله مرة وإلى الناس أخرى ، وهو الذي قال فيه ﷺ : كاد الفقر أن يكون كفراً . لأنه شبيه بالشرك .

وينبغي للفقير أن يكون قانعاً منقطع الطمع عن الخلق غير ملتفت إلى ما في أيديهم ، ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان ، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الكفاف ويقصر الأمل ، إذ لو كان حريصاً طماعاً لجره الحرص والطمع إلى مساوىء الأخلاق وارتكاب المنكرات . قال ﷺ : ما من أحد غني ولا فقير إلا ودَّ يوم القيامة أنه كان أوتي قوتاً في الدنيا .

وقال ﷺ : يا معاشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلاّ فلا .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: ابن آدم إن كنت تريد من الدنيا ما يكفيك فإن أيسر ما فيها يكفيك ، وإن كنت تريد ما لا يكفيك فإن كل ما فيها لا يكفيك.

وقال الباقر عليه السلام : إياك أن تطمع بصرك إلى من هو فوقك ، وكفى بما قال الله لنبيه ﷺ : ﴿ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم﴾ . وقال : ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾ فإن دخلك من ذلك شيء فاذكر عيش رسول الله ﷺ فإنما كان قوته الشعير وحلواه التمر ووقوده السعف إذا وجد.

الباب الثالث عشر
في الجاه

وهو انتشار الصيت والاشتهار ، وحبه مذموم في القرآن والأخبار ، وهو آفة عظيمة في الدين ، والمحمود هو حب الخمول إلا من شهره الله من غير تكلف طلب للشهرة .

قال الله تعالى : **﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾** .

وقال النبي ﷺ : حب الجاه والمال ينبتان النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل .

وقال ﷺ : ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فساداً من حب الجاه والمال.

وقال ﵇ : إنما هلك الناس باتباع الهوى وحب الثناء .

وقال أمير المؤمنين ﵇ : تبذل لا تشهر ولا ترفع شخصك لتذكر بعلم ، واكتم واصمت تسلم تسر الأبرار وتغيظ الفجار.

وقال الصادق ﵇ : إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون ، فوالله ما خفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك.

وقال ﷺ : ملعون من ترأس ، ملعون من هم بها ، ملعون من حدث بها نفسه .

وقال ﷺ : رب ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره .

وتحقيق الكلام في الجاه في فصول :

الفصل الأول : في سبب حب الجاه :

إعلم أن المال ملك الأعيان المنتفع بها ، ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوبة تعظيمها وطاعتها ، والسبب في حب المال هو السبب في حب الجاه وزيادة ، لأن ملك القلوب يتبعه ملك الأعيان ، ويرجح الجاه على المال من وجوه ثلاثة :

الأول : إن التوصل بالجاه إلى المال أيسر من التوصل بالمال إلى الجاه ، إذ العالم والعابد الذي يريد حصول الجاه في القلوب لو قصد اكتساب المال تيسر له ، فإن أموال أرباب القلوب مسخرة للقلوب ومبذولة لمن اعتقد فيه الكمال ، وأما الرجل الخسيس الذي لا يتصف بصفة كمال إذا وجد كنزاً ولم يكن له جاه يحفظ ماله وأراد أن يتوصل بالمال إلى الجاه لم يتيسر له .

الثاني : إن المال معرض للتلف بالغضب والسرقة والقلوب سالمة من ذلك ، وإنما تغضب القلوب بقبح الحال وتغير الاعتقاد ، وذلك مما يهون دفعه .

الثالث : إن ملك القلوب ينمو ويسري ويتزايد من غير حاجة الى تعب لأن القلوب إذا أذعنت لشخص واعتقدت كماله نطقت وانطلقت الألسنة لا محالة بما فيها ، وانتشر ذلك في الأقطار والأمصار ، ولا يزال في زيادة اقتناص القلوب والنمو ، والمال لا يمكن استنماؤه إلا بتعب شديد .

ولكن الجاه ليس بمذموم مطلقاً ، بل هو كالمال ممدوح من جهة ومذموم من أخرى ، وكما أنه لا بد للإنسان من أدنى مال لضرورة المطعم

والملبس فلا بد له من أدنى جاه لضرورة المعيشة مع الخلق وكما يحتاج الإنسان الى طعام يتناوله ويجوز أن يحب الطعام والمال الذي يباع به الطعام ، وكذلك لا يخلو عن الحاجة الى خادم يخدمه ورفيق يعينه وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار ، فحبه لأن يكون له في قلب خادمه من المحل ما يدعوه الى الخدمة ليس بمذموم ، وكذا حبه لأن يكون له في قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ، وكذا حبه لأن يكون له في قلب أستاذه من المحل ما يحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ، وأن يكون له من المحل في قلب السلطان ما يحثُه على دفع الشر عنه ، فإن الجاه وسيلة إلى الأغراض كالمال.

الفصل الثاني : في علاج حب الجاه :

إعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق مشغوفاً بالتودد إليهم ، وابتلى بالرياء والسمعة والنفاق والمداهنة والتساهل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحو ذلك ، وعلاجه العلم والعمل:

أما العلم : أن يعلم أن السبب الذي لأجله أحب الجاه ـ وهو كمال القدرة على أشخاص الناس وعلى قلوبهم ـ إن صفا وسلم فأخره الموت ولا ينفعه في الآخرة لو لم يضره ، ولو سجد له كل من على وجه الأرض فعن قريب لا يبقى الساجد ولا المسجود له ، ويكون حاله كحال من مات قبله من ذوي الجاه مع المتواضعين له ، ولمثل هذا لا ينبغي أن يترك الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها.

والكمال الحقيقي الذي يقرب صاحبه من الله ويبقى كمالاً للنفس بعد الموت ليس إلا العلم بالله وبصفاته وأفعاله ، ثم الحرية وهي الخلاص من أسر الشهوات . هذا هو الكمال الباقي بعد الموت والباقيات الصالحات التي تبقى كمالاً للنفس.

والمال والجاه هو الذي ينقضي سريعاً ، وهو كما مثله الله تعالى :

﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾ ، وكل ما تذروه الرياح بالموت فهو زهرة الحياة الدنيا وكل ما لا يقطعه الموت فهو من الباقيات الصالحات.

فمن عرف الكمال الحقيقي صغر الجاه في عينه ، إلا أن ذلك إنما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة كأنه يشاهدها ، ويستحقر العاجلة ويكون الموت كالحاصل عنده.

وأبصار أكثر الخلق ضعيفة تؤثر الدنيا على الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾ وقال تعالىٰ : ﴿بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة﴾ .

ومن كان كذلك فينبغي له العلاج بالعلم بالآفات العاجلة لصاحب الجاه ، فإن صاحب الجاه مخاطر على نفسه وماله ، ومحمود مقصود بالإيذاء ، مبتلى بالناس خص بالبلاء ، من عرفته الناس يقاسي الشدائد العظيمة ، ولأجلها يتمنى الخمول.

ولا يزال ذو الجاه خائفاً على جاهه ومحترزاً من زوال منزلته عن القلوب والقلوب أشد تغييراً من القدر في غليانه ، وهي مرددة بين الإقبال والإعراض ، وما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبنى على أمواج البحر ، فإنه لا ثبات له .

والاشتغال بمراعاة القلوب وحفظ الجاه ودفع كيد الحساد ومنع أذى الأعداء اشتغال عن الله وتعرض لمقته في العاجل والآجل . وجميع ذلك غموم عاجلة مكدرة للذة الجاه الموهومة فضلاً عما يفوت في الآخرة . هذا هو العلاج العلمي .

وأما العملي : فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بالأنس بالخمول والقناعة بالقبول من الخالق والاعتزال عن الناس والهجرة إلى مواضع الخمول ، فإن المعتزل في بيته في البلدة التي هو بها مشهور لا يخلو عن حب المنزلة التي ترسخ له في القلوب بسبب عزلته ، ومن قنع استغنى عن

الناس وانقطع طمعه عنهم ، وإذا استغنى عنهم لم يكن لقيام منزلته في قلوبهم عنده وزن ، ويستعين على ذلك بالأخبار الواردة في ذم الجاه ومدح الخمول.

الفصل الثالث : في حب المدح والثناء :

وسببه شعور النفس بالكمال والدلالة على أن الممدوح قد ملك قلب المادح وسخره ، وملك القلوب أحب من ملك الأموال ـ كما تقدم.

ولهذين السببين يكره الذم ويتألم به القلب ، والسبب الثالث أن ثناء المثني ومدح المادح سبب لاصطياد قلب كل من يسمعه ، لا سيما إذا كان ذلك ممن يلتفت إلى قوله ويعتد بشأنه ، وهذا يختص بثناء يقع على الملأ.

والرابع من المدح يدل على حشمة الممدوح واضطرار المادح إلى إطلاق اللسان بالثناء عليه إما طوعاً أو قهراً ، والحشمة أيضاً لذيذة لما فيها من القهر والقدرة ، وقد تجتمع هذه الأسباب فيعظم الالتذاذ ويندفع استشعار الكمال بأن يعلم الممدوح أنه غير صادق في مدحه ، فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله بطلت اللذة الثابتة ـ وهو استيلاؤه على قلبه ـ وبقيت لذة الاستيلاء بالحشمة.

وحب المدح والثناء كحب الجاه حرمة وإباحة ونفعاً وضراً ، وعلاجه علاجه ، وعلمه بأن الصفة الممدوح بها إن فقدت فاستهزاء وإن وجدت فالدنيوية كمال وهمي والدينية موقوفة على الخاتمة.

وعلاج كراهة الذم العلم بأن الصفة المذموم بها إن وجدت فتبصير للعيوب ، وفيه الفرح والشغل بالإزالة ، وإن فقدت فكفارة للذنوب وفيه الشكر لله والترحم للذام حيث أهلك نفسه ، كما قال النبي ﷺ لما كسروا رباعيته : اللهم إهد قومي فإنهم لا يعلمون.

والإنسان يفرح ممن يذم عدوه وهو عدو نفسه ، فينبغي أن يفرح إذا سمع ذمها ويشكر الذام عليها ويعتقد ذكاءه وفطنته لما وقف على عيوبها ،

فيكون ذلك كالتشفي له من نفسه ويكون غنيمة عنده إذ صار بالمذمة أوضع في أعين الناس حتى لا يبتلى بفتنة الجاه ، وإذا سبقت إليه حسنات لم يتعب فيها فعساه يكون جبراً لعيوبه التي هو عاجز عن إماطتها.

ولو جاهد نفسه طول عمره في هذه الخصلة الواحدة ـ وهي أن يستوي عنده ذامه ومادحه ـ لكان له شغل شاغل فيه لا يتفرغ معه لغيره.

وبينه وبين السعادة عقبات كثيرة هذه إحدى تلك العقبات ، ولا يقطع شيء منها إلا بالمجاهدة الشديدة في العمر الطويل.

الباب الرابع عشر
في الغرور

وفيه فصول

الفصل الأول : في حقيقته وذمه :

إعلم أن مفتاح السعادة التيقظ والفطنة ، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة ، والغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان ، فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور ، قال الله تعالى : ﴿لا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ : وقال تعالى : ﴿ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور﴾ .

وقال النبي ﷺ : حبذا نوم الأكياس وفطرهم كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم ، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين .

وكل ما ورد في فضل العلم وذم الجهل فهو دليل ذم الغرور ، لأن الغرور نوع من الجهل ، والذين غرتهم الحياة الدنيا بعض الكفار والعصاة الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة قائلين : إن الدنيا نقد والآخرة نسيئة والنقد خير من النسيئة ، ولذات الدنيا يقين والآخرة شك واليقين خير من الشك .

وهـذا عين الجهل ، لأن الـدنيا لو كانت ذهباً فانيـاً والآخرة خـزفاً بـاقياً لكـان الخزف البـاقي خيـراً من الـذهب الفـاني ، فكيف والـدنيـا خـزف فـانٍ والآخـرة ذهب باقٍ ، كمـا قال تعـالى : ﴿ما عنـدكم ينفد ومـا عند الله بـاقٍ﴾ وقال تعالى : ﴿ولـلآخرة خيـر وأبقى﴾ وقال تعـالى : ﴿وما الحيـاة الدنيـا إلا متاع الغرور﴾ .

وكـون النقد خيـراً من النسيئة مـطلقـاً ممنـوع ، فـإن النسيئـة العـظيمـة الكثيرة خير من النقـد القليل الحقيـر ، وفعل هـذا المغرور حجـة عليه ، فـإنه يعطي خمسة دراهم نقداً ليأخذ عشرة نسيئـة ، ويترك لـذائذ الأطعمـة بتحذيـر الطبيب نقداً خوفاً من ألم المـرض النسيئة ، ويتحمـل المشاق والأسفـار وقطع البحار نقداً لتـوهم النفع نسيئـة ، وكذا التـاجر في سعيـه وتصديعـه على يقين وفي ربحـه على شـك ، وكـذا المتفقـه في اجتهـاده شـك وفي تعبـه يقين ، والمـريض من مرارة الـدواء على يقين ومن الشفاء على شـك ، فكـون اليقين خيـراً من الشك مـطلقاً ممنـوع ، بل إذا كـان مثله فالـذي له شـك في الآخرة يجب عليه بحكم الحزم أن يقول : الصبر أياماً قـلائل في هـذا العمر القصيـر قليل بالإضافة إلى ما يقال من أمر الآخرة ، فإن كان مـا يقال في الآخـرة كذبـاً فمـا فـاتني إلا نعم حقيـرة فـانيــة ، وإن كـان صــدقاً خلدت في النــار أبـد الآبدين ، وهذا لا يطاق.

هذا كله مع قـطع النظر عن كـون الآخرة يقيناً يحكم بهـا العقل السليم والفهم المستقيم ، وأخبر بها الأنبياء والمرسلون والأولياء والصالحون .

وأما الغرور بالله فمثل قـول بعضهم : فإن كـان لله معاد فنحن أحق بـه من غيـرنا وأوفـر حظاً وأسعـد حالاً ، كمـا أخبر الله تعـالى من قـول الـرجلين المتحـاورين . إذ قـال : ﴿ومـا أظن السـاعـة قـائمــة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً﴾ .

وذلك لأنهم تارة ينـظرون إلى نعم الله عليهم في الدنيـا فيقيسون عليهـا نعم الآخـرة ، وينظرون إلى تـأخير الله العـذاب عنهم ، فيقيسون عليـه عذاب

الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول﴾ .

وينظرون تارة إلى المؤمنين وهم فقراء شعث غبر ، فيقولون : «أهؤلاء من الله عليهم من بيننا» ويقولون : «لو كان خيراً ما سبقونا إليه» ، ويقولون : قد أحسن الله إلينا بنعيم الدنيا ، وكل محسن محب ، والمحب يحسن في المستقبل أيضاً ، ولم يعلموا أن نعيم الدنيا ولذاتها والاستدراج فيها يدل على الهوان ، وأن هذه اللذات سموم قاتلات ، وأن الله يحمي المؤمن من الدنيا كما يحمي الطبيب المريض عن الطعام.

ولو كانت الدنيا لها قدر عند الله لما سقى الكافر منها شربة ماء ، وقال تعالى : ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ وقال تعالى : ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ وقال تعالى : ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾.

ومنشأ هذا الغرور الجهل بالله وصفاته ، فإن من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر به بأمثال هذه الخيالات ، وينظر الى فرعون وقارون وإلى ملوك الأرض كيف أحسن الله إليهم ثم دمرهم تدميراً ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ ، ﴿ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ .

الفصل الثاني : في بيان فرق المغترين وجهات غرورهم :

وهم كثيرون وجهات غرورهم مختلفة :

فمنهم : عصاة المؤمنين ، يقولون إن الله كريم رحيم ونرجو رحمته وكرمه ، وإن رحمتي وسعت كل شيء ، وأين معاصي العباد من رحمته ، والرجاء مقام محمود . ووجه غرورهم ما يأتي إن شاء الله تعالىٰ في الرجاء من أن هذا تمنٍ على الله وغرة به ، فإن من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه ، وكما أن الذي يرجو ولداً ولم يتزوج أو تزوج ولم يجامع أو جامع ولم ينزل فهو أحمق ، فكذا من رجا رحمة ربه ولم يعمل

الصالحات ولم يترك السيئات ، وقد قال تعالى : ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ وقال تعالى : ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله﴾ يعني أن الرجاء إنما يليق بمثلهم.

ومنهم : العلوية والهاشمية ، حيث اغتروا بالنسب وصلاح الآباء وعلو رتبتهم ، وغفلوا عن كونهم مخالفين سيرة آبائهم في التقوى والورع ، وأنهم ليسوا بأكرم على الله من آبائهم ؛ وآباؤهم مع غاية التقوى والورع كانوا خائفين باكين ، وهم مع غاية المعاصي والمساوىء قد أصبحوا راجين آمنين . وربما سول الشيطان لهم أن إنساناً إذا أحب أحداً أحب أولاده تبعاً ، وأن الله يحب آباءكم فهو يحبكم تبعاً ، فلا يحتاج في بذل الجهد في الطاعات وترك المعاصي . وغفلوا عن أنه ليس بين الله وبين أحد قرابة ، وأن الله إنما يحب المطيع ويبغض العاصي ، وقد قال نوح : رب إن ابني من أهلي فقال تعالى : ﴿إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾ وإن إبراهيم استغفر لأبيه فلم ينفعه ذلك.

ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه فهو كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه ويروى بشرب أبيه ويصير عالماً بعلم أبيه ، ويصل إلى الكعبة ويراها بمسعى أبيه .

فصل : في غرور أهل العلم :

وهم فرق : فمنهم من أحكم العلوم العقلية والشرعية وتعمق فيها وغفل عن تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات ، وغفل عن أن العلم إذا لم يعمل به كان وزراً ووبالاً ولم يزدد من الله إلا بعداً ، وأن العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل ، وأن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه.

ومنهم : من أحكم العلم والعمل وواظب على الطاعات وترك المعاصي الظاهرة من الجوارح وأهمل تفقد الرئيس ليمحو عنه المعاصي المهلكة والسموم القاتلة التي تفوت حياة الأبد ، كالحسد والرياء والحقد

والكبر والعجب وحب الجاه ونحوها ، وربما لم يعرف حقائق هذه الأمور وأقسامها فضلاً عن علاجها ومعالجتها ، وقد أكب على الفضول وترك الفرض، وهو لم يتصف بحقيقة الإنسانية ، ويظن أنه قد بلغ من العلم مبلغاً لا يعذب الله مثله ، بل يقبل في الخلق شفاعته وأنه لا يطالبه بذنوبه لكرامته عند الله .

ومنهم : من علموا هذه الأخلاق الباطنة وعلموا آفاتها وكيفياتها إلا أنهم للعجب بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عن الأخلاق المذمومة ، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بها وإنما يبتلي بها العوام ، ثم إذا ظهر على أحدهم مخائل الكبر والرئاسة وطلب العلو والشرف قال : ما هذا كبر وإنما هذا طلب عز الدين وإظهار شرف العلم ونصرة دين الله وإرغام أنف المخالفين . ومهما انطلق اللسان بالحسد في أقرانه وفي من رد عليه شيئاً من كلامه لم يظن بنفسه أن ذلك حسداً ، ولكن قال : إنما هذا غضب للحق ورد على المبطل في عداوته وظلمه .

ثم لو طعن عليه غيره من أهل العلم لم يكن غضبه مثل غضبه الآن بل ربما يفرح به ، وإذا خطر له خاطر الرياء قال : هيهات إنما غرضي من إظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي ليهتدوا إلى دين الله ويتخلصوا من عقاب الله .

ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتدائهم به ، فلو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان .

وربما يتذكر هذا المعنى فلا يخليه الشيطان أيضاً ، بل يقول : إنما ذاك لأنهم إذا اهتدوا بي كان الأجر والثواب لي ، وإنما فرحي بثواب الله لا بقول الخلق .

هذا ما يظنه بنفسه والله مطلع على سريرته ، وقد زين له سوء عمله فرآه حسناً وضل سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه يحسن صنعاً .

ومنهم : قوم اقتصروا على علم الفتاوى والحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح المعائش ، وصرفوا أعمارهم في معرفة دقائق السلم والإجارة والظهار واللعان والجراحات والدعاوي والبينات والحيض والاستحاضة ، وضيعوا الأعمال الظاهرة والباطنة ، ولم يتفقدوا الجوارح ولم يحرصوا اللسان عن الغيبة ولا البطن عن الحرام ولا الرجل عن المشي إلى السلاطين ، ولم يعالجوا أمراض قلوبهم بالكبر والرياء والحقد والعجب والحسد وسائر المهلكات مما هو من الواجبات العينية ، واشتغل بفرض الكفاية والاشتغال بالكفائي قبل الفراغ من العيني معصية .

ومثالهم مثال من به علة البواسير والسرسام ، وهو مشرف على الهلاك محتاج الى تعلم الدواء واستعماله ، فاشتغل بتعليم دواء الاستحاضة وبتكرار ذلك ليلاً ونهاراً مع علمه بأنه رجل لا يحيض ولا يستحيض ، ولكن يقول : ربما وقعت الاستحاضة أو الحيض لامرأة تسألني . وذلك غاية الغرور . وكذلك المتفقه المسكين الذي تسلط عليه حب الدنيا واتباع الشهوات والحسد والكبر والرياء وسائر المهلكات الباطنة ، وربما يختطفه الموت قبل التوبة والتلافي فيلقى الله وهو عليه غضبان.

ومنهم : من اشتغل بعلم الكلام والمجادلة في الأهواء والرد على المخالفين وتتبع مناقضاتهم ، واعتقدوا أنه لا يكون للعبد عمل إلا بالإيمان ولا يصلح الإيمان إلا بأن يتعلم جدلهم وما يسمونه أدلة عقائدهم، وظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وصفاته منهم ، وأنه لا إيمان لمن لا يعتقد مذهبهم ولم يتعلم علمهم ، ودعا كل فرقة منهم إلى نفسه ، وهم فرق كثيرة يكفّر بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً ، فيهم الأشاعرة والمعتزلة والخوارج والنواصب ، وهؤلاء مغرورون.

أما الفرقة الضالة منهم فلغفلتها عن ضلالها وظنها بنفسها النجاة ، وأما الفرقة المحقة فإنما اغترارها من حيث إنها ظنت أن الجدل أهم الأمور

وأفضل القربات ، وقد ورد في الحديث النبوي : ما ضل قوم قط بعد هدى إلا أوتوا الجدال وحرموا العمل.

ومنهم : من اشتغل بالوعظ ، وأعلاهم رتبة من يتكلم في أخلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصدق ونظائرها ، ويظن بنفسه أنه إذا تكلم بهذه الصفات ودعا الخلق إليها صار موصوفاً بها ، وهو منفك عنها عند الله إلا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين ، والأكياس يمتحنون أنفسهم في هذه الصفات ويطالبونها بالحقيقة ، ولا يقنعون منها بالتزويق.

ومنهم : من قنع بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم ، فهو حافظ للكلمات جاهل بالمعاني غير متصف بما يقول.

ومنهم : من استغرق أوقاته في علم الحديث وسماعه وطلب الأسانيد الغريبة العالية ، وغفل عن التدبر في دقائق معانيه.

ومنهم : من لم يغفل عن ذلك إلا أنه غفل عما هو أهم منه كما تقدم.

ومنهم : من اشتغل بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة ، زاعماً أنه من علماء الأمة المغفور لهم ، إذ قوام الدين بالكتاب والسنة وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو ، فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق العربية وغريب اللغة ، ومثالهم كمن يفني عمره في تعلم الخط وتصحيح الحروف وتحسينها ويزعم أن العلوم لا يمكن حفظها إلا بالكتابة فلا بد من تعلمها ، ولو عقل لعلم أنه يكفيه أصل الخط بحيث يمكن أن يقرأ كيفما كان والباقي زائد على الكفاية . بل مثالهم مثال من ضيع العمر في تصحيح مخارج الحروف في القرآن واقتصر عليه ، وهو غرور إذ المقصود من الحروف المعاني.

فصل : في غرور أرباب العبادة والعمل :

فمنهم : فرقة أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل ، وربما

تعمقوا بالفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف ، كالذي يغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرتضي الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع ، ويقدر الاحتمالات البعيدة في النجاسة قريبة ، وإذا آل الأمر إلى أكل الحلال قدر الاحتمالات القريبة بعيدة ، وقد يطول الأمر في وسواسه في الوضوء والتطهير حتى تضيع الصلاة ويخرجها عن وقتها.

ومنهم : من غلب عليه الوسوسة في نية الصلاة ، فتفوته الجماعة ويخرج الوقت ، وإن كبر ففي قلبه تردد في صحّة نيته ، ويفوته الحضور والخضوع والخشوع.

ومنهم : من يغلب عليه الوسوسة في إخراج الحروف فلا يزال يعالجها حتى يذهل عن معاني القرآن.

ومنهم : من اغتر بقراءة القرآن فيهذُّه هذّاً ، وربما يختم في اليوم والليلة مرة ولسانه يجري به وقلبه يتردد في أودية الأماني ، والله تعالى يقول : ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ وقلبه لا يخشى ، ولو قرأ قليلاً مع تدبر وتفكر وآداب لكان خيراً من الكثير بدونه.

ومنهم : من اغتر بالمواظبة على الصوم ، وعنى نفسه بالجوع والعطش ولم يحفظ لسانه من الغيبة وقلبه من الصفات الخبيثة ، فقد أهمل الفرض وطلب النفل.

ومنهم : من اغتر بالحج وزيارات المشاهد ، فيخرج الى الحج والزيارة من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون وطلب الزاد الحلال ، ويضيع في الطريق الصلاة ، ويعجز عن طهارة الثوب والبدن.

ومنهم : من يتقلد إمامة مسجد أو أذانه ويظن أنه على خير ، ولو أمَّ غيره أو أذَّن في وقت غيبته قامت عليه القيامة ولو كان أورع منه وأعلم .

ومنهم : من يأمر الناس بالمعروف وينهى عن المنكر وينسى نفسه ،

وإذا أمر عنف وطلب الرئاسة والعز ، وإذا ردَّ عليه إذا باشر منكراً غضب وقال : أنا المحتسب فكيف ينكر علي ، وإنما غرضه الرئاسة .

ومنهم : من جاور في الحرمين أو المشاهد واغتر بذلك ولم يطهر ظاهره وباطنه من الآثام والخبائث ، ولم يزل قلبه وعيناه ممتدة إلى أوساخ أموال الناس ، وغفل عن أن مجاورته لحب الحمد ، ولو لم يعلم أحد بمجاورته لما هانت عليه المجاورة .

ومنهم : من تزهد في المأكل والملبس والمسكن وظن أنه من الزاهدين في الدنيا ، والله يعلم منه الرغبة في الرئاسة والجاه والمنزلة في قلوب الناس الذي هو أعظم لذات الدنيا .

ومنهم : من يحرص على التغافل لصلاة الليل وسائر الرواتب ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتد حرصه على المبادرة إليها في أول الوقت .

ومنهم : من أشار إليهم بعض العارفين : قوم تسموا بأهل الذكر والتصوف والمسمون يدعون البراءة من التصنع والتكلف ، يلبسون خرقاً ويجلسون حلقاً ، يخترعون الأذكار ويتغنون بالأشعار ويعلنون بالتهليل وليس لهم إلى العلم والمعرفة سبيل ، ابتدعوا شهيقاً ونهيقاً واخترعوا رقصاً وتصفيقاً ، قد خاضوا الفتن وأخذوا بالبدع دون السنن ، رفعوا أصواتهم بالنداء وصاحوا الصيحة الشنعاء .

ومنهم : من يدعي علم المعرفة ومشاهدة المعبود ومجاورة المقام المحمود والملازمة في عين الشهود ، ولا يعرف من هذه الأمور إلا الأسماء ، ولكنه تلقف من الطامات كلمات يرددها لدى الأغبياء كأنه يتكلم عن الوحي أو يخبر عن السماء ، ينظر إلى أصناف العباد والعلماء بعين الازدراء يقول في العباد إنهم أجراء متعبون وفي العلماء إنهم بالحديث عن الله لمحجوبون ، ويدعي لنفسه من الكرامات ما لا يدعيه ملك مقرب ، لا علماً أحكم ولا عملاً هذَّب ، يأتي إليه الرعاع الهمج من كل فج أكثر من إتيانهم مكة للحج ، يزدحم إليه الجمع ويلقون إليه السمع ، وربما يخرون

له سجوداً كأنهم اتخذوا معبوداً ، يقبلون يديه ويتهافتون على قدميه ، يأذن لهم في الشهوات ويرخص لهم في الشبهات ، يأكل ويأكلون كما تأكل الأنعام ولا يبالون من حلال أصابوا أم من حرام ، وهو لحلوائهم هاضم ولدينه وأديانهم حاطم ، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون .

فصل : في غرور أرباب الأموال :

فمنهم : من يحرص على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة ويكتبون أسماءهم بالآجر عليها ليتخلد ذكرهم ويبقى بعد الموت أثرهم ، ويظنون أنهم قد استحقوا المغفرة وهم مغرورون لوجهين :

أحدهما : إنهم اكتسبوها من الشبهات إن خلصوا من الحرام .

والثاني : إن الرياء قد غلب عليهم ، إذ لو كلف أحدهم أن ينفق ديناراً ولا يكتب اسمه على الموضع أو لا يعرف لم تسمح نفسه بذلك والله مطلع عليه كتب اسمه أو لم يكتب ، فلولا أنه يريد وجه الناس لا وجه الله لما افتقر إلى ذلك ، وربما يكون في جوار أحدهم أو في بلده فقير وصرف المال إليه أهم من الصرف الى المساجد وزينتها .

ومنهم : من ينفق الأموال في الصدقات وعلى الفقراء والمساكين ولكن يطلب به المحافل الجامعة ومن الفقراء من عادته الشكر والإفشاء للمعروف ، ويكرهون التصدق في السر أو صرفه إلى غير أولئك أو إلى غير أصدقائهم والمترددين إليهم مع كونهم أهم . وبعضهم يرى إخفاء الفقير لما أخذ منه جناية عظيمة وكفراناً .

ومنهم : من يحرص على إنفاق ماله في الحج والزيارات ، وربما يتركون أرحامهم وجيرانهم جائعين .

ومنهم : من يحفظ ماله ويمسكه بحكم البخل ثم يشتغل بالعبادات

البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن وهو يظن أنه على خير لأن البخل المهلك قد استولى على باطنه ، وهم أحوج إلى قمعه بإخراج المال من طلب الفضائل . ومثالهم مثال من دخل في ثوبه حية وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بصنع المبردات ليسكن به الصفراء.

ومنهم : من غلب عليه البخل ، فلا تسمح نفسه إلا بأداء الزكاة فقط ثم يخرجها من المال الخبيث الرديء الذي يرغب عنه ، ويخص بها من الفقراء من يخدمه ويتردد في حوائجه ويظن أنه أداها لله .

وأصناف الغرور لا تحصى فليتحذر منها . وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام : المغرور في الدنيا مسكين وفي الآخرة مغبون ، لأنه باع الأفضل بالأدنى .

ولا تعجب من نفسك حيث ربما اغتررت بمالك وصحة جسمك لعلك تبقى وربما اغتررت بطول عمرك وأولادك وأصحابك لعلك تنجو بهم ، وربما اغتررت بحالك ومنيتك وإضابتك مأمولك وهواك وظننت أنك صادق ومصيب ، وربما اغتررت بما تُري الخلق من الندم على تقصيرك في العبادة ولعل الله يعلم من قلبك بخلاف ذلك ، وربما أقمت نفسك على العبادة متكلفاً والله يريد الإخلاص ، وربما افتخرت بعلمك ونسبك وأنت غافل عن مضمرات ما في علم الله ، وربما توهمت أنك تدعو الله وأنت تدعو سواه ، وربما حسبت أنك ناصح للخلق وأنت تريدهم لنفسك أن يميلوا إليك ، وربما ذممت نفسك وأنت تمدحها في الحقيقة .

واعلم انك لن تخرج من ظلمات الغرور والتمني إلا بصدق الإنابة إلى الله والإخبات له ومعرفة عيوب أحوالك من حيث لا يوافق العقل والعلم ولا يحتمله الدين والشريعة وسنن القدوة وأئمة الهدى ، وإن كنت راضياً بما أنت فيه فما أحد أشقى بعلمك منك وأضيع عمراً ، فأورثت حسرة يوم القيامة .

الركن الرابع

في المنجيات

وفيه أبواب :

الباب الأول
في التوبة

وفيه فصول

الفصل الأول : في حقيقة التوبة :

وهي عبارة عن معنى ينتظم من ثلاثة أمور مترتبة : أولها العلم ، وثانيها الحال ، وثالثها الفعل . والأول موجب للثاني ، والثاني موجب للثالث . والمراد بالعلم معرفة ضرر الذنوب وأنها السمومات المهلكة للدين المفوتة لحياة الأبد ، الحاجبة للعبد عن محبوبه من السعادة الأبدية.

ثم يحصل من هذا العلم حال ، وهو أن يثور من هذه المعرفة تألم القلب بسبب فوات المحبوب ، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم ، وينبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال بترك الذنب الذي كان له ملابساً ، وبالاستقبال بالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر ، وبالماضي بتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر.

والعلم الأول هو مطلع هذه الخيرات ، وهو عبارة عن الإيمان والتصديق بأن الذنوب سموم مهلكة ، وإذا أشرق على القلب ثار الندم الباعث على ما تقدم . وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدمة والترك كالثمرة والتابع ، وبهذا الاعتبار قال ﷺ: الندم توبة . إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه.

الفصل الثاني : في وجوبها وفضلها :

لا ريب في وجوب الاحتراز عن الأمراض والمهالك المفوتة لحياة الجسد عقلاً وشرعاً ، فوجوب الاحتراز عن أمراض الذنوب ومهلكات الخطايا المفوتة لحياة الأبد بطريق أولى ، وقال تعالى : ﴿توبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ وقال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم﴾ والنصوح الخالص لله الخالي عن الشوائب . وقال تعالى : ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المطهرين﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : التائب حبيب الله ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

وقال الباقر عليه السلام : الله أشد فرحاً بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها ، فالله تعالى أشد فرحاً لتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها .

وقال الصادق عليه السلام : إن الله يفرح بتوبة عبده المؤمن إذا تاب كما يفرح أحدكم بضالته إذا وجدها .

وعنه عليه السلام في قوله تعالى : ﴿توبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾ قال : هو الذنب الذي لا يعود فيه أبداً . قيل : وأينا لم يعد ؟ قال : يا فلان إن الله يحب من عباده المفتن التواب ـ يعني كثير الذنب كثير التوبة .

وعنه ﷺ قال : إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله وستر عليه . قيل : وكيف يستر عليه ؟ قال : يُنسي ملكيه ما كانا يكتبان عليه ، ويوحي الله إلى جوارحه وإلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه ، فيلقى الله تعالى حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب .

وقال الباقر عليه السلام : التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمقيم على الذنب وهو يستغفر منه كالمستهزىء .

الفصل الثالث : في فوريتها :

أما فوريتها فلا ريب فيها، لأن دفع ضرر الذنوب فوري وجوبه ، على أن أصل التوبة هو معرفة كون المعاصي مهلكات ، وهذا العلم من نفس الإيمان ، وهو واجب فوري.

والعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً على تركها ، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان ، وهو المراد بقوله ﷺ : «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن». إذ ليس المراد نفي الإيمان بالله وصفاته وكتبه ورسله وملائكته ، بل نفي الإيمان بكون الزنا مبعداً عن الله وموجباً للمقت ، كما إذا قال الطبيب هذا سم فلا تتناوله ، فإذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن ، أي بقوله إنه سم مهلك ، لا إنه غير مؤمن بوجود الطبيب ، لأن العالم بالسم لا يتناوله أصلاً ، فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان.

وليس الإيمان باباً واحداً ، بل هو نيف وسبعون باباً أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق . ومثله قول القائل : ليس الإنسان موجوداً واحداً بل هو نيف وسبعون موجوداً أعلاها القلب والروح وأدناها إماطة الأذى عن البشرة ، بأن يكون مقصوص الشارب مقلم الأظفار نقي البشرة عن الخبث ، حتى يتميز عن البهائم المتلوثة بأرواثها المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها.

فالإيمان كالإنسان ، وفقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية كفقد الروح والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة كالإنسان مقطوع الأطراف مفقود العينين فاقد لجميع أجزائه الظاهرة والباطنة إلا أصل الروح.

وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الأعضاء التي تمدها وتقويها ، فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان ، وهو مقصر في الأعمال قريب من أن تنقلع شجرة إيمانه إذا صدر منها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده ، فكل إيمان لم يثبت في النفس أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه

لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت ، وخيف عليه سوء الخاتمة إلا ما سقي بماء الطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت.

وإنما انقطعت نياط العارفين خوفاً من دواهي الموت ومقدماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأقلون ، فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملاً يجاوز الأمر فيه اختيار الأطباء ولا ينفع بعده الاحتماء ، فلا ينفع بعد ذلك نصح الناصحين ووعظ الواعظين ، ويحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين.

الفصل الرابع : في عمومها :

إعلم أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال ، فلا ينفك أحد عنه البتة ، قال تعالى : ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً﴾ فعمم الخطاب ، وكل إنسان لا يخلو عن معصية بجوارحه ، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب ، فإن خلا عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله ، فإن خلا عنه فلا يخلو عن الغفلة والقصور في العلم بالله وصفاته وآثاره بحسب طاقته ، وكل ذلك نقص وله أسباب وترك أسبابه بتشاغل أضدادها رجوع عن طريق الى ضده.

والمراد بالتوبة الرجوع ، ولا يتصور الخلو في حق الآدمي عن هذا النقص ، وإنما يتفاوتون في المقادير ، وأما الأصل فلا بد منه.

إلا أن الأنبياء والأوصياء ذنوبهم ليست كذنوبنا ، فإنما هي ترك دوام الذكر والاشتغال بالمباحات وحرمانهم زيادة الأجر بسبب ذلك ، ولهذا ورد : «إن حسنات الأبرار سيئات المقربين» وقال الصادق عليه السلام : إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتوب إلى الله ويستغفره في كل يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب، إن الله يخص أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب ـ أي كذنوبنا ، فإن ذنب كل أحد إنما هو بحسب قدره ومنزلته عند الله.

وهذا باب شريف ينفتح منه معاني اعتراف الأنبياء والأئمة عليهم السلام بذنوبهم وبكائهم وتضرعهم.

ثم اعلم أنه لا يكفي في تدارك الشهوات تركها في المستقبل، بل لا بد من محو آثارها التي انطبعت في القلب بنور الطاعات، قال صلى الله عليه وآله وسلم: أتبع السيئة بالحسنة تمحها.

وينبغي أن تكون الحسنة الماحية للسيئة مناسبة لتلك السيئة، فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وحضور المجالس التي يذكر الله فيها وأنبياؤه وخلفاؤه، ويكفر القعود بالمسجد جنباً بالعبادة فيه ونحو ذلك، وليس ذلك شرطاً.

روي أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا المسيس فاقض علي بحكم الله. فقال: أما صليت معنا؟ فقال: بلى. فقال: إن الحسنات يذهبن السيئات.

وينبغي أن يكون عن قرب عهد بالخطيئة، بأن يتندم عليها ويمحو أثرها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو، قال الله تعالى: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن﴾. قال الصادق عليه السلام: ذلك إذا عاين أمر الآخرة، وذلك أن التوبة مقبولة قبل أن يعاين.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: من ترك المبادرة الى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين: أحدهما أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير ريناً وطبعاً فلا يقبل المحو. والثاني أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو. ولذلك ورد في الخبر: إن أكثر صياح أهل النار التسويف.

الفصل الخامس : في قبول التوبة :

قال في الإحياء : إعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة ، فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله ، ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية الى وجه الله ، وعلموا أن القلب خلق سليماً في الأصل ، فكل مولود يولد على الفطرة وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها.

وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة ، وأن نور الحسنة تمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة ، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كما لا طاقة لظلام الليالي مع نور النهار ، بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون ، فكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لبسه ، فالقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره ، وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحار ينظفه لا محالة فاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الدموع وحرقة الندم تنظفه وتطهره وتزكيه.

وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول ، فعلى الإنسان التزكية والتطهير وعلى الله القبول ، إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله ، فلا يقوى الصابون على قلعه . ومثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتى يصير طبعاً وريناً على القلب ، فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب.

نعم قد يقول باللسان تبت ، فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب ، وذلك لا ينظف الثوب أصلاً ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف المتمكن منه ، قال الله تعالى : ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ وقال : ﴿غافر الذنب وقابل التوب﴾.

أقول : من طريق الخاصة في الكافي عن الصادق أو الباقر عليهما السلام : إن الله عز وجل قال لآدم عليه السلام : جعلت لك أن من عمل من ذريتك سيئة ثم

استغفر غفرت لـه . قال : يـا رب زدني . قال : جعلت لهم التـوبة حتى تبلغ النفس هذه . قال : يا رب حسبي .

وعن البـاقر عليه السلام قـال : إذا بلغت النفس هذه ـ وأومـأ بيـده إلى حلقـه ـ لم يكن للعالم توبة وكان للجاهل توبة .

وعن الصـادق عليه السلام قال : قـال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من تـاب قبـل مـوتـه بسنة قبل الله توبته ، ثم قـال : إن السنة لكثيـر من تاب قبـل موتـه بشهر قبـل الله توبته ثم قال : إن الشهر لكثير ، ثم قال : من تـاب قبل مـوته بجمعـة قبل الله تـوبته ، ثم قـال : وإن الجمعة لكثيـر من تـاب قبـل مـوتـه بيـوم قبـل الله توبته ، ثم قال : إن يوماً لكثير من تاب قبل أن يعاين قبل الله توبته .

وزاد في رواية الصدوق : من تاب قبل موته بسـاعة تـاب الله عليه ، ثم قـال : وإن السـاعـة لكثيـر من تـاب وقـد بلغت نفسـه هنـا ـ وأشـار بيـده إلى حلقه ـ تاب الله عليه .

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السمـاء ثم ندمتم لتـاب الله عليكم .

وقـال البـاقـر عليه السلام لمحمـد بن مسلم : ذنـوب المؤمن إذا تـاب منهـا مغفورة له ، فليعمل المؤمن لما يستـأنف بعد التـوبة والمغفـرة ، أمـا والله إنها ليست إلا لأهل الإيمان . قلت : فإن عاد بعـد التوبـة والاستغفار في الـذنوب وعاد في التوبة ؟ فقال عليه السلام : أترى العبد المؤمن ينـدم على ذنبه ويستغفـر الله منـه ويتوب ثم لا يقبـل الله توبتـه . قلت : فإنـه فعـل ذلـك مـراراً يـذنب ثم يتـوب ويستغفر ؟ فقـال : كلما عـاد المؤمن بالاستغفـار والتوبـة عاد الله عليـه بالمغفرة ، وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات .

وقـال الصـادق عليه السلام : إن الـرجـل ليـذنب الـذنب فيـدخله الله بـه الجنة . قيل : يدخله الله بالذنب الجنة ؟ قال : نعم ، إنه ليـذنب فلا يـزال منه خائفاً ماقتاً لنفسه فيرحمه الله فيدخله الجنة .

الفصل السادس : في تقسيم الذنوب التي يثاب منها :

وتنحصر جميع الذنوب في أربع صفات : صفات ربوبية ، وشيطانية ، وبهيمية ، وسبعية . . لكون طينة الإنسان معجونة من أخلاط مختلفة يقتضي كل منها أثراً :

فالربوبية كالكبر والفخر والتجبر وحب المدح والثناء والعز ودوام البقاء وطلب الاستعلاء ونحوها ، وهذه أم المهلكات.

والشيطانية كالحسد والبغي والحيلة والخداع والأمر بالفساد والمنكر والغش والشقاق والدعوة إلى البدع والضلالة.

والبهيمية كالشره والتكالب والحرص والزنا واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام ونحوها.

والسبعية يتشعب منها الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ونحوها.

ثم هذه أمهات الذنوب ومنابعها ، وتنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح ، فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء للناس ، وبعضها على العين والسمع ، وبعضها على اللسان ، وبعضها على البطن والفرج ، وبعضها على اليدين والرجلين ، وبعضها على جميع البدن .

وتنقسم قسمة ثانية إلى ما بين العبد وبين الله وإلى ما يتعلق بحقوق العباد : فما يتعلق بالعبد خاصة كتركه الصلاة والصوم ونحوهما ، وما يتعلق بحقوق العباد كتركه الزكاة وقتل النفس وغصب الأموال وشتم العرض.

وتنقسم قسمة ثالثة الى كبائر وصغائر ، قال الله تعالى : ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم﴾ وقال تعالى : ﴿والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾.

وقد اختلفت الأقوال والأخبار في تعيين الكبائر ، والأشهر أنها ما توعد

الله عليه النار . فعن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ قال : الكبائر التي أوجب الله عليها النار.

وفي الصحيح عن أبي جعفر الثاني قال : سمعت أبي يقول : سمعت أبي موسى بن جعفر يقول : دخل عمرو بن عبيد على أبي عبد الله عليه السلام، فلما سلم وجلس تلا هذه الآية ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾ ثم أمسك ، فقال له عليه السلام ما أسكتك ؟ قال : أحب أن أعرف الكبائر من كتاب الله فقال : نعم يا عمرو ، أكبر الكبائر الإشراك بالله يقول الله ﴿من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة﴾ ، وبعده اليأس من روح الله لأن الله يقول : ﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾ ، ثم الأمن من مكر الله لأن الله تعالى يقول : ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ ، ومنها عقوق الوالدين لأن الله جعل العاق جباراً شقياً وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق لأن الله تعالى يقول : ﴿فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾ الآية ، وقذف المحصنة لأن الله تعالى يقول : ﴿لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم﴾ ، وأكل مال اليتيم لأن الله يقول : ﴿إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾ ، والفرار من الزحف لأن الله يقول : ﴿ومن يولِّهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾ ، وأكل الربا لأن الله يقول : ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ ، والسحر لأن الله يقول : ﴿ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق﴾ ، والزنا لأن الله يقول : ﴿ومن يفعل ذلك يلق آثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً﴾ ، واليمين الغموس الفاجرة لأن الله يقول : ﴿الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة﴾ ، والغلول لأن الله يقول : ﴿ومن يغلل يأتي بما غلَّ به يوم القيامة﴾ ، ومنع الزكاة المفروضة لأن الله يقول : ﴿فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾ ، وشهادة الزور ، وكتمان الشهادة لأن الله يقول : ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ ، وشرب الخمر لأن الله تعالى نهى عنها كما نهى عن

عبادة الأوثان ، وترك الصلاة متعمداً أو شيئاً مما فرض الله لأن رسول الله ﷺ قال : «مَن ترك الصلاة متعمداً فقد بريء من ذمة الله وذمة رسوله» ، ونقض العهد وقطيعة الرحم لأن الله يقول : ﴿لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ . قال : فخرج عمرو وله صراخ من بكائه ، وهو يقول : هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم.

فإن قيل : كيف ورد الشرع بما لم يبين حده ، والكبائر مبهمة قد اختلفت في الأخبار ؟ .

فالجواب : إن كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا جاز أن يتطرق إليه الإبهام ، والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدنيا من حيث إنها كبيرة ، فإن موجبات الحدود معلومة بأساميها ، وإنما حكم الكبيرة أن اجتنابها يكفر الصغائر وأن الصلوات الخمس لا تكفرها ، كما في الحديث النبوي : الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفر ما بينهن إن اجتنب الكبائر.

وهذا أمر يتعلق بالآخرة والإبهام به أليق حتى يكون الناس على حذر ووجل ، فلا يتجرأون على الصغائر اعتماداً على الصلوات الخمس واجتناب الكبائر ، ثم اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة.

الفصل السابع : في بيان ما تعظم به الصغائر :

إعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب :

الأول : الإصرار والمواظبة ، ففي الكافي عن الصادق عليه السلام قال : لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار.

وعنه عليه السلام قال : لا والله لا يقبل شيئاً من طاعته على الإصرار على شيء من معاصيه.

وقال الباقر عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ولم يصروا على ما فعلوا وهم

يعلمون﴾ قال : الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر ولا يحدث نفسه بتوبة فذلك الإصرار .

وقد مثلوا ذلك بقطرات من الماء تقع على الحجر على توالي فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة لم يؤثر ، ولذلك قال رسول الله ﷺ : خير الأعمال أدومها وإن قلّ.

والأشياء تُستبان بأضدادها ، فإذا كان النافع من العمل هو الدائم وإن قلّ فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في ظلام القلب.

ومنها : أن يستصغر الذنب ، فإن العبد كلّ ما استعظمه من نفسه صغر عند الله وكل ما استصغره كبر عند الله لأن استعظامه يصدر نفور القلب عنه وكراهته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به واستصغاره يصدر عن الإلف به ، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب ، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات ، ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة.

وقد جاء في الحديث : إن المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب مرّ على أنفه فأطاره.

وعن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : اتقوا المحقرات من الذنوب فإنها لا تغفر . قيل : وما المحقرات ؟ قال : الرجل يذنب الذنب فيقول : طوبى لي لو لم يكن غير ذلك .

وعن الكاظم عليه السلام قال : لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلوا قليل الذنوب ، فإن قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيراً ، وخافوا الله في السر حتى تعطوا من أنفسكم النصف.

ومنها : السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها ، واعتداد التمكن من ذلك نعمة والغفلة عن كونه سبب الشقاوة ، وكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند الكبر كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه ، حتى إن من المذنبين من

يتمدح بذنبه ويتبجح ، ويقول المناظر في مناظرته أما رأيتني كيف فضحته .

والذنوب مهلكات ، وينبغي أن يكون مرتكبها في حزن وتأسف بسبب غلبة عدوه الشيطان عليه ، والمريض الذي يفرح بأن ينكسر إناؤه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه.

ومنها : أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه ، ولا يدري أنه إنما يمهل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً ، فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به ، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور ، كما قال تعالى : ﴿ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها وبئس المصير﴾.

ومنها : أن يأتي بالذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتي به في مشهد غيره ، فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي أسدله عليه ، وتحريك لرغبة الشر في من أسمعه ذنبه أو أشهده فعله ، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فتغلظت به ، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاحش الأمر . وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر ، فالإظهار كفران لهذه النعمة.

وفي الكافي عن الرضا عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة ، والمذيع بالسيئة مخذول ، والمستتر بها مغفور له.

وقال الصادق عليه السلام: من جاءنا يلتمس الفقه والقرآن وتفسيره فدعوه . ومن جاءنا يبدي عورة قد سترها الله عليه فنحوه.

ومنها : أن يكون المذنب عالماً يقتدى به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه ، كلبس العالم الإبريسم والذهب ، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين ، ودخوله على السلاطين وتودده إليهم ، ومساعدته إياهم بترك الانكار عليهم ، وإطلاقه اللسان في الغيبة والأعراض وتعديه باللسان في

المناظرة وقصده الاستخفاف ونحو ذلك ، فهذه الذنوب يتبع العالم عليها فيموت ويبقى شره مستطيراً في العالم «مدداً متطاولة . فطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه .

وفي الخبر : من سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيء ، قال تعالى : ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ والآثار ما يلحق الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل ، ولهذا قيل : «مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تغرق ويغرق أهلها» .

الفصل الثامن : في تجزئة التوبة :

وملخص الكلام فيها أن التوبة عن بعض الذنوب إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة :

أما الأول : فهو ممكن للعلم بأن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخطه ومقته ، والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليه ، وقد كثر التائبون ولم يكن أحد منهم معصوماً ، فلا تستدعي التوبة العصمة . والطبيب قد يحذر المريض العسل تحذيراً شديداً ويحذره السكر تحذيراً أخف منه على وجه يظهر منه عدم ظهور أثره .

وأما القسم الثاني : فهو ممكن أيضاً لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله ، كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعلمه بأن ديوان العباد لا يترك ، وما بينه وبين الله يسرع العفو إليه .

الثالث : أن يتوب عن صغيرة وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة ، كالذي يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى غير المحرم أو ما يجري مجراه وهو مصر على شرب الخمر ، وهو ممكن إذ ما من مؤمن إلا وهو خائف على معاصيه ونادم على فعله ندماً إما ضعيفاً وإما قوياً ، ولكن تكون لذة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها ، لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة وأسباب توجب قوة الشهوة ، فيكون الندم موجوداً ولكن لا يكون العزم قوياً عليه .

ويقول : لله علي أمران ولي على المخالفة فيه عقوبتان ، وأناملي في أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر فأقهره في ما أقدر عليه ، وأرجوه بمجاهدتي فيه أن يكفر عني ما عجزت عنه بفرط شهوتي .

وهذا حال كل مسلم ، وقد قال ﷺ : «الندم توبة» ولم يشترط الندم عن كل ذنب ، وقال ﷺ : «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» ولم يقل التائب من الذنوب كلها .

الفصل التاسع : في أقسام العباد في التوبة :

وهم طبقات :

الطبقة الأولى : أن يتوب العاصي ويستقيم إلى آخر عمره ، فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود الى ذنوبه ، إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادة ، وهي التوبة النصوح .

الطبقة الثانية : تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر الفواحش كلها ، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله ، من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها ولكنه إذا أقدم لام نفسه وندم وجدد عزمه على عدم العود . وهذه رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الأولى ، وهي أغلب أحوال التائبين ، لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه ، قال تعالى : ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم﴾ وقال تعالى : ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ . وفي الحديث. خياركم كل مفتن تواب . وفي الرواية : المؤمن كالسنبلة تفيء أحياناً وتميل أحياناً .

الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب فيقدم عليها عن قصد وصدق شهوة بعجزه عن قهر الشهوة ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من السيئات مع

القدرة والشهوة ، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان ، وهو يود قمعها ويقول : ليتني لم أفعل وسأتوب ، ولكنه يسوِّف نفسه في التوبة يوماً بعد يوم ، قال تعالى : ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ فهو مرجو عسى الله أن يتوب عليه إذا تاب.

الطبقة الرابعة : أن يتوب ويستقيم مدة ثم يعود إلى مقارفة الذنب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله ، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع الشهوات ، فهذا أقبح حال التائبين وأمر في مشيئة الله .

الفصل العاشر : في العلاج للإقبال على التوبة :

وهي أربعة أمور :

الأول : أن ينظر إلى الآيات والأخبار المخوفة للمذنبين والعاصين وما فيها من التهديد والوعيد على العقاب الشديد والعذاب الأكيد ، ففي بعض الأخبار من طرق الجمهور عنه ﷺ قال : ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات : يقول أحدهما يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ، ويقول الآخر يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، فيقول الآخر ويا ليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا فيقول الآخر ويا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تركوا الخوض في ما لم يعلموا.

وفي رواية : تجالسوا فتذاكروا ما علموا ، فيقول الآخر ويا ليتهم إذ لم يعملوا بما علموا تابوا عما عملوا.

وقال بعض العارفين : ما من عبد يعصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله للأرض وللسماء ، كفا عن عبدي وأمهلاه، فإنكما لم تخلقاه ولو خلقتماه لرحمتماه ، لعله يتوب إلي فأغفر له ، لعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات ، فذلك معنى قوله تعالى : ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده﴾.

الثاني : حكايات المذنبين التائبين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم.

الثالث : أن يتصور المذنب أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنب، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب بسبب جناية صدرت منه، قال تعالى : **﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾**.

وقال الصادق عليه السلام في هذه الآية : ليس من التواء عرق ولا نكبة حجر ولا عثرة قدم ولا خدشة عود إلا بذنب.

وفي رواية أخرى : أما إنه ليس من عرق يضرب ولا نكبة ولا صداع ولا مرض إلا بذنب، وذلك قول الله عز وجل في كتابه : **﴿ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾** قال : وما يعفو الله أكثر مما يؤاخذ به.

وقال عليه السلام : إن الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل، وإن العمل السيىء أسرع في صاحبه من السكين في اللحم.

الرابع : ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالخمر والزنا والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد، وهو مما لا يمكن حصره. وفي الحديث يقول الله تعالى : أدنى ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي.

وقال عليه السلام : من همّ بالسيئة فلا يعملها، فإنه ربما عمل العبد سيئة فيراه الرب تبارك وتعالى فيقول : وعزتي لا أغفر لك بعد ذلك أبداً.

وقال الكاظم عليه السلام : حق على الله أن لا بعصى في دار إلا أضحاها للشمس حتى يطهرها.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام وإنه لينظر إلى أزواجه في الجنة يتنعمن.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام لقائل بحضرته : أستغفر الله : ثكلتك أمك ، أتدري ما الاستغفار ؟ إن الاستغفار درجة العليين ، وهو اسم واقع على ستة معانٍ : أولها الندم على ما مضى ، والثاني العزم على ترك العود إليه أبداً ، والثالث أن تؤدي الى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة ، والرابع أن تعمدَ الى كل فريضة عليك ضيعتها تؤدي حقها ، والخامس أن تعمد الى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد ، والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول : أستغفر الله .

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : التوبة حبل الله ومدد عنايته ، ولا بد للعبد من مداومة التوبة على كل حال ، فتوبة الأنبياء من اضطراب السر ، وتوبة الأولياء من تلوين الخطرات ، وتوبة الأصفياء من التنفيس ، وتوبة الخلص من الاشتغال بغير الله ، وتوبة العالم من الذنوب.

ولكل واحد منهم معرفة وعلم في أصل توبته ومنتهى أمره ، وذلك يطول شرحه هنا.

فأما توبة العالم فأن يغسل باطنه من الذنوب بماء الحسرة والاعتراف بجنايته دائماً ، واعتقاد الندم على ما مضى والخوف على ما بقي من عمره ، ولا يستصغر ذنوبه فيحمله ذلك إلى الكسل ، ويديم البكاء والأسف على ما فاته من طاعة الله ، ويحبس نفسه عن الشهوات ، ويستغيث إلى الله ليحفظه على وفاء توبته ، ويعصمه من العود الى ما سلف ، ويروض نفسه في ميدان الجهاد والعباد ، ويقضي الفوائت من الفرائض ، ويرد المظالم ، ويعتزل قرناء السوء ، ويسهر ليله ويظمأ نهاره ، ويتفكر دائماً في عاقبته ، ويستعين بالله سائلاً منه الاستقامة في سرائه وضرائه ، ويثبت عند المحن والبلاء كي لا يسقط عن درجة التوابين ، فإن ذلك طهارة من ذنوبه وزيادة في عمله ورفعة في درجاته قال الله عز وجل : ﴿وليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾.

الباب الثاني
في الصبر

وفيه فصول

الفصل الأول : في فضْله :

قـال الله تعالى : ﴿إنمـا يوفى الصـابرون أجـرهم بغير حسـاب﴾ وقـال تعالى : ﴿أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾ وقال تعـالى : ﴿ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن مـا كانـوا يعملون﴾ وقال تعـالى : ﴿وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا﴾ وقال تعـالى : ﴿وجعلناهم أئمـة يهدون بأمرنا لما صبروا﴾ .

وما من طاعـة إلا وأجرهـا بحساب إلا الصبـر ، ولأجل كـون الصوم من الصبر قال تعالى : ﴿الصوم لي وأنا أجزي به﴾ .

ووعد الصابرين بأنه معهم فقال : ﴿واصبر إن الله مع الصابرين﴾ .

وعلق النصرة على الصبر فقـال : ﴿بلى إن تصبروا وتتقـوا ويأتـوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ .

وجمـع للصابـرين أمـوراً لـم يجمعهـا لغيـرهم فقـال : ﴿أولئـك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ .

وقال ﷺ : الصبر نصف الإيمان .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطي حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار.

وسئل صلى الله عليه وآله وسلم عن الإيمان فقال : الصبر والسماحة.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : الصبر كنز من كنوز الجنة.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس.

وقيل : أوحى الله إلى داود : تخلق بأخلاقي ، أنا الصبور .

وقال الصادق عليه السلام : إذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه والزكاة عن يساره ، والبر مظل عليه ، ويتنحى الصبر ناحية ، فإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته قال الصبر للصلاة والزكاة والبر : دونكم صاحبكم فإن عجزتم عنه فأنا دونه.

وعنه عليه السلام : من ابتلى من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له مثل أجر ألف شهيد.

وعنه عليه السلام قال : إن الله تعالى أنعم على قوم فلم يشكروا فصارت عليهم وبالاً ، وابتلى قوماً بالمصائب فصبروا فصارت عليهم نعمة.

وعنه عن أبيه عليه السلام قال : من لا يعد الصبر لنوائب الدهر يعجز.

وعن الباقر عليه السلام قال : الجنة محفوفة بالمكاره والصبر . فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة ، وجهنم محفوفة باللذات والشهوات ، فمن أعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : بني الإيمان على أربع دعائم : اليقين ، والصبر ، والجهاد ، والعدل.

الفصل الثاني : في حقيقته وأساميه وأقسامه :

إعلم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى ، والحرب بينهما على ساق ، ومحل المعركة قلب المؤمن ، ومدد باعث الدين من الملائكة

الناصرين لحزب الله ، ومدد باعث الشهوة والهوى من الشياطين الناصرين لأعداء الله فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة.

ثم إنه ضربان : بدني كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليه ، وهو إما بالفعل كتعاطي الأعمال الشاقة من العبادات ، وإما بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة ، ونفسي وهو الصبر عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ، وهو إن كان عن شهوة البطن والفرج سمي عفة ، وإن كان على احتمال مكروه فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر.

وضده حال يسمى الجزع والهلع ، وهو إطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها.

وإن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس ، ويضاده حالة تسمى البطر.

وإن كان في الحرب سمي شجاعة ، ويضاده الجبن.

وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلماً ، ويضاده التذمر والغضب .

وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ، ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر.

وإن كان في إخفاء كلام سمي كتماناً وصاحبه كتوماً ، وضده الإذاعة .

وإن كان في فضول العيش سمي زهداً ، ويضاده الحرص.

وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ، ويضاده الشره.

فالصبر جامع لأكثر أخلاق الإيمان ، وهو الرئيس الأعظم والإمام الأقوم فلذلك لما سئل ﷺ عن الإيمان قال : الصبر.

ثم إن العبد لا يستغني عن الصبر في جميع الأحوال ، لأن ما يلقاه العبد في الدنيا إما يوافق هواه وإما يكرهه ، وحاله غير خارج عن هذين القسمين ، وهو محتاج إلى الصبر في كل منهما :

أما النوع الأول : كالصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا ، فما أحوج العبد إلى الصبر في هذه الأمور ، لأنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان ، فإن الإنسان ليطغى إن رآه استغنى ، ولذا قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعوافي لا يصبر عليها إلا صديق لأنه مقرون بالقدرة ، ومن العصمة أن لا تقدر.

ولذا حذر الله تعالى عباده عن فتنة المال والزوج والولد ، فقال : **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله﴾** وقال : **﴿إن من أزواجكم وأولادكم عدو لكم﴾** وقال : **﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾**.

وأما النوع الثاني : وهو ما لا يوافق الهوى - فهو إما الذي يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي أو لا يرتبط باختياره كالمصائب والنوائب ، أو لا يرتبط أوله باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتشفي من المؤذي والانتقام منه.

والقسم الأول : هو سائر أفعاله التي توصف كونها طاعة أو معصية ، أما الطاعة فالعبد يحتاج إلى الصبر عليها ، لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية.

ثم من الطاعات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة ، ومنها ما يكره بسببهما معاً كالحج والجهاد ، فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد ، ويحتاج فيه إلى ثلاثة أحوال:

الأولى : قبل الطاعة ، وذلك في تصحيح النية والإخلاص ، والصبر عن شوائب الرياء ومكائد النفس ، وهو شديد ولذا قال ﷺ : إنما الأعمال

بالنيات . وقال تعالى : ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ وقال تعالى : ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات﴾.

الثانية : الصبر حالة العمل كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله ، ويلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ ، وهو أيضاً شديد.

الثالثة : الصبر بعد الفراغ من العمل عن إفشائه للسمعة والرياء ، والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن جميع المبطلات ، قال تعالى : ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ وقال : ﴿ولا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾.

والضرب الثاني المعاصي ، وما أحوج العبد الى الصبر عنها ، وأشدها المعاصي المألوفة بالعادة ، سيما إذا سهل فعله كالغيبة والكذب والرياء والثناء لأن العادة طبيعة ثابتة فإذا انضافت إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله.

والقسم الثاني : ما لا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه ، كما لو أوذي بقول أو فعل أو جني عليه في نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة ، ولذا قال تعالى ﴿ولتصبرن على ما آذيتمونا﴾ وقال تعالى : ﴿ودع أذاهم وتوكل على الله﴾ وقال تعالى : ﴿فاصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً﴾ وقال تعالى : ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذىً كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾ . وقال النبي ﷺ : صل من قطعك وأعط من حرمك وأعف عمن ظلمك.

القسم الثالث : ما لا يدخل تحت الاختيار أوله وآخره ، كالمصائب مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وسائر أنواع البلاء ، وهذا صبر مستنده اليقين ، قال ﷺ : أسألك من اليقين ما يهون به عليّ مصائب الدنيا . وقال ﷺ : قال الله تعالى : ﴿إذا وجهت على عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً﴾.

وقال ﷺ : انتظار الفرج بالصبر عبادة.

وقـال ؑ : ما من عبـد مؤمن أصيب بمصيبة فقـال كما أمـره الله تعالى ﴿إنـا لله وإنا إليـه راجعون اللهم أجـرني في مصيبتي وأعقبني خيراً منهـا﴾ إلا فعل الله ذلك.

وفي الكـافي عن علي ؑقـال : قـال رسـول الله ﷺ : الصبـر ثلاثة : صبر عند المصيبـة ، وصبر على الـطاعة ، وصبـر عن المعصية ، فمن صبـر على المصيبة حتى يـردها بحسن عـزائها كتب الله لـه ثلاثمـائة درجـة ما بين الـدرجة إلى الـدرجة كمـا بين السماء والأرض ، ومن صبـر على الـطاعـة كتب الله له ستمائـة درجة مـا بين الدرجـة الى الدرجـة كما بين تخـوم الأرض إلى العـرش ، ومن صبر على المعصيـة كتب الله لـه تسعمـائـة درجـة مـا بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض الى منتهى العرش.

وقـال البـاقـر ؑ: الصبـر صبـران : صبـر على البـلاء حسن جميـل ، وأفضل الصبرين الورع عن محارم الله.

واعلم أن الإنسان إنما يخرج من مقام الصابرين بـالجزع وشق الجيـوب وضرب الخدود والمبـالغة في الشكـوى ، وهذه الأمـور داخلة تحت الاختيار ، فينبغي أن يجتنب جميعهـا ويظهـر الرضـا بالقضـاء ، لا أنـه لا يكـره المصيبة في نفسه لأن ذلك غير مختار فـلا يخرجـه ذلك عن حـد الصابـرين ولا توجّـع القلب وفيضـان العين ، ولـذلـك لمـا مـات إبـراهيم ولـد النبي ﷺ فـاضت عيناه ، فقيل له : أما نهيتنـا عن هذا ؟ قـال : إن هذا رحمـة وإنما يـرحم الله من عبـاده الـرحمـاء وقـال ﷺ : تـدمـع العين ويحـزن القلب ولا نقـول مـا يسخط الرب.

بـل ذلك أيضـاً لا يخرج عن مقـام الرضـا ، فـإن المقـدم على الفصـد والحجامة راض بـه وهو متـألم بسببه لا محـالة . نعم من كمـال الصبر كتمـان المرض والفقر وسائر المصائب، فعن الباقر ؑقال : قال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى : «من مـرض فلم يشك إلى عـواد أبدلتـه لحماً خيـراً من لحمه

ودماً خيراً من دمه ، فإن عافيته عافيته ولا ذنب له، وإن قبضته قبضته إلى رحمتي» . وفُسّر التبديل بأن يبدله لحماً ودماً وبشرة لم يذنب فيها ، وفسرت الشكاية بأن يقول : ابتليت بما لم يبتل به أحد وأصابني ما لم يصب أحداً وقال ﷺ: وليس الشكوى أن يقول : سهرت البارحة وحممت اليوم ونحو هذا.

وسئل الباقر ﷺ عن الصبر الجميل فقال : ذاك صبر ليس فيه شكوى ، وأما الشكاية إلى الله تعالى فلا بأس بها كما قال يعقوب : ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ .

الفصل الثالث : في دواء الصبر وعلاجه :

إعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء ، فالصبر وإن كان شاقاً ولكن يمكن تحصيله بمعجون العلم والعمل ، بتقوية باعث الدين ، وتضعيف باعث الهوى بالمجاهدة والرياضة وذكر قلة قدر الشدة ودقتها، وإضرار الجزع وقبحه، وأن يكثر فكره في ما ورد في فضل الصبر وحسن عواقبه في الدنيا والآخرة، وأن يعلم أن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات ، وأنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة ، إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة الدنيا وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر.

ومن أسلم خسيساً في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخيس في الحال ، وأن يعوِّد هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجاً حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجرىء عليها ويقوي منته في مصارعتها ، فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال، ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد.

ثم إن كان ذلك بتعب قوي فتصبُّر وإن كان بيسير فصبر ، وإن كان بجهد ففرض وإن كان بتلذذ فشكر ، وهو بالغيبة عن حظوظ النفس والشهود مع الله تعالى وعدم التميز بين الألم واللذة.

الباب الثالث
في الرضا بالقضاء

وهو ترك الاعتراض والسخط ، قال الله تعالى : ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾ .

وقال الصادق ﷺ : رأس طاعة الله الصبر ، والرضا في ما أحب العبد أو كره ، ولا يرضى عبد عن الله في ما أحب أو كره إلاّ كان خيراً له في ما أحب أو كره .

وقال ﷺ : إن أعلم الناس بالله أرضاهم بقضاء الله .

وقال الكاظم ﷺ : ينبغي لمن عقل عن الله أن لا يستبطئه في رزقه ولا يتهمه في قضائه .

وقال الصادق ﷺ : قال الله عز وجل : عبدي المؤمن لا أصرفه في شيء إلا جعلت له خيراً ، فليرض بقضائي وليصبر على بلائي وليشكر نعمائي أكتبه يا محمد من الصديقين عندي .

وقال ﷺ : إن في ما أوحى الله عزّ وجل إلى موسى بن عمران : ما خلقت خلقاً أحب إلي من عبدي المؤمن ، وإني إنما أبتليه لما هو خير له ، وأزوى عنه لما هو خير له ، وأعافيه لما هو خير له ، وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي فليصبر على بلائي وليشكر نعمائي وليرض بقضائي أكتبه في

الصديقين عندي إذا عمل برضاي وأطاع أمري.

وقال ﷺ: عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله عز وجل له قضاء إلا كان خيراً له، وإن قرض بالمقاريض كان خيراً له، وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له.

وقال الباقر ﷺ: أحق خلق الله أن يسلم لما قضى الله عز وجل، من عرف الله عز وجل ومن رضي بالقضاء أتى عليه القضاء وعظم الله أجره، ومن سخط القضاء مضى عليه القضاء فأحبط الله أجره.

وقال السجاد ﷺ: الزهد عشرة أجزاء، أعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين، وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا.

وعن النبي ﷺ أنه سأل طائفة من أصحابه فقال: ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون.. فقال: ما علامة إيمانكم؟ فقالوا: نصبر عند البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء. فقال ﷺ: مؤمنون ورب الكعبة. وفي رواية: حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء.

وههنا كلام، وهو أنه كيف يتصور الرضا بأنواع البلاء والابتلاء وما يخالف الهوى والطبع، وإنما يتصور الصبر في هذه الأمور دون الرضا؟.

فاعلم أن الرضا فرح الحب، فإذا حصلت المحبة حصل الرضا، ولذلك مرتبتان عليا وسفلى:

أما العليا: فهو أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحس وتصيبه الجراحة ولا يدرك ألمها، وشاهده في عالم الأجسام الرجل المحارب، فإنه في حال غضبه أو خوفه قد تصيبه جراحات عظيمة ولا يحس بها ولا بألمها، فإذا رأى الدم استدل به على الجراحة، وكذلك الذي يعدو في شغل أو حاجة قد تصيبه شوكة في قدمه ولا يحس بالألم لاشتغال قلبه، وإذا اشتغل القلب صار مستغرقاً بأمر من الأمور لم يدرك ما

عداه ، وكذا العاشق والمحب إذا أصابه ألم ـ سيما من المحبوب ـ لا يدركه لاستيلاء الحب عليه.

وأما المرتبة السفلى : فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضياً به بل راغباً فيه مريداً له بعقله وإن كان كارهاً له بطبعه نظراً إلى ثوابه الذي أعد له . ونظيره في عالم الأجسام الذي يلتمس من الفصاد الفصد ومن الحجام الحجامة ومن الطبيب الدواء المر . فإنه يدرك ألمه إلا أنه راض به راغب فيه متقلد فيه المنة لما يعلم من العاقبة.

وقد حكي أن امرأة عثرت فانقطع ظفرها وسال الدم فضحكت ، فقيل لها : أما تألمت ؟ فقالت : لذة الأجر أنستني الألم.

ويروى أن أهل مصر كانوا إذا جاعوا نظروا الى وجه يوسف عليه السلام فيشغلهم جماله عن الإحساس بألم الجوع.

وفي القرآن ما هو أبلغ من ذلك ، وهو قطع النسوة أيديهن ولم يحسسن بذلك لما نظرن إلى جماله عليه السلام

واعلم أن الدعاء غير مناقض للرضا ، لأنه عبادة تعبدنا الله بها وجعل من لم يدعه مستكبراً عليه مستحقاً للعذاب ، فقال تعالى : **﴿أدعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾**.

وكذا تعبدنا الله بإنكار المعاصي وكراهتها ، فروي أن من شهد منكراً ورضي به فكأنه قد فعله . وفي آخر : لو أن عبداً قتل بالمشرق ورضي بقتله آخر بالمغرب كان شريكه في قتله.

واعلم أن فائدة الرضا في الحال فراغ القلب للعبادة والراحة من الهموم وفي المال رضوان الله والنجاة من غضبه ، فقد قال سبحانه : من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي فليطلب رباً سوائي.

والطريق إلى تحصيله أن يعلم أن ما قضى الله سبحانه له فهو الأصلح بحاله وإن لم يبلغ علمه بسره وحكمته ، ولا مدخل للهم فيه ولا يتبدل

القضـاء به ، فـإن ما قـدر لا محالـة يكون ومـا لم يقدر لا يكـون ، وما أحسن ما قيل :

مـا لا يكون فـلا يكـون بحيلة أبـداً ومـا هـو كـائن سيكــون

وحسرة الماضي وتدبير الآتي يذهبان ببركة الوقت بلا فـائدة وتبقى تبعـة السخط عليـه ، بل ينبغي أن يـدهشه الحب عن الإحسـاس بـالألم كـالعـاشق والحريـص ،وأن يهون عليـه العلم بجزيـل الثواب وعـظيم الأجـر كـالمـريض والتاجر المتحملين شدة الحجامة والسفر ، فيفوض أمره الى الله إن الله بصير بالعباد.

الباب الرابع
في الشكر

والكلام فيه في فصول

الفصل الأول : في فضله :

إعلم أن الله تعالى قرن الشكر مع الذكر في قوله: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ فقال : ﴿أذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ وقال تعالى : ﴿ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم﴾ وقال تعالى : ﴿وسنجزي الشاكرين﴾ وقال تعالى : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ ، وقال تعالى : ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الطاعم الشاكر له من الأجر كأجر الصائم المحتسب والمعافي الشاكر له من الأجر كأجر المحروم القانع.

وعنه عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما فتح الله على عبد باب شكر فخزن عنه باب الزيادة.

وعنه عليه السلام قال : من أعطي الشكر أعطي الزيادة ، قال الله تعالى : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾.

وعنه عليه السلام قال : ما أنعم الله على عبد بنعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهراً بلسانه فتم كلامه حتى يؤمر له بالمزيد.

وعن الباقر عليه السلام قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند عائشة ليلتها فقالت : يا رسول الله لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً.

قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقوم على أصابع رجليه ، فأنزل الله سبحانه : ﴿طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾.

وعن الصادق عليه السلام قال مكتوب في التوراة : أشكر من أنعم عليك وأنعم على من شكرك ، فإنه لا زوال للنعماء إذا شكرت ولا بقاء لها إذا كفرت ، الشكر زيادة في النعم وأمان من الغير.

وسئل عليه السلام عن قوله تعالى : ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ ؟ قال : الذي أنعم الله عليك بما فضلك وأعطاك وأحسن عليك . ثم قال : فحدث بدينه وما أعطاه الله وما أنعم به عليه.

وقال عليه السلام : ثلاث لا يضر معهن شيء : الدعاء عند الكرب ، والاستغفار عند الذنب ، والشكر عند النعمة.

وقال عليه السلام : شكر النعمة اجتناب المحارم ، وتمام الشكر قول الرجل ﴿الحمد لله رب العالمين﴾.

وقال عليه السلام : شكر كل نعمة وإن عظمت أن يحمد الله عز وجل.

وقال عليه السلام : ما أنعم الله على عبد بنعمة صغرت أو كبرت فقال : ﴿الحمد لله﴾ إلاّ أدى شكرها .

وقال عليه السلام : إن الرجل منكم ليشرب الشربة من الماء فيوجب الله بها الجنة ، ثم قال عليه السلام : إنه ليأخذ الإناء فيضعه على فيه فيسمي ، ثم يشرب فينحيه وهو يشتهيه فيحمد الله ، ثم يعود فيشرب ثم ينحيه فيحمد الله ، فيوجب الله عز وجل بها له الجنة.

وقال الكاظم عليه السلام : من حمد الله على نعمة فقد شكره ، وكان الحمد أفضل من تلك النعمة.

وعن عمر بن يزيد قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : إني سألت الله عز وجل أن يرزقني مالاً فرزقني ، وإني سألت الله أن يرزقني ولداً فرزقني ، وسألته أن يرزقني داراً فرزقني ، وقد خفت أن يكون ذلك استدراجاً . فقال : أما والله مع الحمد فلا .

وعنه عليه السلام أنه خرج من المسجد وقد ضاعت دابته ، فقال : لئن ردها الله علي لأشكرن الله حق شكره ، فما لبث أن أوتي بها فقال : الحمد لله . فقيل له : جعلت فداك أليس قلت لأشكرن الله حق شكره ؟ فقال عليه السلام : ألم تسمعني قلت ﴿الحمد لله﴾ .

وعنه عليه السلام قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا ورد عليه أمر يسره قال : «الحمد لله على هذه النعمة» ، وإذا ورد عليه أمر يغتم به قال : «الحمد لله على كل حال» .

وعنه عليه السلام قال : تقول ثلاث مرات إذا نظرت إلى المبتلى من غير أن تسمعه «الحمد لله الذي عافاني بما ابتلاك به ولو شاء لفعل» من قال ذلك لم يصبه ذلك البلاء أبداً .

الفصل الثاني : في حده وحقيقته :

إعلم أن الشكر من أفضل الأعمال ، وهو ينتظم من علم وحال وعمل . فالعلم هو الأصل فيورث الحال ، والحال يورث العمل ، والعلم هو معرفة النعمة من المنعم ، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه ، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ، ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان .

وينبغي لمن أراد شكر الله أن يعلم بأن النعم كلها من الله تعالى ، والوسائط مسخرون سخرهم لك برحمته وألقى في قلوبهم من الاعتقاد والرأفة ما صاروا به مضطرين إلى الإيصال إليك ، وهذا هو الشكر بالقلب .

وأما الفرح بالنعم مع هيئة الخضوع والتواضع فهو أيضاً في نفسه شكر

على حدة ، كما أن المعرفة شكر ، فإن كان فرحك بالنعم خاصة لا بالنعمة ولا بالإنعام بل من حيث إنك تقدر النعمة على التوصل إلى القرب من المنعم فهو المرتبة العليا من الشكر ،وإمارته أن لا تفرح بنعم الدنيا إلا من حيث إنها مزرعة الآخرة ومعينة عليها ، وتفرح بهذا المقدار وتحزن بكل نعمة تلهيك عن ذكر الله ، وهذا أيضاً شكر بالقلب.

وأما العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم فهو يتعلق بالقلب واللسان والجوارح : أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق ، وأما باللسان فبإظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه ،وأما بالجوارح فاستعمال نعم الله في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته ، حتى إن شكر العينين أن يستر كل عيب يراه بمسلم ، وشكر الأذنين أن يستر كل عيب يسمعه لمسلم ، فيدخل هذا وأمثاله في جملة شكر نعمة هذه الأعضاء.

بل قال أرباب المعرفة : إن من كفر نعمة العين فقد كفر نعمة الشمس أيضاً ، إذ الإبصار إنما يتم بها ، وإنما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتقي بهما ما يضره فيهما ، بل المراد من خلق الأرض والسماء وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول إلى الله ، ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به في الدنيا والتجافي عن غرورها ، ولا أنس إلا بدوام الذكر ، ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا ببقاء البدن ، ولا يبقى البدن إلا بالأرض والماء والهواء ، ولا يتم ذلك إلا بخلق الأرض والسماء وخلق سائر الأعضاء ، وكل ذلك لأجل البدن ، والبدن مطية النفس ، والراجع إلى الله هي المطمئنة بطول العبادة والمعرفة ، فكل من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لإقدامه على تلك المعصية ، ولذا كان الشاكر الحقيقي قليلاً ، قال تعالى : ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾.

الفصل الثالث : في بيان معنى الشكر في حقه تعالى:

لعلك تقول : إن الشكر إنما يعقل في حق منعم هو صاحب حظ في الشكر ، فإنا نشكر الملوك إما بالثناء ليزيد محلهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد صيتهم وجاههم ، أو بالخدمة التي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم ، أو بالمثول بين أيديهم في صورة الخدم لتكثير سوادهم وزيادة جاههم ، وهذا كله محال في حقه تعالىٰ لوجهين .

أحدهما : إنه تعالى منزه عن الحظوظ والأغراض والحاجة ونشر الجاه والحشمة وتكثير السواد ونحو ذلك.

الثاني : إن جميع ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى علينا من نعم الله ، إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعيتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته ، فكيف نشكر نعمته بنعمته ؟ .

ولو أعطانا الملك مركوباً فأخذنا مركوباً آخر له وركبناه ، وأعطانا مركوباً آخر لم يكن الثاني شكراً للأول منا بل كان الثاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول ، ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدي ذلك إلى أن يكون الشكر محالاً في حقه تعالى ، وقد ورد الشرع به فكيف طريق الجمع بينهما ؟ .

فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود أو لموسى على اختلاف الروايتين ففي الكافي عن الصادق عليه السلام قال : أوحى الله عز وجل إلى موسى : يا موسى أشكرني حق شكري . فقال : يا رب وكيف أشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به إلا وأنت أنعمت به علي . قال : يا موسى الآن شكرتني حيث علمت أن ذلك مني .

وفي حديث آخر : وشكري لك نعمة أخرى منك توجب الشكر لك . فقال تعالى : إذا عرفت أن النعم مني رضيت منك بذلك شكراً .

وعن السجاد عليه السلام أنه كان إذا قرأ هذه الآية ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ قال : سبحان من لم يجعل في أحد من معرفة نعمه إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها كما لم يجعل في أحد من معرفة إدراكه أكثر من العلم بأنه لا يدركه.

والجواب عن الأول : إن طلب الله من عباده الشكر كسائر التكاليف يرجع نفعه إليهم لا إليه.

وإن أردت إيضاح ذلك فاعلم أن ملكاً من الملوك لو أرسل إلى عبد قد بعد عنه مركوباً وملبوساً ونقداً لأجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ، فذلك الملك يتصور له حالتان : الأولى أن يكون قصده من إحضار عبده القيام ببعض مهماته والحظ بخدمته ، والثانية أن لا يكون له حظ في حضوره أبداً ولا يزيد حضوره في ملكه مثقال ذرة ، ولكنه قصد بذلك أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته ليرجع النفع الى العبد نفسه لا إلى الملك ، وإرادة الله الشكر من عباده مثال الحالة الثانية.

الفصل الرابع : في طريق تحصيل الشكر :

وهو مركب من العلم والعمل ، بأن يعرف الله ويتفكر في مصنوعاته وينظر إلى الأدنى في الدنيا فيشكر الله ، وإلى الأعلىٰ في الدين فيجتهد في الوصول الى مرتبته ، ويشكر في المصائب على أنه لم يصب بأكبر منها ، وأنها لم تكن مصيبة دينية بل دنيوية ، وأنه قد عجلت عقوبتها ولم تدخر للآخرة وأن ثوابها خير له ، وأنها تنقص من القلب حب الدنيا ، بل ربما بغضت الدنيا التي حبها رأس كل خطيئة إليه ، فهي في الحقيقة نعم يجب الشكر عليها ، إذ لا تخلو مصيبة عن تكفير خطيئة أو رياضة نفس أو رفع درجة.

وليسأل الله العافية فإنها خير من البلاء ، فكان النبي والأئمة عليهم السلام يستعيذون بالله من بلاء الدنيا وبلاء الآخرة ، وكانوا يقولون : «ربنا آتنا في

الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة» وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء ومن سوء القضاء ومن حلول البلاء ، وقال رسول الله ﷺ : سلوا الله العافية ، فما أعطي عبد أفضل من العافية إلا اليقين . وأشار باليقين إلى عافية القلب من مرض الجهل.

الباب الخامس
في الرجاء والخوف

وهما جناحان يطير بهما المقربون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كؤود ، وتحقيقهما في فصول:

الفصل الأول :

الرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ، ولكن ذلك المحبوب متوقع لا بد وأن يكون له سبب ، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق ، وإن كان ذلك انتظاراً مع انخرام أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء ، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني أصدق على انتظاره من اسم الرجاء.

وأيما كان فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه ، أما ما يقطع به فلا ، فلا يقال : أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب ، ويقال : أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه.

وقد علم أرباب القلوب والعرفان بالبيان والوجدان والعيان أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالأرض والإيمان كالبذر فيه والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ومجرى الأنهار وسياق الماء إليها ، والقلب المحب

للدنيا كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ، ويوم القيامة يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا ينمى زرع إلا من بذر الإيمان ، وقلما ينفع الإيمان مع خبث القلب بالأخلاق الرديئة ، كما لا ينمى زرع في أرض سبخة فليقس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع.

فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً جيداً وأمده بما يحتاج إليه من سوق الماء في أوقاته ونقى الأرض عن الشوك والحشيش وسائر الموانع وجلس منتظراً من فضل الله دفع الصواعق المفسدة الى أن يتم الزرع ويبلغ غايته سمي انتظاره رجاءً ، وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها ماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً ثم انتظر الحصاد منه سمي انتظاره حمقاً وغروراً.

فينبغي للعبد أن يبث بذر الإيمان في القلب ويسقيه بماء الطاعات ويطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة وينتظر من فضل الله تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية الى المغفرة ، فإذا فعل ذلك كان انتظاره رجاءً محموداً ، وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق وانتظر المغفرة فانتظاره حمق وغرور لا رجاء ، ولهذا قال النبي ﷺ : الدنيا مزرعة الآخرة . وقال ﷺ : الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى . وقال تعالى : ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله﴾ أي أولئك ينبغي لهم أن يرجوا لا سواهم.

وقال تعالى : ﴿فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا﴾.

وعن الصادق عليه السلام أنه قيل له : إن قوماً من مواليك يلمون بالمعاصي ويقولون : نرجو . فقال : كذبوا ليسوا لنا بموال ، أولئك قوم ترجحت بهم الأماني : من رجا شيئاً عمل له ، ومن خاف شيئاً هرب منه .

وقال عليه السلام : لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ، ولا يكون

خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو.

وقال حكيم : من خاف شيئاً هرب منه ، ومن خاف الله هرب إليه.

وقال آخر : من أعظم الاغترار التمادي في الذنوب على رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقع القرب من الله عز وجل بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصي ، وانتظار الجزاء بغير عمل.

واعلم أن الرجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات في جميع الأحوال ، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله والتنعم بمناجاته والتلطُف في التملق له ، فإن هذه الأحوال تظهر على من يرجو مثله من العبيد فكيف لا تظهر في حق الله . ومن ذلك يعلم أن جلّ رجائنا بل كله حمق وغرور ، فالمستعان بالله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الفصل الثاني : في فضل الرجاء وترجيحه على الخوف :

إعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف ، لأن أقرب العباد إلى الله أحبهم إليه ، والحب يغلب بالرجاء . واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاءً لثوابه ، ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب ، ولا سيما وقت الموت ، قال الله تعالى : **﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾** وقال تعالى : **﴿إن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾**.

وعيَّر الله قوماً فقال : **﴿وذلكُم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم﴾** وقال: **﴿وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً﴾**.

وفي أخبار يعقوب : إن الله تعالى أوحى إليه : أتدري لِمَ فرقت بينك وبين يوسف ؟ لقولك **﴿إني أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾** لَمَ خفت الذئب ولم ترجني ؟ ولِمَ نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له ؟ .

وقال عليه السلام : لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله .

وقال عليه السلام : يقول الله أنا عند ظن عبدي بي ، فليظنَّ بي ما شاء .

ودخل عليه السلام على رجل وهو في النزع فقال : كيف تجدك ؟ قال : أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي . فقال عليه السلام : ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وآمنه مما يخاف .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله يقول للعبد يوم القيامة : ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكر فإن لقنه الله حجته ، قال : يا رب رجوتك وخفت الناس . قال : فيقول الله تعالى : قد غفرت لك .

وقال الباقر عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قال الله تعالىٰ : « لا يتكل العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي ، فإنهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم أعمارهم في عبادتي كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي في ما يطلبون عندي من كرامتي والنعيم في جناتي ورفيع الدرجات العلى في جواري ، ولكن برحمتي فليتقوا وفضلي فليرجوا وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا ، فإن رحمتي عند ذلك تدركهم ، فإني أنا الله الرحمان الرحيم وبذلك تسميت» .

وعنه عليه السلام قال : وجدنا في كتاب علي عليه السلام : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال وهو على منبره : والذي لا إله إلا هو ما أعطي مؤمن خير الدنيا والآخرة إلا بحسن ظنه بالله ورجائه له وحسن خلقه والكف عن اغتياب المؤمنين ، والذي لا إله إلا هو لا يعذب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار إلا بسوء ظنه بالله وتقصيره من رجائه وسوء خلقه واغتيابه للمؤمنين ، والذي لا إله إلا هو لا يحسن ظن مؤمن بالله إلا كان الله عند ظن عبده المؤمن ، لأن الله كريم بيده الخيرات يستحي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظن ثم يخالف ظنه ورجاه ، فأحسنوا بالله الظن وارغبوا إليه .

وقال الصادق عليه السلام : حسن الظن بالله أن لا ترجو إلا الله ولا تخاف إلا ذنبك .

الفصل الثالث : في دواء الرجاء وسبب حصوله :

إعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين : إما رجل غلب عليه اليأس فيترك العبادة ، وإما رجل غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله ، وهما مائلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط فيحتاجان إلى علاج ودواء يردهما إلى الاعتدال.

وأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فالرجاء في حقه سم قاتل ، بل دواؤه الخوف والأسباب المهيجة له ، ودواء الرجاء أمران : الاعتبار ، والآيات والأخبار :

أما الاعتبار : فالتدبر في كثرة نعم الله على العبد في الدنيا . وسوابق فضل الله من دون شفيع ، وما وعد من جزيل ثوابه من دون استحقاق ، وما أنعم بما يمد في الدارين من دون سؤال وسعة الرحمة وسبقها الغضب ، وأنه أرحم من الأم الشفيقة بأولادها الصغار ، ورحمته في الآخرة أوسع منها في الدنيا كما ورد ، فهو لا محالة يرحمهم في الآخرة كما رحمهم في الدنيا.

والثاني : استقراء الآيات والأخبار الواردة في فضل الرجاء ، سيما في ما ورد في أدعية أئمة الهدى ، ففي ما ورد عنهم عليهم السلام: إلهي أمرتنا أن نعفو عمن ظلمنا وقد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا فإنك أولى بذلك منا ، وأمرتنا أن لا نرد سائلاً عن أبوابنا وقد جئناك سؤالاً فلا تردنا ، وأمرتنا أن نعتق من مماليكنا من قد شاب في ملكنا وقد شبنا في ملكك فأعتق رقابنا من النار ، وأمرتنا بالإحسان إلى ما ملكت أيماننا ونحن أرقاؤك فأعتقنا من النار ، وأمرتنا أن نتصدق على فقرائنا ونحن فقراؤك فتصدق علينا.

وفيها : اللّهمّ إنك قلت لنبيك صلى الله عليه وآله : ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ اللهم إن نبيك لا يرضى بأن تعذب أحداً من أمته في النار .

وهذا المضمون في كلماتهم عليهم السلام كثير .

الفصل الرابع : في الخوف :

الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال وهو أيضاً ينتظم من علم وحال وعمل :

أما العلم : فهو العلم بالسبب المفضي الى المكروه ، كمن جنى على ملك ثم وقع في يده وهو يخاف القتل ويجوز العفو والإفلات ، ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله ، وهو تفاحش جنايته وكون الملك في نفسه غضوباً منتقماً ، وكون هذا الجاني عاطلاً عن كل حسنة تمحو أثر جنايته عند الملك ، فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب ، ولسبب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف .

فهذا العلم سبب لاحتراق القلب وتألمه وخوفه وهو الحال ، وهذا الحال يثمر فعلاً بالاستعداد والتهيؤ لما يصلح للعفو.

والخوف من الله تارة يكون بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ، وتارة يكون بكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي ، وتارة يكون بهما جميعاً وبحسب معرفته بعيوب نفسه ومعرفته بجلال الله ، فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك قال ﷺ : أنا أخوفكم لله . ولذا قال تعالى : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ .

ثم إذا كملت تلك المعرفة وأورثت حال الخوف واحتراق القلب أفضى أثر الحرقة من القلب على القلب وعلى البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات :

أما في البدن فبالنحول والصفار والبكاء ونحو ذلك .

وأما في الجوارح فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافياً لما فرط واستعداداً للمستقبل ، ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف بأن يعاقب عليه .

وأما الصفات فهو أن يقمع الشهوات بالخوف ويؤدب الجوارح ويكدر اللذات ، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سماً ، فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، بل يصير مستوعب الهمة بخوفه والنظر في خطر عاقبته فلا يتفرق لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ومؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات ، فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره.

هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه ، وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال الامتناع من المحظورات ، ويسمى الكف الحاصل من المحظورات ورعاً ، فإن زادت قوته وكف عما يتطرق إليه إمكان التحريم فيسمى ذلك تقوى ، إذ التقوى أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه ، وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق في التقوى ، فإذا انضم إليه التجرد للخدمة فصار لا يبني ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفساً من أنفاسه فهو الصدق وصاحبه جدير بأن يسمى صديقاً.

ويدخل في الصدق التقوى ، وفي التقوى الورع ، وفي الورع العفة ، فإنها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة ، فإذا الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام .

الفصل الخامس : في فضيلة الخوف وسببه والترغيب فيه :

قال الله تعالى : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ وقال تعالى : ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾ وقال تعالى : ﴿وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ وقال تعالى : ﴿سيذكر من يخشى﴾ وقال تعالى : ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾.

وقـال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ما من مؤمن تخـرج من عينيه دمعـة وإن كانت مثـل رأس الـذباب من خشيـة الله ثم تصيب شيئاً من حـر وجهه إلا حـرمه الله على النار.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحاتت عنـه خطايـاه كما يتحات من الشجر ورقها.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : لا يلج النار أحـد بكى من خشية الله حتى يعـود اللبن في الضرع.

وقال الصادق عليه السلام لإسحـاق بن عمار : يـا إسحاق خف الله كـأنك تـراه وإن كنت لا تـراه فإنـه يراك ، وإن كنت تـرى أنه لا يـراك فقـد كفـرت ، وإن كنت تعلم أنـه يراك ثم بـرزت له بـالمعصية فقـد جعلته من أهـون النـاظـرين إليك.

وعنـه عليه السلام قال: من خاف الله خاف منه كـل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء .

وعنـه عليه السلام : من عرف الله خـاف الله ، ومن خاف الله سخت نفسـه عن الدنيا.

وعنه عليه السلام : إن من العبادة شدة الخوف من الله ، قال تعالىٰ : ﴿إنما يخشى الله من عبـاده العلماء﴾ ، وقـال تعـالى : ﴿فـلا تخشوا النـاس واخشـون﴾ وقـال تعالى : ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً﴾.

وقـال عليه السلام: إن حبَّ الشـرف والذكـر لا يكـونـان في قلب الخـائف الراهب.

وقـال عليه السلام: المؤمن بين مخافتين : ذنب قـد مضى لا يـدري مـا صنـع الله فيه ، وعمر قد بقي لا يدري مـا يكتسب فيه من المهـالك ، فهـو لا يصبح إلا خائفاً ولا يصلحه إلا الخوف.

وعنه عليه السلام : لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خـائفاً راجيـاً ، ولا يكون

خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو.

والخوف يحصل من الإيمان بالله وبرسوله ، وبما جاء به الرسول من الحساب والعذاب والعقاب ، ولحصول الخوف طريقان أحدهما أعلى من الآخر .

ومثال ذلك أن الصبي إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف ، بل ربما مد يده الى الحية ليأخذها ويلعب بها ولكن إذا كان معه أبوه ورآه الصبي قد ارتعدت فرائصه وهو يحتال في الهرب وقد غلب عليه الخوف ، حصل له الخوف من ذلك ، لعلمه بأنه لا يخاف إلا من سبب مخوف في نفسه ، فخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وسمها وسطوة السبع وبطشه ، وخوف الولد إنما كان بمجرد التقليد ، لأنه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب مخوف ، فيعلم أن السبع والحية مخوفان ولا يعرف وجههما ، وخوف الأنبياء والأوصياء والعلماء من القسم الأول وخوف عموم الخلق من المؤمنين من القسم الثاني .

ويكفي في الخوف التفكير في الآيات القرآنية ، فإن أكثرها تخويفات وتهديدات لمن تدبر ، ولو لم يكن إلا قوله تعالى : ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ وقوله تعالى : ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ حيث علق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن أحدها .

وقوله تعالى : ﴿فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين﴾ وقوله تعالى : ﴿ليسئل الصادقين عن صدقهم﴾ وقوله تعالى : ﴿أفأمنوا مكر الله﴾ وقوله تعالى : ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ وقوله تعالى : ﴿اعملوا ما شئتم﴾ وقوله تعالى : ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءاً منثوراً﴾ وقوله تعالى : ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ حيث شرط أربعة شروط للخلاص من الخسران لكان فيها الكفاية .

وروي أن النبي ﷺ كان إذا هبت ريح عاصفة يتغير وجهه ويقوم ويتردد

في الحجرة ويدخل ويخرج خوفاً من عذاب الله.

وقرأ ﷺ آية في سورة الحاقة نصعق. وقال تعالى: ﴿فخر موسى صعقاً﴾.

وكان ﷺ إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل.

وروي أن داود عليه السلام كان يقول في مناجاته: إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت عليّ الأرض برحبها، وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلي روحي، سبحانك إلهي أتيت أطباء عبادك ليداووا خطيئتي فكلهم عليك يدلني، فبؤساً للقانطين من رحمتك.

وقيل إنه عليه السلام ذكر ما صدر منه ذات يوم فوثب صارخاً واضعاً يده على رأسه حتى لحق بالجبال، فاجتمعت إليه السباع فقال: ارجعوا لا أريدكم إنما أريد كل بكّاء على خطيئته، فلا يستقبلني إلا البكّاء.

وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول: دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تحريق العظام واشتعال الحشا، وقبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وحكي أنه عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعاً لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء، فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له الى البرية منبراً، فيأمر سليمان أن ينادي بصوت يستقرىء البلاد وما حولها من الغياض والآكام والجبال والبراري والصوامع والبيع فينادي: ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت. قال: فتأتي الوحوش من البراري والآكام وتأتي السباع من الغياض وتأتي الهوام من الجبال وتأتي العذارى من خدورهن ويجتمع الناس لذلك اليوم، ويأتي داود حتى يرقى على المنبر ويحيط به بنو إسرائيل وكل صنف على حدة يحيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه، فيأخذ في الثناء على ربه، فيضجون بالبكاء والصراخ، ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتموت الهوام وطائفة من الوحوش والناس والسباع، ثم يأخذ في أهوال القيامة، وفي النياحة على نفسه

فيموت من كل نوع طائفة ، فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال : يا أبتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق وماتت طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام فيأخذ في الدعاء ، فبينا هو كذلك إذ ناداه بعض عباد بني إسرائيل : يا داودأعجلت بطلب الجزاء على ربك ؟ فيخر مغشياً عليه ، فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه أتى بسرير فحمله عليه ثم أمرمنادياً ينادي : ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله ، فإن الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار ، فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول : يا من قتله ذكر النار يا من قتله خوف الله . ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول : يا إله داود أغضبان أنت على داود. ولا يزال يناجي فيأتي سليمان عليه السلام فيقف على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص من شعير ويقول : يا أبتاه تقوَّ بهذا على ما تريد ، فيأكل من ذلك القرص ما شاء الله ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم.

ويحكى أن إبراهيم عليه السلام كان إذا ذكر ما صدر منه يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلاً في ميل ، فيأتيه جبرئيل فيقول له : الجبار يقرئك السلام ويقول : هل رأيت خليلاً يخاف خليله ؟ فيقول : يا جبرئيل إني إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلتي.

وكان يسمع أزيز قلبه عليه السلام إذا كان في الصلاة مسيرة ميل خوفاً من ربه.

ويكفيك في ذلك بكاء الأئمة الطاهرين عليهم السلام وخوفهم ومناجاتهم فما بالنا لا نخاف ألكثرة طاعاتنا أم لقلة معاصينا أم لغفلتنا وقسوتنا ؟! فلا قرب الرحيل ينبهنا ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا ولا خوف سوء الخاتمة يزعجنا.

الفصل السادس :

قد تحصل من ملاحظة ما سبق أن الخوف من الله على مقامين :

أحدهما : الخوف من عذابه ، وهو خوف عموم الخلق المؤمنين بالجنة والنار ، وإذا ضعف هذا الخوف فسببه ضعف الإيمان والغفلة ، ويقوى بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال القيامة وأصناف العذاب والنظر في أحوال الخائفين.

والثاني : وهو الأعلى ـ أن يكون الله تعالى هو المخوف ، بأن يخاف البعد والحجاب عنه ، ويرجو القرب منه وهو خوف من عرفه من الأنبياء والأوصياء والعلماء ممن عرفوا من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى : ﴿ويحذركم الله نفسه﴾.

ثم إن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه : والمكروه إما أن يكون مكروهاً في ذاته كالنار ، وإما أن يكون مكروهاً لأنه يفضي الى المكروه ، كما تكره المعاصي لأدائها الى العذاب.

والخائفون من القسم الثاني منهم من يغلب عليه خوف الموت قبل التوبة، أو خوف نقض التوبة، أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله، أو خوف زوال رقة القلب وتبديلها بالقساوة ، أو خوف الميل عن الاستقامة ، أو خوف استيلاء العادة في اتباع الشهوات المألوفة ، أو خوف أن يكله الله إلى حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله ، أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه ، أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله ، أو خوف الاستدراج بتواتر النعم ، أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حتى يبدو له من الله ما لم يكن يحتسب ، أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والخيانة والغش وإضمار السوء ، أو خوف ما لا يدري أن يحدث في بقية عمره ، أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل الموت ، أو خوف الاغترار بزخارف الدنيا ، أو خوف خاتمة السوء ، أو خوف اطلاع الله على سريرته في حال غفلته ، أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل.

وهذه كلها مخاوف العارفين ، ولكل منها خصوص فائدة ، وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضي الى المخوف فمن يخاف استيلاء العادة عليه

فليواظب على الفطام عن العادة ، والذي يخاف من اطلاع الله على سريرته يشتغل بتطهير قلبه. . . وهكذا.

وأما الخائفون من المكروه لذاته فمنهم من يغلب عليهم سكرات الموت وشدته أو سؤال منكر ونكير أو عذاب القبر أو هول المطلع أو هيبة الموقف بين يدي الله تعالى أو الحياء من كشف الستر أو السؤال عن النقير والقطمير أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه أو الخوف من النار وأغلالها وأهوالها أو الخوف من الحرمان عن الجنة أو النعيم في الملك المقيم أو من نقصان الدرجات أو الخوف من الحجاب عن الله ، وهو أعلاها رتبة ، وهو خوف العارفين من الأنبياء والعلماء والصالحين.

الفصل السابع :

قد عرفت توارد الأخبار في فضيلة الخوف والرجاء ، وربما يعتري الناظر الشك في كون أيهما أفضل ؟.

فاعلم أن ذلك يضاهي قول القائل «الخبز أفضل أم الماء».

وجوابه : إن الخبز أفضل للجائع والماء أفضل للعطشان ، وإن اجتمعا نظر إلى الأغلب : فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل ، وإن استويا فهما متساويان.

وكذا إن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله والاغترار به فالخوف أفضل ، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل.

وأما بالنسبة إلى المؤمن المتقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح به أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، كما ورد في الأخبار ، ففي الكافي عن الصادق عليه السلام وقد قيل له : ما كان في وصية لقمان ؟ فقال : كان فيها الأعاجيب وكان أعجب ما كان فيها أن قال لابنه : خف الله خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذبك ، وارج الله رجاءً لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك .

ثم قال ﷺ: كان أبي يقول : إنه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران نور خيفة ونور رجاء ، لو وزن هذا لم يزد على هذا ، ولو وزن هذا لم يزد على هذا.

ويرشد الى ذلك أيضاً قوله تعالى في وصف من أثنى عليهم : ﴿ويدعوننا رهباً ورغباً﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾ .

وغلبة الرجاء في غالب الناس مستندها الاغترار وقلة المعرفة ، والأصلح لهم قبل الإشراف على الموت غلبة الخوف ، وعند الموت غلبة الرجاء وحسن الظن كما ورد في الأخبار ، والسر في ذلك أن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل ، وقد انقضى وقت العمل ، وهو لا يطيق هناك أسباب الخوف لأنها تقطع نياط قلبه وتعين على تعجيل موته . وروح الرجاء يقوي قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه.

واعلم أن الرجاء محمود الى حد ، فإن تجاوز إلى الأمن فهو خسران ، قال تعالى : ﴿ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾ ، وكذا الخوف محمود إلى حد فإن جاوز الى القنوط فهو ضلال﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلّا الضالون﴾ ، أو إلى اليأس فهو كفر ﴿ولا ييأس من روح الله إلّا القوم الكافرون﴾ .

الباب السادس
في الزهد

والكلام فيه في فصول

الفصل الأول :

قال تعالى : ﴿من كـان يريـد حرث الـدنيا نؤتـه منها وما له في الآخـرة من نصيب﴾ وقـال تعالى : ﴿ولا تمـدن عينيك إلى مـا متعنا بـه أزواجـاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾ .

وفي الحديث : أوحى الله إلى الدنيـا أن اخدمي من خـدمني ، ونغصي وكدري عيش من خدمك .

وقال النبي ﷺ : من أصبح وهمـه الدنيـا شتت الله عليه أمـره ، وفرق عليـه ضيعته ، وجعـل فقره بين عينيـه ، ولم يأتـه من الدنيـا إلا ما كتب لـه ، ومن أصبـح وهمه الآخـرة جمع الله لـه همـه ، وحفظ عليـه ضيعتـه ، وجعـل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة .

وقال ﷺ : إذا رأيتم العبد قد أعطي صمتـاً وزهداً في الـدنيا فـاقربـوا منـه ، فإنـه يلقي الحكمة ، وقـد قال الله تعـالى : ﴿ومن يؤت الحكمـة فقـد أوتي خيراً كثيراً﴾ .

وعنـه ﷺ : إزهد في الـدنيـا يحبـك الله ، وازهد في ما أيـدي النـاس يحبك الناس .

وعنه ﷺ : من أراد أن يؤتيه الله علماً بغير تعلم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا.

وقال ﷺ : من زهد في الدنيا أحل الله الحكمة في قلبه فأنطق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالماً إلى دار السلام.

وقال ﷺ : من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله بثلاث : هم لا يفارق قلبه أبداً ، وفقر لا يستغني معه أبداً ، وحرص لا يشبع معه أبداً .

وقال ﷺ : لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف ، وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته.

الفصل الثاني : في حقيقته :

الزهد هو صرف الرغبة عن الدنيا وعدم إرادتها بقلبه إلا بقدر ضرورة بدنه ، وقد تقدم تحقيق معنى الدنيا ، ومنه يعلم أن الزهد في الدنيا لا ينافي كثرة المال والخدم ونحوهما إلا إذا كان محباً لها بقلبه وراغباً فيها وتشغله عن ذكر الله.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : الزهد كله بين كلمتين من القرآن ، قال سبحانه : ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ . ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه.

وقال عليه السلام : الزهد في الدنيا قصر الأمل ، وشكر كل نعمة ، والورع عن كل ما حرم الله عز وجل.

وقال الصادق عليه السلام : ليس الزهد في الدنيا بإضاعة المال ولا تحريم الحلال ، بل الزهد في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منك بما عند الله .

نعم لما كان جمع المال ونحوه بالنسبة إلى حال أكثر الناس لضعف نفوسهم يحرك الرغبة في الدنيا فزهدهم إنما يكون في تركه ، كما ورد في

خبر آخر عن الصادق عليه السلام حيث سئل عن الزهد فقال : الذي يترك حلالها مخافة حسابه ، ويترك حرامها مخافة عقابه.

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : الزهد مفتاح باب الآخرة والبراءة من النار ، وهو تركك كل شيء يشغلك عن الله من غير تأسف على فوتها ولا إعجاب في تركها ولا انتظار فرج منها وطلب محمدة عليها ولا عوض لها ، بل ترى فوتها راحة وكونها آفة ، وتكون أبداً هارباً من الآفة معتصماً بالراحة . والزاهد الذي يختار الآخرة على الدنيا والذل على العز والجهد على الراحة والجوع على الشبع وعافية الآجل على محبة العاجل والذكر على الغفلة ، وتكون نفسه في الدنيا وقلبه في الآخرة.

الفصل الثالث : في أقسام الزهد ومراتبه :

إعلم أن الزهد في نفسه على ثلاث درجات :

الأولى : وهي السفلى أن يزهد في الدنيا وهو لها مشتهٍ وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ولكنه يجاهدها ويكفها ، وهي الدرجة الأولى من الزهد.

الثانية : أن يترك الدنيا طوعاً لاستحقاره إياها بالإضافة إلى الآخرة المرغوب فيها ، كالذي يترك درهماً لأجل درهمين ، فإنه لا يشق عليه ذلك ، وهو يظن بنفسه أنه ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه.

الثالثة : وهي العليا أن يزهد طوعاً ويزهد في زهده فلا يرى زهده ، إذ لا يرى أنه ترك شيئاً ، حيث عرف أن الدنيا لا شيء ، فيكون كمن ترك نواة وأخذ جوهرة ، فلا يرى ذلك معاوضة ، وهذا كمال الزهد.

ومثله مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه ، فألقى إليه لقمة خبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى نفذ أمره في جميع مملكته ، أفترى أنه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة خبز ألقاها الى الكلب في مقابلة ما ناله ، فالشيطان كلب على باب الله يمنع الناس من

الدخول والدنيا كلقمة خبز يأكلها ، فلذتها حال المضغ وتنقضي على القرب بالابتلاع ، ثم يبقى ثقله في المعدة ، ثم ينتهي إلى النتن والقذر ويحتاج الى إخراج الثفل ، فمن يتركها لينال قرب الملك كيف يلتفت إليها ؟! .

وينقسم الزهد قسمة أخرى بالإضافة الى المرغوب فيه إلى ثلاث درجات :

أسفلها : أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار وسائر الآلام ، كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط ، وهذا زهد الخائفين.

وأوسطها : أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعمته واللذات الموعودة في جنته ، وهذا زهد الراجين.

وأعلاها : أن لا يكون له رغبة إلا في الله ولقائه ، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى اللذات ليقصد نيلها والظفر بها بل هو مستغرق الهم بالله ، وهو الذي أصبح وهمه هم واحد ، فهو لا يطلب غير الله لأن من طلب غير الله فقد عبده ، وكل مطلوب معبود وكل عبد بالإضافة إلى مطلوبه ، وهذا زهد المحبين والعارفين.

وينقسم أيضاً الى فرض ونفل وسلامة : فالفرض هو الزهد في الحرام ، والنفل هو الزهد في الحلال ، والسلامة هو الزهد في الشبهات.

واعلم أن للزاهد الحقيقي ثلاث علامات:

الأولى : أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود ، كما أشار إليه أمير المؤمنين في الاستنباط من قوله تعالى : **﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾** وهذا علامة الزهد في المال .

والثانية : أن يستوي عنده مادحه وذامه ، وهو علامة الزهد في الجاه.

والثالثة : أن يكون أنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة.

الفصل الرابع :

ليعلم أن من ثمرة الزهد السخاء ومن ثمرة الرغبة في الدنيا البخل ، فالمال إن كان مفقوداً فالأليق بحال الإنسان القناعة ، وإن كان موجوداً فالأليق بحال صاحبه السخاء والبذل لأهله واصطناع المعروف.

والسخاء من أخلاق الأنبياء وأصول النجاة ، والسخي حبيب الله.

وقال النبي ﷺ : السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية على الأرض ، فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلى الجنة.

وقال النبي ﷺ : قال جبرئيل : قال الله تعالىٰ : «إن هذا دين ارتضيته لنفسي ، ولن يصلحه إلاّ السخاء وحسن الخلق ، فأكرموه بهما ما استطعتم».

وقال ﷺ : إن من موجبات المغفرة بذل الطعام وإفشاء السلام وحسن الكلام.

وقال ﷺ : تجافوا عن ذنب السخي ، فإن الله أخذ بيده كلما عثر أقاله.

وقال ﷺ : طعام الجواد دواء ، وطعام البخيل داء.

وقال ﷺ : إن السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد من النار ، وإن البخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار ، وجاهل سخي أحب إلى الله من عابد بخيل ، وأدوى الداء البخل.

وإعلم أن أرفع درجات السخاء الإيثار ، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه ، قال الله تعالى في معرض المدح : ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾ . وقال تعالى : ﴿**ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً**﴾.

وقال النبي ﷺ : أيما امرىء اشتهى شهوة فردَّ شهوته وآثر على نفسه غفر له .

وينبغي للفقير أن لا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه ، فإن ذلك جهد المقل ، وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غني .

الباب السابع
في محبة الله تعالى والأنس به

وفيه فصول

الفصل الأول : في حقيقتها :

إعلم أن الحب للشيء عبارة عن الميل إليه والالتذاذ به ، وهو فرع معرفة ذلك الشيء ، ومعرفته قد تكون بالحواس وقد تكون بالقلب ، وكلما كانت المعرفة به أقوى واللذة أشد وأكثر كان الحب أقوى.

ولا ريب أن البصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر ، والقلب أشد إدراكاً من العين ، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار ، فتكون لا محالة لذة القلوب بما تدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ ، فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ، فلا ينكر إذاً حب الله تعالى إلا من قعد به القصور في درجة البهائم فلم يتجاوز إدراكه الحواس.

وكما أن الإنسان يحب نفسه وكمال نفسه وبقاء نفسه كذلك قد يحب غيره لذاته لا لحظ يناله منه وراء ذاته ، بل تكون ذاته عين حظه ، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق به.

وإن احتجت إلى شاهد على ذلك في عالم الدنيا فانظر الى الطباع السليمة كيف تراها تستلذ بالنظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار الحسنة

والألوان المليحة ، حتى إن الإنسان لتنفرج عنه الغموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر .

وكان رسول الله ﷺ يعجبه النظر إلى الخضرة والماء الجاري ، فالخضرة والماء الجاري محبوبان لا لشرب الماء وأكل الخضرة.

ثم الحسن والجمال ليسا مقصورين على مدركات البصر ولا على تناسب الخلقة ، إذ يقال : هذا صوت حسن ، وهذا خلق حسن ، وهذا علم حسن ، وهذه سيرة حسنة ، وليس شيء من هذه الصفات يدرك بالبصر . بل ليس الحسن والجمال مقصوراً على مدركات الحواس ، إذ كثير منها يدرك بالبصيرة الباطنة ، ولذا ترى الطباع السليمة مجبولة على حب الأنبياء والأئمة عليهم السلام مع أنهم لم يشاهدوهم .

ولما تواتر وصف أمير المؤمنين بالشجاعة وحاتماً بالسخاء أحبتهما القلوب حباً ضرورياً بدون نظر الى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله المحب منهما .

ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة.

ثم كل محب إما أن يحب نفسه أو يحب غيره ، ومحبة الغير إما لحسنه وجماله أو لإحسانه وكماله أو لمجانسة بينه وبين المحب:

أما محبة النفس فهي أشد وأقوى ، لأن المحبة إنما تكون بقدر الملاءمة والمعرفة ، ولا شيء أشد ملاءمة لأحد من نفسه ، ولا هو لشيء أقوى معرفة منه بنفسه ، ولهذا جعل معرفة نفسه مفتاحاً لمعرفة ربه ، ووجود كل أحد فرع لوجود ربه ، فمحبة نفسه ترجع إلى محبة ربه وإن لم يشعر المحب به .

وأما محبة الغير لحسنه وجماله أو تقربه من الله وكماله فذلك لأن الجمال محبوب لذاته ، سواء كان ذلك الجمال ظاهرياً صورياً أو باطناً

معنوياً ، وكذا الكمال ، والله تعالى هو الجميل لذاته والكامل بذاته ، وكل مليح حسنه من جماله ، وكل كامل فكماله فرع كماله ، فما أحب أحد غير خالقه ولكنه احتجب عنه تحت وجوه الأحباب وأستار الأسباب .

وكذا الكلام في محبة الغير للإحسان ، فإن الإحسان أيضاً محبوب لذاته ، سواء كان متعدياً إلى المحب أم لا ، ولا إحسان إلا من الله ولا محسن سوى الله جل شأنه ، فإنه خالق الإحسان وذويه وجاعل أسبابه ودواعيه ، وكل محسن فهو حسنة من حسنات قدرته وحسن فعاله ، وقطرة من بحار كماله وأفضاله.

وأما محبة الغير المجانسة فذلك لأن الجنس يميل الى الجنس ، سواء كانت المجانسة لمعنى ظاهر كما أن الصبي يميل الى الصبي لصباه ، أو لمعنى خفي كما يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال ولا طمع في جاه أو مال ، فإن الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ، وهذه المحبة فرع لمحبة النفس ، فترجع إلى محبة الله كما عرفت .

فعلى كل وجه ما متعلق المحبة إلا الله ، إلا أنه لا يعرف ذلك إلا أولياؤه وأحباؤه ، كما أشار إليه سيد الشهداء عليه السلام في دعاء عرفة بقوله : وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلتجئوا الى غيرك ، فسبحان من احتجب عن أبصار العميان غيرة على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبقت له منه الحسنى الذين هم عن نور الحجاب مبعدون ، وترك الخاسرين في ظلمات العمى يتيهون ، وفي مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون.

إذا عرفت هذا علمت فساد مقالة الزاعمين أن المحبة لا تكون إلا مع الجنس والمثل ، ومحبة الله حقيقة ممتنعة.

الفصل الثاني : في الشواهد على محبة الله تعالى وفضلها :

قال الله تعالى في وصف أمير المؤمنين وأولاده الطاهرين : ﴿سوف

يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ وقال تعالى : ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾ وقال تعالى : ﴿قل إن كان آبائكم وأبنائكم وإخوانكم﴾ الى قوله تعالى : ﴿أحب إليكم من الله ورسوله﴾ ـ الآية.

وقال النبي ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

وقال ﷺ في دعائه : اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك وحب ما يقربني الى حبك ، واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد.

وفي الخبر المشهور أن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه: هل رأيت خليلاً يميت خليله ؟ فأوحى الله إليه : هل رأيت محباً يكره لقاء حبيبه ؟ فقال يا ملك الموت الآن فاقبض.

وفي ما ناجى الله به موسىٰ بن عمران : يابن عمران كذب من زعم أنه يحبني ، فإذا جنه الليل نام عني ، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه ؟ هأنذا يابن عمران مطلع على أحبائي ، إذا جنهم الليل حولت أبصارهم إلي من قلوبهم ، ومثلت عقوبتي بين أعينهم يخاطبونني عن المشاهدة ويكلمونني عن الحضور . يابن عمران هب لي من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع ومن عينيك الدموع في ظلم الليل فإنك تجدني قريباً.

وروي أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم ، فقال لهم : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا : الخوف من النار . فقال : حق على الله أن يؤمن الخائف ، ثم جاوزهم إلى ثلاثة أُخر فإذا هم أشد نحولاً وتغيراً فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : الشوق الى الجنة . قال : حق على الله أن يعطيكم ما ترجون . ثم جاوزهم الى ثلاثة أُخر فإذا هم أشد نحولاً وتغيراً كأن على وجوههم المرايا من النور ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ قالوا : حب الله عز وجل : فقال ثلاثاً : أنتم المقربون أنتم المقربون.

وروى الصدوق في علل الشرائع عن نبينا ﷺ أن شعيباً بكى من حب

الله عز وجل حتى عمي فرد الله عليه بصره ، ثم بكى حتى عمي فرد الله عليه بصره ، ثم بكى حتى عمي فرد الله عليه بصره ، فلما كانت الرابعة أوحى الله إليه : يا شعيب الى متى يكون هذا أبداً منك ؟ إن يكن هذا خوفاً من النار فقد أجرتك وإن يكن شوقاً الى الجنة فقد أبحتك . فقال : إلهي وسيدي أنت تعلم أني بكيت لا خوفاً من نارك ولا شوقاً الى جنتك ولكن عقد حبك على قلبي فلست أصبر وأراك . فأوحى الله جل جلاله : أما إذا كان هذا هكذا فمن أجل هذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران .

وقال أمير المؤمنين ﵇ في دعاء كميل : فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي وربي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك .

وقال ابنه سيد الشهداء في دعاء عرفة : أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا الى غيرك .

وقال ﵇ يا من أذاق أحباءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين .

وفي المناجاة الإنجيلية المنسوبة الى السجاد ﵇ وعزتك لقد أحببتك محبة استقرت في قلبي حلاوتها وأنست نفسي بمباشرتها ، ومحال في عدل أقضيتك أن تسد أسباب رحمتك عن معتقدي محبتك .

وفي مناجاته الأخرى : إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم ، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم .

وقال ﵇ : وألحقنا بعبادك الذين هم بالبدار إليك يسارعون ، وبابك على الدوام يطرقون ، وإياك في الليل والنهار يعبدون ، وهم من هيبتك مشفقون ، الذين صفيت لهم المشارب وبلغتهم الرغائب .

وقال ﵇ : وملأت حفائرهم من حبك ، ورويتهم من صافي شراب ودك ، فبك إلى لذيذ مناجاتك وصلوا ، ومنك على أقصى مقاصدهم حصلوا . ثم قال ﵇ فقد انقطعت إليك همتي وانصرفت نحوك رغبتي ،

فأنت لا غيرك مرادي ولك لا سواك سهري وسهادي ، ولقاؤك قرة عيني ، ووصلك مني نفسي ، وإليك شوقي ، وفي محبتك ولهي ، وإلى هواك صبابتي ، ورضاك بغيتي ، ورؤيتك حاجتي ، وجوارك طلبتي ، وقربك غاية مسألتي ، وفي مناجاتك روحي وراحتي ، وعندك دواء علتي وشفاء غلتي وبرد لوعتي وكشف كربتي . ثم قال : ولا تقطعني عنك يا نعيمي وجنتي ويا دنياي وآخرتي .

وقال ﷺ أيضاً : إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلاً ، ومن ذا الذي آنس بقربك فابتغى عنك حولا . إلهي فاجعلني ممن اصطفيته لقربك وولايتك ، وأخلصته لودك ومحبتك ، وشوقته إلى لقائك ، وأرضيته بقضائك ، ومنحته النظر إلى وجهك ، وحبوته برضاك وأعذته من هجرك وقلاك . ثم قال ﷺ: وهيمت قلبه لإرادتك ، واجتبيته لمشاهدتك ، وأخليت وجهه لك ، وفرغت فؤاده لحبك . ثم قال ﷺ: اللهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح إليك والحنين ، وديدنهم الزفرة والأنين ، وجباههم ساجدة لعظمتك ، ودموعهم سائلة من خشيتك ، وقلوبهم معلقة بمحبتك ، وأفئدتهم منخلعة من هيبتك . يا من أنوار قدسه لا تزال شارقة وسجات نور وجهه لقلوب عارفيه شائقة ، يا منتهى قلوب المشتاقين ، ويا غاية آمال المحبين ، أسألك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يوصل الى قربك وأن تجعلك أحب إلي ممن سواك .

وقال أيضاً : إلهي ما ألذ خواطر الإلهام بذكرك على القلوب ، وما أحلى المسير إليك في مسالك العيوب ، وما أطيب حبك ، وما أعذب شرب قربك . . إلى أن قال : وغلتي لا يبردها إلاّ وصلك، ولوعتي لا يطفئها إلا لقاؤك ، وشوقي إليك لا يبله إلا النظر إلى وجهك ، وقراري لا يقر دون دنوي منك ، ولهفتي لا يردها إلا روحك ، وسقمي لا يشفيه إلا طبك ، وغمي لا يزيله إلا قربك ، وجرحي لا يبرئه إلا صفحك ، وصَدأ قلبي لا يجلوه إلا عفوك ، ووسواس صدري لا يزيحه إلا منُك .

الفصل الثالث : في معنى محبة الله سبحانه لعبده :

يرجع معناها الى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه ، وإلى تمكينه إياهمن القرب إليه ، وإلى إرادته ذلك به ، وإلى تطهير باطنه من حب غيره وتخليته عن عوائق تحول بينه وبين مولاه حتى لا يسمع إلا بالحق ومن الحق ولا يبصره إلا به ولا ينطق إلا به ، كما ورد في الحديث القدسي : لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به .

فيكون تقربه بالنوافل سبباً لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه ، وكل ذلك من فضل الله ولطفه به ، قال تعالى : ﴿يحبهم ويحبونه﴾ وقال : ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً﴾ وقال : ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الإيمان إلاّ من يحب .

وقال ﷺ : إذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فإن صبر اجتباه وإن رضي اصطفاه .

وقال ﷺ : إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه .

وأخص علاماته حبه لله ، فإن ذلك يدل على حب الله عز وجل له .

وأما الفعل الدال على كونه محبوباً فهو أن يتولى الله أمره ظاهره وباطنه سره وجهره ، فيكون هو المشير عليه والمدبر لأموره والمزين لأخلاقه والمستعمل لجوارحه والمسدد لظاهره وباطنه والجاعل لهمومه هماً واحداً ، والمبغض للدنيا في قلبه والموحش له من غيره والمؤنس له بلذة المناجاة في خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته .

ثم اعلم أن الطريق إلى تحصيل المحبة وتقويتها تطهير القلب عن شواغل الدنيا وعلائقها والتبتل إلى الله بالذكر والفكر ، ثم إخراج حب غير الله منه ، فإن القلب مثل الإناء الذي لا يسع للخل مثلاً ما لم يخرج منه الماء ، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

وكمال الحب في أن يحب الله بكل قلبه ، وما دام يلتفت الى غيره فزاوية من قلبه مشغولة لغيره ، فبقدر ما يشتغل بغير الله ينقص منه حب الله ، إلا أن يكون التفاته الى الغير من حيث إنه صنع الله وفعل الله ومظهر من مظاهر أسماء الله .

وبالجملة أن يحبه لله وفي الله كحب الأنبياء المرسلين والأئمة الطاهرين والأولياء والصالحين.

اللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك وحب ما يقرب الى حبك ، وهيىء لنا أسباب حبك حتى نحبك ونحب من يحبك بمحمد وآله.

الباب الثامن
في اليقين

وفيه فصلان

الفصل الأول : في فضله :

قال الله تعالى : ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾.

وقال النبي ﷺ : من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أوتي حظه منهما لم يبال ما فاته من صيام النهار وقيام الليل.

وقال ﷺ لما قيل له : رجل حسن اليقين كثير الذنوب ، ورجل مجتهد في العبادة قليل اليقين ؟ فقال ﷺ : ما آدمي إلا وله ذنوب ، ولكن من كان غريزته العقل وسجيته اليقين لم تضره الذنوب ، لأنه كلما أذنب ذنباً تاب واستغفر وندم ، فيكفّر ذنوبه ويبقى له فضل يدخل به الجنة.

وقال ﷺ : اليقين الإيمان كله.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال: ليس شيء إلا وله حد . قيل له : جعلت فداك فما حد التوكل ؟ قال : اليقين . قيل : فما حد اليقين ؟ قال : ألا يخاف مع الله شيئاً.

وقال عليه السلام: من صحة يقين المسلم أن لا يُرضي الناس بسخط الله ولا يلومهم على ما لم يؤته الله ، فإن الرزق حرص حريص ولا يرده كراهية

كـاره ، ولو أن أحـدكم فـرَّ من رزقـه كمـا يفـرُّ من المـوت لأدركـه رزقـه كمـا يـدركه المـوت ، ثم قال عليه السلام: إن الله بـعـدلـه وقسـطه جعل الـروح والـراحة في اليقين والـرضا ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط.

أراد عليه السلام بقـولـه : «ولا يلومهم على مـا لـم يؤتـه الله» أن لا يشكـوهم على تـرك صلتهم إياه بـالمال ونحـوه ، فإن ذلـك شيء لم يقـدره الله لـه ولم يـرزقه إيـاه ، ومن كان من أهـل اليقين عرف أن ذلـك كذلـك فـلا يلوم أحـداً بذلك ، وعرف أن ذلك مما اقتضته ذاتـه بحسب استحقاقـه وما أوجبتـه حكمة الله في أمره.

وقـال عليه السلام: إن العمـل الـدائم القليـل على اليقين أفضـل عنـد الله من العمل الكثير على غير يقين.

وقال عليه السلام: قال أميـر المؤمنين عليه السلام على المنبر : لا يجـد أحدكم طعم الإيمـان حتى يعلم أن ما أصـابـه لم يكن ليخـطئـه ، وأن مـا أخـطأه لم يكن ليصيبه.

وقـال عليه السلام : إن أميـر المؤمنين جلس إلى حـائط مـائـل يقضي بين الناس ، فقال بعضهم : لا تقعد تحت هذا الحـائط فإنـه معور ، فقـال عليه السلام : حرس امرىء أجله، فلما قام عليه السلام سقط الحـائط . قال : وكـان عليه السلام مما يفعـل هذا وأشباهه ، وهذا اليقين.

وعن صفـوان الجمـال قـال : سـألت الصـادق عليه السلام عن قـول الله عـز وجـل : ﴿وأما الجـدار فكـان لغـلامين يتيمين في المـدينـة وكـان تحتـه كنـز لهما﴾ فقال : أما إنـه ما كان ذهباً ولا فضة ، وإنمـا كان أربـع كلمات: لا إلـه إلا أنـا من أيقن بـالمـوت لم يضحـك سنـه ، ومن أيقن بـالحسـاب لم يفـرح قلبه ، ومن أيقن بالقدر لم يخش إلا الله.

هكـذا رواه الكـافي ، ولعله سقط من النسـاخ شيء ، وتـأتي الكلمـة الرابعة في رواية أخرى.

وعنه عليه السلام قال : كان أمير المؤمنين يقول : لا يجد عبد طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن الضار النافع هو الله عز وجل.

وعن سعيد بن قيس الهمداني قال : نظرت يوماً في الحرب الى رجل عليه ثوبان ، فحركت فرسي فإذا هو أمير المؤمنين عليه السلام فقلت : يا أمير المؤمنين في مثل هذا الموضع ؟ فقال : نعم يا سعيد إنه ليس من عبد إلا وله من الله عز وجل حافظة واقية معه ملكان يحفظانه من أن يسقط من رأس جبل أو يقع في بئر ، فإذا نزل القضاء خليا بينه وبين كل شيء.

وعن الرضا عليه السلام قال : كان في الكنز الذي قال الله عز وجل : ﴿وكان تحته كنز لهما﴾.فيه بسم الله الرحمن الرحيم : عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن أيقن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها كيف يركن إليها ، وينبغي لمن عقل عن الله أن لا يتهمه في قضائه ولا يستبطئه في رزقه.

وعن الصادق عليه السلام قال : كان قنبر غلام علي يحب علياً عليه السلام حباً شديداً ، فإذا خرج علي خرج على أثره بالسيف ، فرآه ذات ليلة فقال له : يا قنبير ما لك؟ فقال: جئت لأمشي خلفك يا أمير المؤمنين . فقال : ويحك أمن أهل السماء تحرسني أم من أهل الأرض ؟ فقال : لا بل من أهل الأرض . فقال : إن أهل الأرض لا يستطيعون لي شيئاً إلا بإذن الله فارجع ، فرجع .

وروي عنه أنه قيل للرضا عليه السلام: إنك تتكلم بهذا الكلام والسيف يقطر دماً ؟ فقال عليه السلام: إن لله وادياً من ذهب حماه بأضعف خلقه وهو النمل ، فلو رامه النجاشي لم يصل إليه.

الفصل الثاني : في حقيقة اليقين :

اليقين أن يرى الأشياء كلها بقضها وقضيضها من مسبب الأسباب

ومالك الرقاب ، ولا يلتفت إلى الوسائط بل يرى الوسائط كلها مسخرة لأمر الله وحكمه ، وإذا علم ذلك وتحقق ما هنالك حصل له الوثوق بضمان الله للرزق فيقطع طمع قلبه عما في أيدي الناس ، ويعلم أن ما قدر له سيساق إليه ، ثم أن يغلب على قلبه أنّ من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، ثم المعرفة بأن الله مطلع عليه في كل حال عالم بسرائره وخبير بضمائره ، ومشاهد لهواجس ضميره وخفايا خواطره ، فيكون متأدباً في جميع أحواله وأعماله مع الله تعالى ، ويعبد الله كأنه يراه ويعلم بأنه يراه ، وتكون مبالغته في عمارة باطنه وتطهيره وتزيينه لعين الله الكالئة أشد من مبالغته في تزيين ظاهره لسائر الناس.

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام : اليقين يوصل العبد الى كل حال سنيٍّ ومقام عجيب ، كذلك أخبر رسول الله عن عظم شأن اليقين حين ذكر عنده أن عيسى بن مريم عليه السلام كان يمشي على الماء ، فقال : لو زاد يقينه لمشى في الهواء ، فدل بهذا على أن الأنبياء مع جلالة محلهم من الله كانوا يتفاضلون على حقيقة اليقين لا غير ، ولا نهاية لزيادة اليقين على الأبد.

والمؤمنون أيضاً متفاوتون في قوة اليقين وضعفه : فمن قوي منهم يقينه فعلامته التبري من الحول والقوة إلا بالله ، والاستقامة على أمر الله ، وعبادته ظاهراً وباطناً ، قد استوت عنده حالتا العدم والوجود والزيادة والنقصان والمدح والذم والعز والذل ، لأنه يرى كلها من عين واحدة.

ومن ضعف يقينه تعلق بالأسباب ، ورخص لنفسه بذلك ، واتبع العادات وأقاويل الناس لغير حقيقة ، والسعي في أمور الدنيا وجمعها وإمساكها مقراً باللسان أنه لا مانع ولا معطي إلا الله ، وأن العبد لا يصيبه إلا ما رزق وقسم له ، والجهد لا يزيد في الرزق وينكر ذلك بفعله وقلبه ، قال الله تعالى : ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون﴾.

وإنما عطف الله لعباده حيث أذن لهم في الكسب والحركات في باب العيش ما لم يتعدوا حدوده ولا يتركوا من فرائضه وسنن نبيه في جميع حركاتهم ولا يعدلوا عن محجة التوكل ولا يقفوا في ميدان الحرص ، وأما إذا أبوا ذلك فارتبطوا بخلاف ما حدَّ لهم كانوا من الهالكين الذين ليس معهم في الحاصل إلا الدعاوى الكاذبة .

وكل مكتسب لا يكون متوكلاً فلا يستجلب من كسبه إلى نفسه إلا حراماً وشبهة ، وعلامته أن يؤثر ما يحصل من كسبه ويجوع وينفق في سبيل الدين ولا يمسك ، والمأذون بالكسب من كان بنفسه مكتسباً وبقلبه متوكلاً ، وإن كثر المال عنده قام فيه كالأمين عالماً بأن كون ذلك وفوته سواء ، وإن أمسك أمسك لله وإن أنفق أنفق في ما أمره الله عز وجل ، ويكون منعه وعطاؤه في الله .

الباب التاسع
في التوكل

والكلام فيه في فصول

الفصل الأول : في فضله :

قال الله تعالى : ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾ وقال : ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ وقال تعالى : ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ . فأعظم بمقام موسوم بمحبة الله صاحبه ومضمون بكفاية الله لابسه ، فإن المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب .

وقال تعالى : ﴿أليس الله بكاف عبده﴾ فطالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكل وهو المكذب بهذه الآية .

وقال تعالى : ﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم﴾ أي عزيز لا يذل من استجار به ولا يضيع من لاذ به والتجأ إلى حماه ، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره .

وقال رسول الله ﷺ : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً .

وقال ﷺ : من انقطع الى الله كفاه الله كل مؤونة ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع الى الدنيا وكله الله إليها .

وقال ﷺ : من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده.

وعن الصادق ﷺ إن الغنى والعز يجولان ، فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطنا.

وعن الكاظم ﷺ في قوله تعالى : ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ قال : للتوكل على الله درجات : منها أن تتوكل على الله في أمورك كلها ، فما فعل بك كنت عنه راضياً ، تعلم أنه لا يألوك إلا خيراً وفضلاً ، وتعلم أن الحكم في ذلك له ، فتوكل على الله بتفويض ذلك إليه ، وثق به فيها وفي غيرها.

ولعل سائر درجات التوكل أن يتوكل على الله في بعض أموره دون بعض ، فتعددها بحسب كثرة الأمور المتوكل فيها وقلّتها.

وعن الصادق ﷺ: أوحى الله إلى داود : ما اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي عرفت ذلك من نيته ، ثم تكيده السماوات والأرض ومن فيهن إلا جعلت له المخرج من بينهن، وما اعتصم أحد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماوات من يديه وأسخت الأرض من تحته ، ولم أبال بأي واد هلك.

وعنه ﷺ: إنه قرأ في بعض الكتب أن الله تعالى يقول : وعزتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي لأقطعن أمل كل مؤمل غيري باليأس ، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس ، ولأنحينه من قربي ، ولأبعدنه من وصلي ، أيؤمل غيري في الشدائد ، والشدائد بيدي ، ويرجو غيري ، ويقرع بالفكر باب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة وبابي مفتوح لمن دعاني ، فمن ذا الذي أمّلني لنوائبي فقطعته دونها ، ومن ذا الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني ، جعلت آمال عبادي عندي محفوظة فلم يرضوا بحفظي ، وملأت سماواتي ممن لا يمل تسبيحي ، وأمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي فلم يثقوا بقولي ، ألم يعلم من طرقته نائبة

من نوائبي أنه لا يملك كشفها أحد غيري ، أفتراني أبداً بالعطاء قبل المسألة ثم أسأل فلا أجيب سائلي ، أبخيل أنا فيبخلني عبدي ، أو ليس الجود والكرم لي ، أو ليس العفو والرحمة بيدي ، أو ليس أنا محل الآمال فمن يقطعها دوني ، أفلا يخشى المؤملون أن يؤملوا غيري ، فلو أن أهل سماواتي وأهل أرضي أملوا جميعاً ثم أعطيت كل واحد منهم مثل ما أمل الجميع ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرة ، وكيف ينقص ملك أنا قيمته ، فيا بؤساً للقانطين من رحمتي ، ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني.

الفصل الثاني : في حقيقة التوكل :

إعلم أن التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين ، بل هو من معاني درجات المقربين ، وهو في نفسه غامض من حيث العلم وشاق وقال ﷺ: لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده ، بل انظروا إلى خُلقه وعمله .

ووجه غموضه من حيث العلم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد ، والتباعد عنها بالكلية طعن في السنّة وقدح في الشرع ، والاعتماد على الأسباب انغماس في غمرة الجهل.

والتحقيق فيه أن التوكل المأمور به في الشرع هو اعتماد القلب على الله في الأمور كلها وانقطاعه عما سواه ، ولا ينافيه تحصيل الأسباب إذا لم يكن يسكن إليها ، وكان سكونه إلى الله تعالى دونها مجوزاً أن يؤتيه الله مطلوبه من حيث لا يحتسب دون هذه الأسباب التي حصلها ، وأن يقطع الله هذه الأسباب عن مسبباتها ، سواء كانت لجلب نفع متوقع أو لدفع ضرر منتظر أو لإزالة آفة واقعة ، وسواء كانت مقطوعاً بها ، كمد اليد إلى الطعام ليصل إلى فيه ، أو مظنونة كحمل الزاد للسفر وأخذ السلاح للعدو واتخاذ البضاعة للتجارة والادخار لتجدد الاضطرار والتداوي لإزالة الضرر والتحرز عن النوم في مكمن السباع وممر السيل وتحت الحائط المائل وغلق الباب وعقل البعير ونحو ذلك.

أما الموهومة كالرقية والطيرة والاستقصاء في دقائق التدبير، فيبطل بها التوكل، لأن أمثال ذلك ليست بأسباب عند العقلاء الألباء، وليست مما أمر الله بها، بل ورد النهي عنها.

وليس معنى التوكل - كما يظنه الحمقاء - أنه ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة واللحم على الوضم، فإن ذلك جهل محض، وهو حرام في الشرع، فإن الإنسان مكلف بطلب الرزق بالأسباب التي هداه الله إليها من زراعة أو تجارة أو صناعة أو غير ذلك مما أحله الله.

وكما أن الصلاة والصيام والحج عبادات كلف الله بها عباده يتقربون بها إليه كذلك طلب الرزق الحلال عبادة كلفهم الله به ليتقربوا به إليه، بل هو أفضل العبادات، كما ورد في الشرع: إن العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال.

ولكنه سبحانه كلفهم أيضاً بأن لا يثقوا إلا به جل وعز ولا يثقوا بالأسباب كما أنه سبحانه كلفهم بأن لا يتكلوا على أعمالهم الحسنة بل بفضل الله تعالى ولهذا ورد في الشرع الأمر بالإجمال في الطلب لا الترك بالكلية ولا الإقبال عليه بالكلية.

وقال النبي ﷺ: ألا إنّ الروح الأمين نفث في روعي أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله عز وجل وأجملوا في الطلب.

وقال ﷺ: ما أجمل في الطلب من ركب البَحر.

وقال الصادق عليه السلام: ليكن طلبك المعيشة فوق كسب المضيع ودون طلب الحريص الراضي بدنياه المطمئن إليها، ولكن أنزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف ترفع نفسك عن منزلة الواهن الضعيف، وتكتسب ما لابد منه، إن الذين أعطوا المال ثم لم يشكروا لا مال لهم.

وقال عليه السلام: إذا فتحت بابك وبسطت بساطك فقد قضيت ما عليك.

وإنما لا يبطل التوكل بالأسباب المقطوعة والمظنونة مع أن الله تعالى

قادر على إعطاء المطلوب بدون ذلك لأن الله سبحانه أبى أن يجري الأشياء إلا بالأسباب كما قال الصادق عليه السلام؛ وأحب الله لعباده أن يطلبوا منه مقاصدهم بالأسباب التي سببها لذلك وأمرهم بذلك ، قال الله تعالى : ﴿خذوا حذركم﴾ وقال في كيفية صلاة الخوف : ﴿وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم﴾ وقال : ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾ وقال لموسى ﴿فأسر بعبادي ليلاً﴾ والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء دفعاً للضرر.

وقال النبي صلى الله عليه وآله للأعرابي لما أهمل البعير وقال : توكلت على الله «إعقل وتوكل» الى غير ذلك من الأخبار.

وروي أن زاهداً من الزهاد فارق الأمصار وقام في سفح جبل وقال : لا أسأل أحداً شيئاً حتى يأتيني ربي برزقي . فقعد سبعاً فكاد يموت ولم يأته رزقه ، فقال : يا رب إن أحييتني فأتني برزقي الذي قسمت لي وإلا فاقبضني إليك . فأوحى الله إليه : وعزتي وجلالي لا أرزقك حتى تدخل الأمصار وتقعد بين الناس . فدخل المصر وأقام فجاء هذا بطعام وهذا بشراب ، فأكل وشرب وأوجس في نفسه ذلك ، فأوحي إليه أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا ، أما علمت أن أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إلي من أن أرزقه بيد قدرتي .

وروي أن موسى عليه السلام اعتل بعلة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علته فقالوا له : لو تداويت بكذا لبرئت . فقال : لا أتداوى حتى يعافيني الله من غير دواء. فطالت علته فأوحى الله إليه : وعزتي وجلالي لا أبرأتك حتى تتداوى بما ذكروه لك . فقال لهم : داووني بما ذكرتم، فداووه فبرأ فأوجس في نفسه ذلك فأوحى الله إليه : أردت أن تبطل حكمتي بتوكلك علي ، فمن أودع العقاقير منافع الأشياء غيري ؟!.

الفصل الثالث : في سببه ودوائه ودرجاته :

إعلم أن من اعتقد اعتقاداً جازماً بأنه لا فاعل إلا الله ، ولا حول ولا

قوة إلا بالله ، وأن له تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية والتوجه بجملة العباد والآحاد ، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته عناية اتكل لا محالة قلبه على الله وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجهه ولا إلى نفسه.

ومن لم يجد ذلك من نفسه فسببه أحد أمرين : إما ضعف اليقين ، وإما ضعف القلب.

ومرضه باستيلاء الجبن عليه ، وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه ، فإن القلب قد ينزعج تبعاً للوهم وطاعة له من غير نقصان في اليقين ، كانزعاجه أن يبيت مع ميت في قبر أو فراش مع عدم نفرته عن سائر الجمادات ، فالتوكل لا يتم إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً ، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر، فكم من يقين لا طمأنينة معه ، كما قال تعالى لخليله : ﴿أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾.

وكم من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب الملل والمذاهب ، فإن اليهودي مطمئن القلب إلى تهوده وكذا النصراني ولا يقين لهما أصلاً ، وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، وهو سبب اليقين إلا أنهم معرضون.

واعلم أن الناس تتفاوت درجاتهم في التوكل بحسب تفاوت مراتبهم في قوة اليقين وضعفه ، وفي قصر الأمل وطوله ، وفي مقدار الادخار بحسب الأمل وللمنفرد والمعيل : فمنهم من هو من المقربين ، ومنهم من هو من أصحاب اليمين ، ومنهم من لا توكل له أصلاً ، وذلك بحسب عدم الوثوق بالأسباب أصلاً وقلته وكثرته.

ومن كمل إيمانه سقط وثوقه بالأسباب بالكلية ، فيرزقه الله من حيث لا يحتسب كسب أم لم يكتسب ، إلا أنه لا يترك الكسب بل يتبع أمر الله فيه ، وليس وثوقه إلا بالله وحده دون كسبه.

قال الصادق عليه السلام: أبى الله عز وجل أن يجعل أرزاق المؤمنين إلا من حيث لا يحتسبون.

وإنما خصه بالمؤمنين لأن كمال الإيمان يقتضي أن لا يثق صاحبه بالأسباب وأن يتوكل على الله عز وجل وحده، وكمال الإيمان إنما يكون لصاحب العلم المكنون من الأنبياء والأولياء ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقال السجاد عليه السلام: رأيت الخير كله في قطع الطمع عما في أيدي الناس، ومن لم يرج الناس في شيء وردّ أمره إلى الله تعالى في جميع أموره استجاب الله تعالى له في كل شيء.

وقال الباقر عليه السلام: بئس العبد عبد له طمع يقوده، وبئس العبد عبد له رغبة تذله.

وقال الصادق عليه السلام: شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس.

الباب العاشر
في الصدق وأداء الأمانة

قال الله تعالى : ﴿كونوا مع الصادقين﴾ وقال تعالى : ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾.

وقال الصادق ﷺ: إن الصادق أول ما يصدقه الله تعالى يعلم أنه صادق ، فتصدقه نفسه تعلم أنه صادق.

وعنه ﷺ: إن العبد ليصدق حتى يكتب عند الله من الصادقين ، ويكذب حتى يكتب عند الله من الكاذبين ، فإذا صدق قال الله تعالى صدق وبرّ ، وإذا كذب قال الله تعالى كذب وفجر.

وفي رواية أخرى : إن العبد ليصدق حتى يكتبه الله تعالى صدّيقاً .

وعنه ﷺ قال : كونوا دعاة الناس بالخير بغير ألسنتكم ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع.

وقال ﷺ لبعض أصحابه : أنظر ما بلغ علي ﷺ عند رسول الله ﷺ فالزمه ، فإن علياً إنما بلغ عند رسول الله ما بلغ بصدق الحديث وأداء الأمانة.

وقال ﷺ: إن الله تعالى لم يبعث نبياً إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة إلى البر والفاجر.

وعن النبي ﷺ: أداء الأمانة يجلب الرزق، والخيانة تجلب الفقر.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: أدوا الأمانات ولو إلى قاتل ولد الأنبياء.

وعن الصادق عليه السلام: من ائتمنك بأمانة فأدها إليه، ومن خانك فلا تخنه.

واعلم أن الصدق يكون في الأقوال وفي الأعمال وفي الأحوال، وأدنى مراتب الصدق الصدق في القول في كل حال، وكماله بترك المعاريض من غير ضرورة حذراً عن تفهيم الخلاف، وكسب القلب صورة كاذبة.

وينبغي أن يصدق في القول مع الحق ومع الخلق، فمن قال «وجهت وجهي لله» وفي قلبه سواه، أو ﴿إياك نعبد﴾ وهو يعبد الدنيا وهواه أو ﴿إياك نستعين﴾ وهو بغير الله يستعين، فهو كاذب.

كما قال الفريد الوحيد (ره).

إيـاك من قـول بـه تفـنـد ... فـأنت عبـد لهـواك تعبـد
تلهـج في «إيـاك نـسـتعين» ... وأنـت غـيـر الله تـسـتعـيـن

ثم الصدق في النية، بأن يخلصها من الشوائب كما تقدم.

ثم في العزم، وهو الجزم القوي على الخير، فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل، فيقول في نفسه «إن رزقني الله مالاً تصدقت بجميعه أو شطره» و«إذا لقيت عدواً في سبيل الله قاتلته ولم أبال وإن قتلت». وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد، وضعف يضاد الصدق في العزيمة.

ثم في الوفاء بالعزم، فالنفس قد تسخو بالعزم في الحال، إذ لا مشقة في الوعد، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات

انحلت العزيمة ، وهذا يضاد الصدق فيه ، ولذلك قال تعالى : ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ .

ثم في الأعمال ، بأن يبذل جهده ، بحيث لا يكون ظاهره مخالفاً لباطنه لا بأن يترك العمل بالمرة ، بل بأن يسخر الباطن الى تصديق الظاهر ، وهذا غير ريائي ، لأن المرائي هو الذي يقصد ذلك لأجل الخلق ، وربٌ واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ، ولكن قلبه غافل عن الصلاة ، فمن نظر إليه رآه قائماً بين يدي الله ، وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته . وكذلك قد يمشي على هيئة السكون والوقار ، وليس باطنه موصوفاً بذلك ، فهذا غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتاً إلى الخلق ولا مرائياً إياهم ، ولا ينجو من هذا إلا باستواء السر والعلانية ، بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره، وهذا كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: إني والله ما أحثكم على طاعة إلا وأسبقكم إليها ، ولا أنهاكم عن معصية إلا وأتناهى قبلكم عنها.

ثم في مقامات الدين ، وهو أعلى درجات الصدق وأعزها ، كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والحب والتوكل وسائر المكارم ، فإن هذه الأمور لها مبادىء ينطلق الاسم بظهورها ، ثم لها غايات وحقائق ، والصادق المحقق من نال حقيقتها ، قال الله تعالى : ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا﴾ إلى قوله : ﴿أولئك هم الصادقون﴾ وقال عز وجل : ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر﴾ ثم قال : ﴿والصابرين في البأساء والضراء﴾ الى قوله : ﴿أولئك الذين صدقوا﴾.

وسئل أبو ذر (رض) عن الإيمان فقرأ هذه الآية ، فقيل له : سألناك عن الإيمان فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الإيمان فقرأ هذه الآية .

وإن أردت أيضاً أن تعرف معنى الصدق في الخوف فاعلم أنه ما من عبد يؤمن بالله إلا وهو خائف خوفاً ينطبق عليه هذا الأسم ، ولكنه خوف غير بالغ درجة الصدق والحقيقة ، ولذا تراه إذا خاف سلطاناً أو قاطع طريق في

سفر كيف يصفر لونه فترتعد فرائصه ويتنغص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه ، وينقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به أهله وولده ، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة وبالراحة التعب والمشقة والتعرض للأخطار ، كل ذلك خوفاً من درك المحظور ، فما بال من يدعي الخوف من الله ومن عذابه وعقابه وناره لا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصيته عليه ، ولذا قال النبي ﷺ : لم أر مثل النار نام هاربها ، ولم أر مثل الجنة نام طالبها . وهكذا الصدق في الرجاء كما تقدم في محله.

وقد يكون العبد صادقاً في جميع الأمور ، فيسمى صديقاً ، وقد يكون في بعض دون بعض فيضاف إلى ذلك البعض ، بأن يسمى صادق القول أو العمل.

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق عليه السلام: إذا أردت أن تعلم أصادق أنت أم كاذب فانظر في قصد معناك وغور دعواك وغيرْها بقسطاس من الله عز وجل كأنك في القيامة ، قال الله : ﴿والوزن يومئذ الحق﴾ ، فإذا اعتدل معناك بدعواك ثبت لك الصدق.

وأدنى حد الصدق أن لا يخالف اللسان القلب ولا القلب اللسان . ومثل الصادق الموصوف بما ذكرنا كمثل النازع روحه إن لم ينزع ، فماذا يصنع ؟!.

الباب الحادي عشر
في المحاسبة والمراقبة

وفيه فصلان

الفصل الأول: في المحاسبة:

قال الله تعالى: ﴿وكفى بنفسك اليوم حسيباً﴾ وقال تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ وقال تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾ وقال تعالى: ﴿يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد﴾ وقال تعالي: ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.

فعلم أرباب البصائر أن العليم بالسرائر والمطلع على الضمائر سيحاسبهم على الصغير والكبير والجليل والحقير والنقير والقطمير، وعلى مثاقيل الذر من اللحظات والخطرات والغفلات والالتفاتات، ولا ينجيهم من هذه الأخطار العظيمة والأهوال الجسيمة إلا محاسبة أنفسهم في الدنيا قبل أن يحاسبوا في القيامة.

قال الصادق عليه السلام: إذا أراد أحدكم أن لا يسأل ربه شيئاً إلا أعطاه

فليأس من الناس كلهم ، ولا يكون له رجاء إلا من عند الله ، فإذا علم الله ذلك من قلبه لم يسأله شيئاً إلا أعطاه ، فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها ، فإن للقيامة خمسين موقفاً كل موقف مقام ألف سنة ، ثم تلا ﷺ: ﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ .

وفي رواية أخرى : ينبغي أن يكون للعاقل أربع ساعات : ساعة يحاسب بها نفسه . . .

وفي مصباح الشريعة : قال الصادق ﷺ: لو لم يكن للحساب مهولة إلا حياء العَرض على الله عز وجل وفضيحة هتك الستر على المخفيات يحق للمرء أن لا يهبط من رؤوس الجبال ولا يأوي الى عمران ، ولا يشرب ولا ينام إلا عن اضطرار ، ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها وشدائدها قائمة في كل نفس ، ويعاين بالقلب الوقوف بين يدي الجبار ، حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة ، كأنه الى عرصاتها مدعو وفي غمراتها مسؤول ، قال الله عز وجل : ﴿وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ .

واعلم أن معنى المحاسبة أن يطالب نفسه أولاً بالفرائض التي هي بمنزلة رأس ماله ، فإن أدتها على وجهها شكر الله عليه ورغبها ومثلها ، وإن فوتتها من أصلها طالبها بالقضاء ، فإن أدتها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وإن ارتكبت معصية اشتغل بعتابها وتعذيبها ومعاقبتها ، واستوفى منها ما يتدارك به ما فرط ، كما يصنع التاجر بشريكه ، فكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن بشيء منها ، فينبغي أن يتقي غائلة النفس ومكرها ، فإنها خداعة ملبسة مكارة ، فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما يتكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولى غيره في صعيد القيامة .

وهكذا عن نظره ، بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه ، حتى عن سكوته لمَ سكت وعن سكونه لمَ سكن ، فإذا عرف

مجموع الواجب على النفس وصح عنده قدر ما أدى الحق منه كان ذلك القدر محسوباً له ، فيظهر له الباقي عليها ، فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وعلى جريدته.

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفى منه الديون ، أما بعضها فبالغرامة والضمان وبعضها برد عينه ، وبعضها بالعقوبة له على ذلك ، ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالب والاستيفاء.

قال الكاظم عليه السلام: ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم ، فإن عمل حسنة استزاد الله وإن عمل سيئة استغفر الله منها وتاب إليه.

وقال الباقر عليه السلام: لا يغرنك الناس من نفسك ، فإن الأمر يصل إليك دونهم ، ولا تقطع نهارك بكذا وكذا فإن معك من يحفظ عليك عملك فأحسن فإني لم أر شيئاً أحسن دركاً ولا أسرع طلباً من حسنة محدثة لذنب قديم.

وقال الصادق عليه السلام: إن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله فقال له : يا رسول الله أوصني . فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : فهل أنت مستوص إذا أنا أوصيتك ؟ حتى قال له ذلك ثلاثاً وفي كلها يقول له الرجل : نعم يا رسول الله . فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : فإني أوصيك إذا أنت هممت بأمر فتدبر عاقبته ، فإن يك رشداً فأمضه ، وإن يك غياً فانته عنه .

الفصل الثاني : في المراقبة :

ينبغي للعبد أن يراقب نفسه عند الخوف في الأعمال ، ويلاحظها بالعين الكالئة ، فإنها إن تركت طغت فأفسدت وفسدت ، ثم يراقب الله في كل حركة وسكون ، وذلك بأن يعلم بأن الله مطلع عليه وعلى ضمائره خبير بسرائره ، رقيب على أعمال عباده ، قائم على كل نفس بما كسبت ، وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف ، بل أشد

من ذلك ، قال الله تعالى : ﴿ألم يعلم بأن الله يرى﴾ وقال تعالى : ﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾.

وقال النبي ﷺ : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وفي الحديث القدسي : إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني ، والذين انحنت أصلابهم من خشيتي ، وعزتي وجلالي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب.

وحكي أن زليخا لما خلت بيوسف قامت فغطت وجه صنمها ، فقال يوسف : ما لك تستحين من مراقبة جماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار.

والمراقبة تحصل من معرفة الله ، والعلم بأنه تعالى مطلع على الضمائر عالم بما في السرائر ، بمرأى منهم وبمسمع ، وهم بمرأى منه ومسمع .

والموقنون بهذه المعرفة مراقبتهم على درجتين :

إحداهما: مراقبة المقربين ، وهي مراقبة التعظيم والجلال ، وهي أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ومنكسراً تحت الهيبة ، فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير ، وهذا هو الذي صار همه هماً واحداً وكفاه الله سائر الهموم.

والثانية : مراقبة الورعين من أصحاب اليقين ، وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظواهرهم وبواطنهم ولكن لم يدهشهم ملاحظة الجمال والجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلفت الى الأحوال والأعمال والمراقبة فيها ، وغلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجمون إلا بعد التثبت ، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة ،

فإنهم يرون الله مطلعاً عليهم ، فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة .

فإن العبد لا يخلو إما أن يكون في طاعة أو معصية أو مباح . فمراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات ، ومراقبته في المعصية بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتكفير ، ومراقبته في المباح بمراعاة الأدب ، بأن يقعد مستقبل القبلة وينام على اليد اليمنى مستقبلاً الى غير ذلك ، فكل ذلك داخل في المراقبة. وبشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها ، وبالصبر على البلاء ، فإن لكل واحد منها حدوداً لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة «ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه» .

الباب الثاني عشر
في التفكر والتدبر

قـال الله تعـالى : ﴿ويتفكـرون في خلق السمـوات والأرض﴾ وقـال تعالى : ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ .

وقال النبي ﷺ : تفكر ساعة خير من عبادة سنة .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: التفكر يدعو الى البر والعمـل به .

وقـال عليه السلام: نبه بـالتفكر قلبـك ، وجـاف عن الليـل جنبـك ، واتق الله ربك .

وقـال النبي ﷺ : تفكروا في آلاء الله ولا تفكـروا في الله ، فإنكم لن تقدروا قدره .

وقـال الباقـر عليه السلام: إياكم والتفكـر في الله ، ولكن إذا أردتـم أن تنـظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظم خلقه .

وقال الصادق عليه السلام: من نظر في الله كيف هو هلك .

واعلم أن التفكر الذي أشـار إليه أميـر المؤمنين عليه السلام أنه يـدعو الى البـر والعمل به قد يكون في الحسنات والسيئات بـأن يتفكر العبـد في حسناتـه هل هي تـامة أو نـاقصة ، مـوافقة للسيئـة أو مخـالفـة لهـا ، خـالصـة عن الشـرك

والشك أو مشوبة بهما ، فيدعوه هذا التفكير لا محالة إلى إصلاحها وتدارك ما فيها ، وكذا إذا تفكر في سيئاته وما يترتب عليها من العقوبات والبعد عن الله ، فيدعوه ذلك إلى الانتهاء عنها وتداركها بالتوبة والندم.

وقد يكون بالتفكر في صفات الله وأفعاله ، من لطفه بعباده وإحسانه إليهم بسوابغ النعماء وبسطة الآلاء ، والتكليف دون الطاقة ، والوعد بالثواب الجزيل والثناء الجميل على العمل الحقير القليل ، وتسخيره له ما في السماوات والأرض وما بينهما ونحو ذلك ، فيدعوه ذلك الى البر والعمل به ، والرغبة في الطاعات والانتهاء عن المعاصي.

وهذا تفكير المتوسطين ، وإليه الإشارة بقول الرضا ﷺ: ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم ، إنما العبادة التفكر في أمر الله.

وسئل الصادق ﷺ عما يروي الناس «إن تفكر ساعة خير من قيام ليلة» قيل : كيف يتفكر ؟ قال : تمر بالخربة أو بالدار فتقول : أين ساكنوك وأين بانوك ما لك لا تتكلمين ؟

وهذا التفكر دون الأولين في الفضل ، وللناس فيه مراتب.

الباب الثالث عشر
في ذكر الموت وقصر الأمل

قال الله تعالى : ﴿كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ .

وقال النبي ﷺ : أكثر واذكر هادم اللذات . قيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : الموت ، فما ذكره عبد على الحقيقة في سعة إلا ضاقت عليه الدنيا ، ولا في شدة إلا اتسعت عليه .

وقال ﷺ : الموت كفارة لكل مسلم.

وقال ﷺ : تحفة المؤمن الموت.

وقال ﷺ : الموت الموت ، ألا ولا بد من الموت ، جاء الموت بما فيه ، جاء بالروح والراحة والكرّة المباركة الى جنة عالية ، لأهل دار الخلود الذين كان لها سعيهم وفيها رغبتهم.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام : ما أنزل الموت حق منزلته من عدَّ غداً من أجله .

وقال عليه السلام : ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل.

وكان يقول : لو رأى العبد أجله وسرعته إليه لأبغض العمل من طلب الدنيا.

وقيل للباقر عليه السلام: حدثني ما أنتفع به . قال : أكثر ذكر الموت ، فإنه لم يكثر ذكره إنسان إلا زهد في الدنيا.

وقال الصادق عليه السلام: إذا أنت حملت جنازة فكن كأنك أنت المحمول ، وكأنك سألت ربك الرجوع إلى الدنيا ففعل ، فانظر ماذا تستأنف . ثم قال : عجباً لقوم حبس أولهم عن آخرهم ثم نودي فيهم بالرحيل وهم يلعبون.

وقال عليه السلام: ما خلق الله يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت.

واعلم أن الموت هائل وخطره عظيم ، وغفلتنا عنه لقلة فكرنا وذكرنا له ، وإذا ذكرناه فلسنا نذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوات الدنيا ، والطريق فيه تفريغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي بين يديه كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا فيه ، فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه ، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكر قلبه.

وأوقع طريق فيه أن يكثر ذكر أقرانه الذين مضوا قبله ، فيتذكر موتهم ومصرعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ، وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم ، وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم ، وأوحشت ديارهم.

ومهما تذكر رجلاً رجلاً وفصل في قلبه حاله وكيفية حياته وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده وأمله في العيش والبقاء ونسيانه للموت وانخداعه بمؤاتاة الأسباب وركونه إلى القوة والشباب وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع ، وأنه كيف كان يتردد

والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله ، وكيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه ، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه ، وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه الى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر ، وهو غافل عما يراد به حتى جاءه الموت في وقت لا يحتسبه ، فانكشفت له صورة ملك الموت ، وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم ، والسعيد من اتعظ بغيره.

والذاكرون للموت على أقسام : فمنهم المنهمك في اللذات المنكب على الشهوات ، فهو إن اتفق ذكره للموت تأسف على دنياه واشتغل بمذمته وفرَّ منه غفلة عن قوله تعالى : ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ وقوله تعالى : ﴿قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم﴾ ويزيده ذكر الموت من الله بعداً . نعم ربما استفاد تنغص نعيمه وتكدر لذته ، فيتجافى عن الدنيا.

ومنهم : التائبون الذين يكثرون ذكر الموت لينبعث من قلوبهم الخوف والخشية فيفوا بتمام التوبة ، وربما كرهوا الموت خيفة من أن يختطفهم قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد ، وهم معذورون في كراهة الموت غير داخلين في قوله ﷺ: «من كره لقاء الله كره الله لقاءه» لأنهم يخافون فوت لقاء الله للقصور والتقصير ، فهم كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه ، فلا يعدُّ كارهاً للقائه ، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له.

ومنهم : العارفون الذين يكثرون ذكر الموت ، لأنه موعد للقاء الحبيب والمحب لا ينسى موعد لقاء حبيبه وينبغي أن لا يحبوا الموت إلا لأجل التزود من الأعمال وتحسين الأخلاق والأحوال.

ومنهم : وهو الأعلى ـ المفوضون ، وهم الذين يفوضون أمرهم إلى الله ولا يختارون لأنفسهم موتاً ولا حياة ، وأحب الأشياء لديهم ما يختار لهم مولاهم.

الباب الرابع عشر
في طول الأمل

قال النبي ﷺ : إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح ، وخذ من دنياك لآخرتك ، ومن حياتك لموتك ، ومن صحتك لسقمك ، فإنك لا تدري ما اسمك غداً.

وقال ﷺ : إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان : اتباع الهوى ، وطول الأمل . فأما اتباع الهوى فإنه يعدل عن الحق ، وأما طول الأمل فإنه يحبب الدنيا.

وقال ﷺ : أيها الناس أما تستحون من الله ؟ قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : تجمعون ما لا تأكلون ، وتأملون ما لا تدركون ، وتبنون ما لا تسكنون.

وطول الأمل له سببان : أحدهما الجهل ، والآخر حب الدنيا . فإنه إذا أنس بها وشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقلت على قلبه مفارقتها ، فامتنع قلبه عن الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئاً دفعه من نفسه والإنسان مشغوف بالأماني الباطلة ، فتمنى نفسه أبداً ما يوافق مراده وهو البقاء في الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقرره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه معكوفاً عليها ويلهو عن ذكر الموت.

وأصل هذه الأماني كلها حب الدنيا ، وأما الأمل فإن الإنسان قد يعوِّل على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، وليس يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر أهل البلد ، وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر ، وإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب.

وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة ولا يدري أن ذلك غير بعيد ، وإن كان بعيداً ففجاء المرض غير بعيد ، وكل مرض فإنما يقع فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً والموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ، ومن صيف وشتاء وخريف وليل ونهار ، لعدم اشتغاله بالاستعداد واستشعاره.

وعلاج الجهل الفكر الصافي من القلب الحاضر وسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة ، وعلاج حب الدنيا الإيمان باليوم الآخر وما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ، وإذا حصل اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا . وقد تقدم في الزهد وحب الدنيا ما فيه بلاغ.

نسأل الله أن يحسن عملنا ، ويقصر أملنا ، ويخرج حب الدنيا عن قلبنا ، ويحبب إلينا لقاءه ، ويوفقنا للأعمال الصالحة بحمد الله.

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

تم في يوم الأربعاء سابع وعشرين ربيع الأول سنة ١٢٢٥ ألف ومائتين وخمس وعشرين من الهجرة النبوية ﷺ .

فهرست الكتاب

الموضوع .... الصفحة

المقدمة ترجمة المؤلف، مشائخه، تلامذته، مصنفاته، كراماته، أقوال العلماء فيه ٥

حسن الخلق وأثره، ونفحة من أخلاق النبيﷺ وسيرته الكريمة وشمائله الفاضلة ٢١

كيفية تهذيب الأخلاق والآيات القرآنية في ذلك، مكانة الأخلاق في الإسلام ٢٥

الإخلاص في العمل أساس النجاح، وحسن النية أول الإيمان، والفضائل مقياس المسلم ٣٣

تطهير الباطن قبل تطهير الظاهر، الإنسان أفكاره وآراؤه لا صورته وأعضاؤه . ٣٩

فضل السواك وأثره على الصحة وموقف الإسلام من ذلك، والحياة هي الإسلام، والإسلام هو الحياة ٤١

أسرار تشريع الوضوء والغسل والتيمم، وأثر الطهارة في الإسلام ٤٤

في الأذان وإحضار القلب ولباس الصلاة للمصلين وما يتبع ذلك من واجبات .. ٤٦

أركان الصلاة وأحوالها وشرائطها وآدابها وفلسفة تشريعها ٥٠

الحكمة من صلاة الجمعة والعيدين والآيات، وفلسفة هذه الإجتماعـات ٦٧

فضل القرآن وآداب التلاوة والتدبر في معانيه والتفكر في أساليبه ٧١

آداب الدعاء وأثر ذلك على النفس وهدوئها والراحة الفكرية والجسدية .. ٧٦
دعامة الزكاة وأثرها في المجتمع وتنمية المال، وبالزكاة نظام المجتمع .. ٧٨
أسرار الصوم وآدابه والحكمة من تشريعه وأقسامه ٨٣
فلسفة الحج وأثر زيارة المشاهد المشرفة والعتبات المقدسة ٨٧
آداب الحج والاعتبار بذلك في جميع الأركان وفلسفة رمي الجمار ٨٨
آداب الجوارح نحو الله. رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام ٩٧
آداب المجالسة والمعاشرة وحقوق الناس العامة والخاصة وتأسيس الروابط
الودية بين أفراد المجتمع ١٠٥
دعوة الإسلام للإلفة والوئام وربط الأمة برباط الحب والإخاء ١٠٨
حقوق الأصدقاء والأخلاء وآداب أهل البيت بذلك وسيرتهم مع أصحابهم ١١٢
مراتب الصداقة وحقوق الصحبة وسرد أمثلة لذلك وشواهد ١١٤
حقوق المسلم والمؤمن وتقسيم ذلك وبيان واف لمعرفة ذلك ١١٧
نموذج من أخلاق أهل البيت وسيرتهم مع الإخوان الجلساء ١٢٦
قصص وشواهد على سمو أدبهم وأخلاقهم ومراعاتهم لحقوق الصحبة . ١٣٢
حقوق الجار وآداب الجوار والإستدلال بسيرة النبي صلى الله عليه وآله والأئمة ١٣٥
حقوق الأقارب والرحم وما يلزم المسلم حتى مع غير المسلم ١٣٧
حقوق الوالد والولد ونظرة ازسلام العادلة في تبادل الحقوق بين الآباء
والأبناء ١٣٩
الإسلام يضمن حق المملوك ويعتبره مساوٍ لغيره في الحقوق ١٤٢
الحقوق الزوجية وآداب المعاشرة وواجب كل منهما تجاه الآخر ١٤٤
موقف الإسلام من العزلة والمخالطة وإتخاذ المعارف وتحقيق في ذلك . ١٤٥
مضار الإسترسال في الشهوات وذم البطنة والشره ١٥١
الغريزة الجنسية والشهوة الحيوانية ومضار الإفراط ١٥٥

حفظ اللسان والحذر من إطلاقه ووصايا أهل البيت بذلك ١٥٧
آفات اللسان وتعدادها، النميمة والغيبة ونظائرهما من سوء الأخلاق ١٥٩
مضار الغضب وسوء مغبة ووخامة عاقبته وما ينتج من أضرار ١٧٢
الغضب، محاسنه ومساؤه، علاجه ١٧٤
الحقد ومساؤه، منابعه وآثاره أقوال الحكماء والأئمة المعصومون ١٧٧
الحسد وتعريفه، أثره في المجتمع، الدواء الناجع لمكافحته ١٨٠
الرياء في الأعمال، حملة الإسلام ضد المرائين، الآيات والأخبار في التحذير منه ١٨٦
تحديد الرياء والسمعة، أقسام الرياء والتحذير من جليّه وخفيه ١٨٨
أقوال الفلاسفة في درجات الرياء وأنواعه ١٩٠
سبب الرياء، علاجه ١٩٣
العجب والفرق بينه وبين الإدلال، ما ورد في ذمه، تفصيل البحث ١٩٥
التكبر وتعريفه، مساوؤه، أنواعه، كيف يختبر الإنسان نفسه ٢٠١
تعريف الدنيا والآخرة، الدنيا المذمومة والممدوحة ٢٠٩
ما ورد في ذم الدنيا، ما ورد عن الأنبياء والحكماء فيها ٢١٢
المال خير أم شر، موقف الإسلام من المال وتحقيق لطيف ٢١٧
ما هو الفقر، وهل هو خير أم شر، بحث علمي ٢٢٠
تعريف الجاه وحبه وعلاج حب الجاه، حب الثناء ٢٢٢
الغرور، تعريفه، أقسام المغرورين، جهات الغرور ٢٢٨
التوبة وفضلها، حقيقتها، فلسفتها، المبادرة إلى تحقيقها ٢٤١
متى تصغر الكبائر وتكبر الصغائر ٢٥٠
تجزئة التوبة، أقسام العباد فيها، طرق التوبة ٢٥٣
الصبر وأقسامه، الآيات والأخبار فيه، شواهد من أحوال الأنبياء ٢٥٨

علاج الصبر، كلام الحكماء والعظماء في فضله ٢٦٤
الرضا بالقضاء. شواهد من القرآن والأحاديث ٢٦٥
شكر النعم، حده وحقيقته، ما هو الشكر لله ٢٦٩
الطريق إلى شكر الله، من لم يشكر الخالق لم يشكر المخلوق ٢٧٣
تعادل الرجاء والخوف، تعريف ذلك، وكلام الفلاسفة ٢٧٦
تعريف الزهد، حقيقته، أقسامه ومراتبه ٢٩٠
محبة الله تعالىٰ والأنس بذلك، حقيقة الحب، والشواهد على ذلك ٢٩٦
معنى حب الله لعبده، الطريق إلى حب الله، بحث عرفاني ٣٠٢
تعريف اليقين، مراتب اليقين ودرجاته ٣٠٤
التوكل وفضله، حقيقته، درجات التوكل ٣٠٩
الصدق والأمانة أساس النجاح في الفرد والمجتمع ٣١٦
مراقبة النفس ومحاسبتها، السعي على يقظتها ٣٢٠
التفكر والتدبر وأثرهما على الإنسان ٣٢٥
رهبة الموت، الاستعداد للموت، الحذر من مفاجأة الموت ٣٢٧
طول الأمل مبعث الشرور والغرور ٣٣٠
الفهرس ٢٣٣